بولس سلامه



★

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

خبز وملح



المؤلف يحتضن حفيده روجه جواد سلامه

إلى القارئ

في هذا الكتاب ، لاتلتمس القصة ولا الحوار ، ولا وحدة الموضوع ، ولا النسق المطّرد . إنه لمزاج من مختلف الأشربة ، جلّه مبتكر ، وبعضه مقتبس ، ونزره معرّب . فما أشبهه (بالكوكتيل) لما ينطوي عليه من جدّ وهزل ، ونقد وإطراء ، وقسوة ولين ، وعرض نماذج من صميم الحياة ، وأحداث وعبر .

وإنك لواجد فيه اللطائف بجانب الفلسفة ، وأشعة من علم النفس بازغة من قلب الحكاية أو النكتة اللاذعة ، وربما لمحت في المشهد الواحد عشرات الألوان والصور .

ويحسن بك ألاّ تمرّ بالسطور عجولاً ، فإنّ ما وراءها أنفس منها وأبقى . ولقد يسّرت الديباجة فأحللت البيان مقاماً وسطاً إيضاحاً للقارىء الوسط وإجلالا للمثقّف لئلا أبالغ في التسهيل فيحسبني قد اتهمته في معرفته وسرعة إدراكه .

ولا يأخذنّ عليّ متزمّت أو هيّاب صراحتي في النقد ، فلقد بيّنت الأمراض على بشاعتها ، وأعملت المبضع حيث لا يجدي المرهم ولا البلسم ، فسمّيت الاشياء بأسمائها ، ولئن صوّرت القبح سافراً في بعض النواحي الاجتماعية فلقد أسبغت عليه من الفن وشاحاً ليكون للقبح جماله أيضاً .

ليس في هـذا المؤلَّف نصٌّ ولا حاشيـة ، فالاستطراد هو النصّ أو إنهما يتداخلان .

وانما هو حديث في الجبل بين رفاق ولكنه ذو شؤون متشعبة ، فيها اصطراع الأهواء والمآرب ، ولا تحسبنّها أبحاثا محلّية نسبية فإن معظمها والمطلق يلتقيان .

وأرجو ايها المطالع الكريم الا تملّ هـذا الحديث – على طوله – فلقد حاولت أن أُرَفِّه عنك بما أدرجت من فكاهة ، بين عقبة وأختها .

وبعد فإن هذا الكتاب جبلّي المولد لبنانيّ الموطن ، عربيّ اللسان ، وأطيب ما فيه خاتمته (المحبة)

بيروت ٢٢ أيار سنة ١٩٦٦

بولس سلامه

غابة الذئاب

حدثني صديقي بهزار قال :

دعاني الربيع الى الخروج من المدينة فبرحتُ البيت متسلّلاً لئلا يستفيق النيام . وقد آبوا في السحر جرياً على غرار الساهرين ليلة الأحد ، يتمادى بهم السَمَر فما تأويهم المضاجع إلا وقد تقشّع الدجى ، واستبان الخيط الابيض من الخيط الأسود .

يمّمت قرية ريفيّة توسّطت الجبل ، فهي بين الساحل الأخضر والصَرْد الأحمر العاري . ولم أرَ وجهاً لتسميتها (غابة) وقد أهلت بالآدميين منذ بضعة أجيال . ولكن أحد الظرفاء زعم انها كانت في غابر الدهر غابةً للذئاب ، تتحصن في آجامها السراحين ، وتفحُّ الأفاعي في جحورها ، وأن تربتها منبت العقارب . ومن خصائص عقاربها أن تلسع المرَدَة الطوال خِلسةً ، وتغور في الصدوع فرقاً ، فما تطول سوى أعقاب الجبابرة ، وتُقصّر عن سُوقهم فضلاً عن الرُكب . وغضب الله ذات يوم على تلك المذْأَبة فبعث عليها ناراً فدمرّتها وطهّرت أرضها من ذوات الناب والظُفُر ، فتبدّلت مَعَالمها وما زال من أثر الحريق بقايا ، هي خطوط سود نطّقَت سفوح أودائها وغشّتها بطبقة من الكبريت الأصفر .

بلغتُ القرية بعد مسير ساعة من بيروت ، بسيارة قدْتُها على مهل ،

استجابةً لطبعي واجتناباً لرعونة السائقين ، وسوادُهم رعاع تستخفّهم السرعة فتطيش حلومهم ، ويأخذهم الدوار فيصبحون – على غير وعيٍ منهم – أجزاءً من السيّارة ، يتوهمّون قوّتها قوتهم ، وكرامتها رهناً بكرامتهم ، فيشقُّ عليهم ان يسبقهم سابق ، أو يلحق بهم لاحِق .

باكرْتُ صديقي ابراهيم وهو ما انفكّ في فراشه يتثاءب ، فصِحْتُ به : ايها النؤوم قم ، فأجاب انما النُوّام أولادي ، وأنت أعلم الناس بمضاء عزيمتي ونقمتي على الخاملين ، ولكن الألم رفيقي الملازم شدّ عليّ الليلة فما نمت إلاّ غراراً .

ولقد صدق صاحبي في ما زعم ، ولا غروى فالصدق أبرزُ مزاياه – على وفْرَتِها - حتى لو راوَدَهُ الكذب لاستعصى عليه لسانه ، فهو يحترم نفسه احتراماً بالغاً لا يبقى معه سبيل للظهور بوجهين ، لذلك تنحّى عن السياسة لكثرة ما فيها من المزالق ، وخرج من الوظيفة نظيف اليد والصيت والجنان ، وأقبل على الأدب الرصين ، فكان من المجلّين فيه على أي صعيد ، إذ وطّده بجزالة البيان ، ودسم الفكر ، فتشرّبَ من الفلسفة أرسخها ، ونَهَل من الموارد أصفاها ، ودَعَم ذلك بالخُلُق السويّ ، فألّف القيم الأشتات ، فصهرها في نفسه حتى صار منها وأصبحت منه ، فكان هو الموضوع والذات جميعاً . ولكن الحياة الدنيا تنكرت له فلم يذق منها سوى حنظلها ، بيد أن ذلك العلقم استحال في نفسه الطيبة رحيقاً كوثراً ، كما تحولُ زهرة الشوك في فم النحلة عسلاً صفيّاً .

وخرجنا الى شرفة منزل ابراهيم ، فاذا فيها من صاحبها البشاشة والسعة ، وقد أقبلت حناياها على طريق السابلة ، وشهدنا الناس واردين صادرين . ولا يخفى ان يوم الأحد في الأرياف ما برح ضحوكاً يتكشّف عن مثل فرحة المهرجان ، إذ يتخفف الناس فيه من أعباء الأسبوع والعمل اليوميّ الراتب ، فيخرجون من السأم الموصول الى ضُرُوب السلوى يفرّجون بها عن صدورهم .

وبدهيّ ان يبدأ الريفيون نهارهم في المعابد ، لا رغبة في العبادة ، بل إقامةً لِسُنَّة ، وجرياً على عادة ، إلاّ من عصم الله فجاز القشور الى اللبّ ، والعفوية الآلية والطقوس الى ما هو أجلّ وأسمى .

صديقي عباس

ومرّ بنا ثلاثة نفر في طريقهم الى الكنيسة، وكأنهم قد تحسّسوا زيارتي ، فقدوم الغريب الى قرية صغيرة حدثٌ يستقطب خواطر أهاليها . وربما سلخوا سحابة نهارهم في التساؤل عن سبب مجيئه . وكنت أعرف الرجال الثلاثة . أما يوسف وسليمان فقرويّان بسيطان بل هما الى الغباوة أدنى . أما ثالثهما عبّاس فألمعيّ بلغَ من العلم والذكاء المبَالِغ ، وكان سليط اللسان حرّاً صادقاً ولو جارحاً ، لا يماري ولا يحابي الوجوه ، مخالفاً بذلك معظم القرويين الجبناء ، الذين لو سنح لأحدهم رأي لأشفق أن يتبنّاه فيقول : يزعمون ما هو كذا وكذا ، أو : يقول الناس كذا . كل ذلك إخفاءً لنفسه لئلاّ يُغضب زيداً أو بكراً ، فيسودّ وجهه ، وهل في الوجوه أشدّ عتمةً من سحنة الخامل الرعديد ؟ وما كان عباس كذلك بل نقّادةً شجاعاً يقول الحق ولو على نفسه ، ولا يدافع عن أبنائه إذا اخطأوا ، وربما كان أول من يدلّ الناس على عيوبهم لئلا يُتّهم بالإغضاء عن السيئآت في ذوي قرباه وتجسيمها في الأبعدين . وانما الحرّ من يعمل استجابة لخلقه النبيل ، لا خوفاً من المجتمع . فهو على احترامه للقيم التي تواضع الناس على تقديسها يسير بوحي ذاته ، وتلبيةً لنداء وجدانه ، لا اجتلاباً لمدح ، ولا دفعاً لِذمّ ، فليس أبغض اليه من تلك الأبواق والأصداء والمقاييس العامة والنماذج التي تحط من قدر الشخص وتجعل منه فرداً بدون خصائص مميّزة ، شأن افراد القطعان ،

وأسراب الطيور ، يقوم أحدها مقام الآخر بدون مشقة ، ويصح التداول به تداولَ الناس بالقطع النقدية ذات الفئة الواحدة .

كلاّ . إن عبّاساً كان إنساناً شخصاً يدرك قيمة نفسه نبيلاً وديعاً ، بيدَ أنه لا يتدنّى الى المستوى العادي ، ضنّاً بكرامته على الابتذال ، وربما كان أبرز هفواته جرأته في قول الحق ، فيتوهمه الناس شتّاماً مبغضاً للآخرين ، وانما هو في أعماقه محبٌّ خيِّر جمّاع للمكارم .

الصلاة من الشفاه

جلس عباس على الشرفة بإزاء ابراهيم يتلمّظ قهوة الصباح ، وليس أشهى منها الى مُدمني التبغ ، ونظر الى الطريق فرأى المارّين يندفعون فيها أفواجاً ، كأنهم في سباق الى الكنيسة فقال : أنا أعلم ان هؤلاء يكذبون في السرّ كذباً مطّرداً ، حين يغتابون بعضهم بعضاً في الزوايا الحميمة ،ثم يتلاقون في الأمكنة العامة فيتبادلون التحايا الزائفة ، وربما تبادلوا القُبل وفيها من سمّ الحقد ما يهون معه سمّ الأفاعي الرُقْط . ولكنهم في هذا الصباح سيكذبون على الله العليم بما تخفي الصدور ، وسيكون النفاق جماعياً ، اذ يهتف المصلون : اغفر ذنوبنا كما نحن نغفر لمن أساء الينا ونجنا من الشر آمين .

وتعالى الله علواً كبيراً عن مثل هذا الغفران الذي يضمرون،وهو الانتقام المُبيد ، ولتجدنّ لظَى الجحيم أيسرَ منه سبيلاً ، وأهنأَ مقيلاً . ولو تكشفت سرائرهم لذابوا خجلاً، إذ ينتهكون حرمة المعبد ويلتمسون من ربهم النجاة من الشر ، وليس إبليس بأشنع منهم خطيئة ، ولا أرهب إثماً . فلقد استحق الشقيُّ إبليس وجُنْدُه عذاب الحريق بخطيئة واحدة ، هي الكبرياء ،

الـــتي اعتبرها علماء اللاهوت أمّ المعاصي ، وأدرجوا الى جانبها أخواتها : الدعارة والحسد والنميمة والافتراء والشراهة . وهؤلاء المصلّون لا يرتضون بالكبرياء وحدها ضيفاً مكرّماً ، بل يُنزلون أخواتها أرفع المنازل وأعلـَقها بنفوسهم فيتّحِدون بها في وحدة لا تنفصم .

نهش الاعراض

عندئذ اعترض ابراهيم كلام صديقه وقال : يا عباس انك لتبالغ في مـــا تزعم ، وتأبى أن ترى الآثام إلا مجسمة ، فلقد أفحشت على هؤلاء وأنزلتهم منزلة الضواري والحشرات السامة ، فهلّا رفقت بهم وتلطفت في النقد ، عملاً بالمحبة المسيحية التي تدين بها وتحسبها أرفع من العقائد وأجزل عائدة، فاعتدل عباس في كرسيه وقال :

أما المحبة فسيأتي الكلام عليها ، أما اني أنزلت هذه الجماعة الفاسدة منزلة الحيوان فأنا اعترف بأني الى الحيوان أسأت، فالأهليّ منه جزيل النفع للانسان يغتذي بلحمه ولبنه ، ويكتسي بأصوافه ، ويتخـــذ منه المطايا ، ويصيد بالكلاب والجوارح طرائدَ لم تُدَجَّنْ بعد ، وتظل الكلاب – وهي مضرب الأمثال في الأمانة – مدار احتقار البشر ، فما أقبح العقوق .

اما الضواري فانها تفترس لتأكل ، استجابة لغريزة الحياة ، وما في ذلك عليها حَرَج ، فإذا شبعت كفّت عن الإيذاء . بقي ان الأفاعي تلسع دفاعاً عن النفس اذ تتوهّم أنك دائِسُها ، أو مقبل على جحورها للفتك بصغارها . واما العقارب فتشبه الناس بطبعهـــا ختلاً وعدواناً على الآمنين فتلدغهم ولو نياماً . وزعمت أني أغالي في اتّهام بني قومنا ، فخذ الدليل على سوء ظنّي

بهم . أنظر الى هذه الأنثى البادنة السائرة الى الكنيسة في المقدمـة ، تمشي مشية القائد المنتصر ، وهي بالملاكمين والمصارعين أشبه منها بالمرأة ذات الشعور المرهف . ومن اين يأتيها الحسّ وقد تراكم عليها الشحم حتى خنق فيها معالم الأنوثة ، وسدّ على نفسهـا الإنسانية كلّ منفذ ومُطَلٍّ على الخير والحنان ، فلم يبق فيها سوى النفس النباتية التي تزيد في سِمَنِها ، فلا تأتلي تنهش الخبز والأعراض نهشاً . فلقد صعدت الى السطح أمس ونشرت غسيلهـــا وصيتَ جارتها ، وقد كانتا من قبل متحابَّتين تشتركان في تمزيق سمعة جارتها الثالثة ، وها هما تزحفان متساندتين ، ولا ريب انهما تتهامسان وترميانها بكل فرية . والثلاث متعادلات في النميمة والافتراء وسلاطة اللسان ، فهذا هو المثلث المتساوي الأضلاع يسير في الطليعة .

وانظر هذا الفتى القزم ، الأبيض الوجه ، المكفهرّ السريرة ، يمشي مختالاً ، ويتكلم صاخباً ، ويُدِلُّ على رفاقه بالخاتم الألماسي في بنصره ، فيلوّح بيده لئلا تفوت العيونَ زينتُه وانت العليم بماضيه يا ابراهيم ، فلقد كان أجـــيراً خسيساً مبتلى بمركّب النقص . وما استكباره اليوم إلا الستر لذلك الفراغ المتأجج في عقله الباطن . ولقد غرّر بفتيات ثلاث قد كان وعدهن الزواج ومَنّاهُنّ الأماني . وما كان إلا منافقاً متعمداً ، ومنتقماً — على غـــير علم منه — لقِصَره ، وتلك عقدة نفسية عايشته منذ الطفولة ، ولدناءة محتده من بنات وجهاء قريته اللواتي أفسدهنّ بما أسلف من هدايا كانت اشراكاً لاصطياد العفة . أو ما سمعت ذلـك الحديث النعمة يباهي بإقامة الولائم لفلان وفلان من سُراة هـذه الكورة ليستقوي بأنسابهم ، فيرفع من قدر نسبه المغمور ، فيذكر اسماءَهم مجردة من الألقاب ليوهم السامعين ان اولئك الأماجد هم رفاقه الأدنَون ، فلا كلفة ولا مراتب ، ولكنهم في العشرة أنداد سَواسية . في مثل هذا يا ابراهيم يصح قول الإمام علي : احذروا صولة الكريم اذا جاع واللئيم اذا شبع .

العانس الناقمة

وسمعنا الجرس يقرع القرعة الأولى فقال مجيد ، ها هي سعدى تَلِجُ الكنيسة فلا يسبقها أحـــد . فجرض عباس بريقه ، وسكت سكوتاً هو أفصح من الفصاحة ، فسأله ابراهيم عمّا به فنظر الى مجيد وقال ، إني افكر في قداسة السيدة سعدى ، فقال مجيد والغضب ظاهر في سيمائه ، أتتهكم بهذه أيضاً يا عباس ، تكلّم ان كنت شجاعاً . فقال عباس سأتكلم ان كنت انت قوياً تملك شجاعة الإصغاء، فدرّع سمعك بالصبر لأن المصارحة ستكون على غير ما تشتهي ، فانك بسيط تؤخذ بظواهر الأمور ، وإن سعدى لتحتلّ من نفسك مقاماً رفيعاً ، فتحوطها بهالةٍ تُغشّي على بصرك ، ومردّ ذلك الى مكانة جدها الشيخ وموقع هيبته في صدرك ، وقد كنت انت وأبوك وجدك من أتباعه الأذلـّة ، فرسخ في روعك سيادة هذه السلالة ، وتوحّد في بصيرتك الأجداد والحفـــداء حتى أصبحوا رمزاً للسلطة عليك وعلى أشباهك من الضعفاء ، وما كانوا إلاّ طغاماً أقزاماً ، لا أبطالاً ولا كِراماً ، يتفضّلون عليكم بما يسّاقط من فتات موائدهم وانتم زارعو قمحهم وحاصدوه ، ويا طالما تفصّدت جباهكم عرقـــاً ، بينما كان سادتكم يشكون عبء الراحة فيسأمون ويفرّون من الضجر الى اللهو وانتهاك المحارم ، فقتلوا فيكم كرامة الإنسان وأيقظوا مَذَلـَّة العبيد ، فنشأتم على العبودية ، وعلى الهوان ربيتم ، فألِفتم الصَّغَار ، وتبرّمتم بالذين حاولوا إنقاذكم . فلئن ثقلت العبودية على الأرِقـّاء ، فان الحرية على غير مستحقيها أثقل . وانت يا مجيد لم ينقطع من قلبك الحنين الى ذلك البيت اللعين ، أما وقد سقط عنك النير في الواقع ، فإنـّك لتعايشه بالتذكار . مثلك مثـــل بني اسرائيل فلقد تلهّفوا على أيام هَوَانِهم في مصر ، إذ كانت السياط تخدُّ جلودهم خدّاً ، ونقموا على منقذهم

البطل موسى لأن أشعة الحرية لذعت جفونهم فذكروا البصل والكرّاث والثوم والمنزل الخشن ، وتاقوا الى استبداد الفراعنة . ذاك هو سبب إعظامك لسعدى ، فأنت ما زلت تعتدّ برأيها ورأي إخوتها ، على سخافتهم جميعاً ، وتؤمن بأخبارها مكذّباً أخبار الاذاعات العالمية ، وتجلّ علمها وهي أمّيّة ، وأنت على غباوتك ، أوفر منها معرفة . ولقد هجرت لبنان انت ورفيقك هذا يوسف ، وتنسمتما ريح الانطلاق في اميركا ، وشهدتما روائع المدنية والعمران ، وما تزالان في أعماقكما أجيرين لسعدى وأهلها ، فأوّاه من رواسب الطفولة وأوهامها ، وآثارها التي تخالط المُهج ، فلا تمّحي تلك إلاّ بانطفاء هذه .

وهنا انتفض يوسف وقال : أكثر ما قلته في بيت سعدى صحيح ، ولكن بِمَ تستطيع اتّهام سعدى ، وهي الفتاة البتول الدائبة في الصلاة والعبادة ، تقرع صدرها في الكنيسة جاثية فتخشع النفوس لتقواها .

قال عباس : أنا مؤمن بعنُوسة سعدى التي نيّفت على الخمسين ، بيد اني أشك في قيمة العفة القسرية ، وأُجِلّ العفاف الاختياريّ ، عنيت الراهبات والبتولات المتعبدات اللواتي أقدمنَ على التضحية لغاية جليلة هي أسمى من الزواج وأبعد مرمى ، وما أحسب أن على وجه الارض أصبر منهنّ على المكاره في خدمة المرضى الذين تشمئز النفوس وتتقزز من عاهاتهم وقروحهم ، ولا أشجع منهنّ في مواجهة الموت إذ يقمنَ على العناية بالبُرْص والمجدورين والمصابين بالطاعون والكوليرا ومختلف الأوبئة التي تعدي وقلّما يُرجى منها شِفاء .

وما هذا شأن سعدى التي أقصت عنها طلاّب الزواج بدرع من دمامة الوجه والنفس ، ولقد أخطأ حَدْسُك يا يوسف إذ توهّمتها زاهدة في الحياة، عازفة عن الرجال ، ولو كنت ملمّاً بعلم النفس لأيقنت ان الرجل هو حلم المرأة الدائم ، ما لم تكن متصوّفة من طراز القديسة تريزيا داڤيلا ، فإن

الأمومة هي سبب وجودها . ولو تمثل لك مـــا تعانيه المرأة من التجارب والكبت ، وما يحتدم في صدرها من ميول ، لبدّلت من رأيك في سعدى ، أو لكنت رحمت صباها فتزوجتها ولم تكتب على نفسك العزوبة ، ولأرحتها من هذه العفة الإكراهية التي استحالت فيهـــا حقداً على كل ذات بعل ، أو ذات حبيب ، وعلى الأمّهات جميعاً ، وربما على أمها التي ولدتها لمثل هذا الشقاء الذي لا ينقضي إلا بانقضاء الحياة . فيا لها من عانس حاسدة ، تسعى بالنميمة بين الناس وقد سنّت لسانها على بلاط جهنم . ينطبق عليهـــا قول الذكر الحكيم : « قل أعوذ بربّ الفلق ، من شرّ ما خلق ، ومن شرّ غاسقٍ اذا وقب ، ومن شرّ النفّاثات في العُقَد ، ومن شرّ حاسد إذا حسد » . ويا لها من أفعى ليّنة الملمس ، رهيفة الناب ، تصلّب قلبها فخرج من الطور الانساني ، وانقلبت غريزتها الجنسية الى بركان يود لو يدمّر المجتمع الذي أغفلها ، ولا سيما هذه القرية بالذات . واعلم ان مظاهر وداعتها زائفة ، إن هي إلاّ أخسّ ضروب الكبرياء . فما لوسيفورس الملاك المتكبّر إليها سوى ذرّة رمـل في كثيب . ألا ترى تدخّلها في شؤون القرية ما صغر منها وما كبر . تعمل على هـــدم البيوت وتسلق الآخرين بلسانها الذَرِب لترتفع هي ، فلا يسلم من عدوانها إلا العبيد الذين تخلّـوا عن رجولتهم أمثالك وأمثال مجيد ، تجعـل منكم خَوَلاً ، ومن نسائكم إماءً يَصْدعنَ بأمرها ، ويسبّحنَ بحمدهـــا ، ويدعمنَ كبرياءها فتزداد عُتوّاً على عُتوٍّ ، فما تلك العفة القسريّة ، بل ما هو الزنا حيال المعاصي التي تجترحها كل يوم حسداً وافتراءً ، ونميمة وكبرياء . « ومن يكسب خطيئةً أو إثماً ثم يرمي به بريئاً ، فقد احتمل بهتاناً وإثمـــاً مُبيناً » وانها لتوقظ الفتن الـكوامن بما تثير من شحناء تفضي الى خصومات تقلق البال ، وتهدّ الرجال ، وتستمتـــع هي بلذة المتفرّج من كـَرْب ، ولو أتيح لها ان تحرق هذه القرية فلا تعفّ إلا عن ذويها وأنصارها الى الشيطان لفعلت ، ولا غروى ان تسخّركم للانتقام ، فانهـا عندما تقرع صدرها ، في الكنيسة ، ابتهالاً ، تحاول تسخير الله لإبادة الطيبين والطيبات جميعاً ، وهنا

تمم مجيد ويوسف معترضين ان الصلاة للانتقام اختلاق يتعذّر تصديقه .

أما عباس فتابع كلامه مستشهداً على صحته بما يأتيه المتحجرون المتعصبون لعقائدهم إذ يستعينون بالله على إبادة اعدائهم في الدين ، أو في السياسة ، أو في مآرب أخرى ، واهمين بأن السماء مُرتَفَق لهم ، وان الله وملائكته دائرة لتنفيذ العقوبات ، ومما يزيد في شر سعدى بلوغها سنّ القنوط فلم يبقَ للخير في نفسها من سبيل .

الحقيقة الجارحة

كان صديقي ابراهيم يستمع الى عباس فلا يجادل في الحقيقة الجارحة ، بيد انه أخذ عليه قسوته في النقد ولا سيما في حضرة غريب ، وإن كان صديقاً ، مؤثراً أن تبقى شؤون القرية في حَيِّزها ، فلا تصدر عنها مثل هذه الأنباء ، فأومأ الى عباس أن يمسك ، ولكن هذه الإشارة زادت في حماسة عباس الشبيهة بحجر قد زلّ في منحدر هارٍ ، لا ينفكّ يزداد سرعة واندفاعاً كلما تمادى الزمن حتى يستقرّ في قاع الوادي فقال :

ما لك يا ابراهيم تصدّني وانا لا اقول إلا واقعاً ، أتريد أن أحتشم من صديقك بهزاد فيغترّ بهؤلاء الذئاب أهل قريتنا وهم الذين لو قدروا لصلبوك على خشبة مُنكّس الرأس ، كما صُلِبَ بطرس الرسول ، لأنك أبيت الانحدار الى مستواهم فاتّهموك بالكبرياء ، وإن هي الا الأنفة ، رفعتك علماً سامقاً فحسرت أبصارهم دونك ، أمّا الذين غمرهم فضلك فهؤلاء مقدمة الناقمين عليك ، يتمنّون ان تخسف بك الأرض لأنك الشاهد الحيُّ على صَغَارهم وعقوقهم . ولقد هزَلَتْ عَواتِقُهم عن حمل صنيعك ، وعَقِلَت

ألسنتهم عن شكرانك ، لأنها بُرِيَت على الثَلْب فانطلقت بذمتك ، وتأكّلهم الحسد فتأججت الغيرة في قلوبهم ، وما خلا منها أقربهم اليك دماً وأمَسُّهم بك رَحِماً . يعتزّون باسمك في ديار الغربة لأنهم في النكرات وينفثون عليك سِمامهم إذ يأوون الى جحورهم فيعيدون سيرتهم الأولى ، ويصيحون على مزابلهم ، وتستقوي حَناجرهم ، وتصبح مَناقيرهم الذابلة مَناسِرَ الشواهين تفري ولا ترحم .

ويتخرّص عليك المتخرصون للخفض من مكانتك ، وإثارةً للغوغاء لأنك ، على بسطة نفوذك ، وامتداد وجاهتك ، ونباهة صيتك في دولة الأدب ، لم تشقّ طريقاً لدوابّهم ، ولم تفتح سوقاً لبيع غلاّتهم ، ولم تتوسط رجال القضاء والإدارة لنصر فئة وإخزاء فئة ، فيا ويحهم ضُلاّلاً مضلّلين ، ومتى كان أعلام الشعر والفكر والبيان تجّاراً أو سماسرة ينبطحون على بساط أرباب النفوذ أذلّة صاغرين ، ابتغاءَ جلب المغانم أو تسويد زيدٍ على عمرو ، وانما الشعراء والمفكّرون خلائف الرُسُل ، وأخلَدُ الآدميين صيتاً ، وأبعدهم أثراً ، همّهم في الخير والجمال والحق ، وما يراد بالحق مفهومه في ذهن الغوغاء والمُهَوّشين ، كإنصاف جار مرّ جاره في أرضه بدون إذنه ، أو استقى من بئره بدون ثمن ، وانما الحق في ميزان القيم هو الذي عناه السيد المسيح بقوله : تعرفون الحق والحق يحرركم . بلى انه يحرر سوائم هذه البلدة من المُرجفين والمرجفات، الآفكين والآفكات الألى في الرغام وُلدوا، وفي الرغام يموتون ، فاذا ارتفعت أنوفهم الى المناخات العلى هلكوا هلاك الجعلان خنقها العبير ، ألا وإنهم ورثوا العبودية أجنّةً في الأرحام ، وعليها درجوا أطفالاً ، وتصلّبوا كُهّالاً .

الدلي

ولمحت الاضطراب في وجـه ابراهيم ورأيتـه يرمي عبّاساً بنظرة حـادة ويقول مهلاً يا عباس انك تُجمِل وتزن الجميع بميزان واحد ، فلِم هذه النظرة السوداء الشاملة ، فهل ضاقت القريـة عن استيعاب خمسة أو ستة من أهـل الصلاح ؟ فقال عباس بلى ربما زاد عدد الصالحين فيها على العشرة ، وبهذا فقط كان لها الفضل على سدوم وعمورة ، فاذا انفصل هذا النفر عنها ، كما نزح لوط وأهل بيته ، استحقت ان تحرق بالزفت والكبريت . ولكن هؤلاء الصالحين لا يرفعون صوتاً فكأنهم الأصنام الجامدة ، أو البُخار الذي يتلاشى فهو والعدم سواء ، وأنكى من هذا أنهم يسيرون في ركاب المجرم سليمان وهو عديل الشيطان أو أخبث قليلاً . « ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً » .

وتحمّس يوسف لدى ذكر سليمان ، وتزحزح في مقعده وقال : أسكت يا عباس ! أتتّهم سليمان بالجريمة ؟ فهل قتل انساناً أو سطا على دار احد ؟ أتدعوه كذلك وهو رجل ذكيّ الفؤاد ، مفتوح البيت ، ويقيناً انه أسخى من ابن عمك المهندس نعمان الذي يتمنّى ألا تكون له معدة ليصوم الدهر كلّه ، فيدّخر المال ويتنعم بعدّه وإعادته الى الصندوق الحديد صباح مساء ، وهو على ثروته الطائلة ، غير مسموع الكلمة في دوائر الحكومة . أما سليمان فلا تخلو دائرة من صديق له .

قال عباس : لقد صدقت في ما زعمت عن بخل نعمان ولؤمـه ، واني لرجل حقيقة أقولها ولو جرحت فكثرت رماياها ، وسواء أكان المضحّى نسيباً ام غريباً ، وها اني أزيدك علماً على علم ، فان أخي دريداً لأحرص من ابن عمي على المال ، وإنهما ليستويان فلا ترجح كفة نعمان إلاّ من جهة انقباض

وجهه ومباهاته الناس بيساره ، فإنه ليحسب الفلس المحرز قوة جديدة تزيد في استعلائه ، وقد أخذ « يتنمر » للناس في الآونة الأخيرة وَيَزْوَرُّ عنهم ، وهو لولا حاجته اليهم في استدرار الكسب لضرب بينه وبينهم سدّاً ، وما تزيده الأيام إلا بطراً أو أشراً ، وانه ليصدق فيه المثل القائل : رضع اللؤم من ثدي أمّه ، فكذلك والدته كانت في الشحّ والتطلّع الى ما في يد الناس ، وما يزال شبح الفقر يلازم نعمان ، فهو كابوسه الدائم وعقدة النقص في نفسه ، وهذا الطيف الرهيب ، يختلف عن قلق المصير الذي يرافق البشر جميعاً لأنه في أساس الوجود . ولولا مُركّب الدونيّة لانطلقت كف ابن عمي بالجود فلم يعش عيش المساكين وسيموت ، بعد العمر الطويل ، ميتة الأغنياء ،ولو استيقظت فيه عزة الإنسان ، وانتحت به نفسه مراتب الكرامة لضرب نسيبك سليمان ضربة لا يفلح بعدها أبداً .

المجرم المقنع

واستراح عباس هنيهة ريثما أشعل سيكارة ثم تابع حديثه موجّهاً الكلام الى مجيد فقال : أما ما ذكرت من ذكاء ابن عمك فانه والشيطان يستويان،بل ربما خلّف إبليس وراءه فشآه شأواً بعيداً ، ولكن هل رأيت احداً يمتدح إبليس لذكائه ؟ ومن أشهر نعوته انه اللعين ، والكذّاب ، وابو الكذِب ، ولو كانت هذه الصفات وما تستتبع من جرائم كالاحتيال والتزوير وسوء الأمانة من دواعي الفخر والمباهاة لباهينا الدنيا بسليمان ، فانه منقطع النظير في هذا الميدان ، وما بشاشته ومكارمه التي نوّهت بها إلاّ حبائل يوقع فيها الأغبياء فيكونوا ضحاياه حيناً ومطاياه أحياناً ، وانه ليستكثر من هذه الركائب المسخّرة ، فيغترّ به ، إلى حين ، أصحاب النفوذ فيبادلونه نفعاً

بنفع ، ما دام يسيّرها في خدمته وخدمتهم وقلما يأبهون للمثالية فيقدرون الناس قدرهم ، وما همّهم وازع الضمير فانهم يصرفون وَكْدَهم الى الآلات الصماء يديرها المحرك المباشر .

وهنا انتصب مجيد واقفاً وصاح في وجه عباس قائلاً : كفاك كفاك لقد جرحتنا بهذه الإهانة الصريحة . فلم يضطرب عباس بل تابع الكلام قائلاً هوّن عليك يا مجيد ، فما كل أنصار صاحبكم سواسية . فمنهم أصحاب النية الحسنة وقد ساقتهم الأقدار اليه مضطرين ، وهم المطايا الذين ذكرت ، وكانوا أغفالاً سائبين ، ينتظرون سيداً يضبط أرسانهم فيوجههم حيث شاء ، اذ لا إرادة لهم ولا حرية ، ولو قيّض لهم الحظ غير سليمان لأسلسوا له قيادهم ، فلا صَعْبَ بينهم ولا شَموس ، فكلّهم ذلول ينقاد بالإشارة ، دون إلجام ولا إسراج . ومنهم الذين دفعتهم الحزبية فانشقوا عن سواد القرية ، فجزعوا ان يضيعوا وهم قِلّة فشدوا به أزرهم ، على علمهم المبين بشره ونفاقه ، فلاذوا به كما يلوذ الهارب من النمر بمغارة الذئب . ومنهم أنسباؤه الأدنون وهو أعلم الناس بمَقاتلهم ،فكلما حاولوا من براثنه انفلاتاً ذكّرهم وشائج القربى وأواصر الرحم . ولا يخفى أن رابطة الدم هي أقوى الروابط وأشدّها إحكاماً في رأي الغوغاء،فتراهم يذودون عن ذوي قرباهم ولو سفّاحين لصوصاً، ومزوّرين وشهود زور ، متجاهلين أنهم شركاؤهم في الانحطاط الأخلاقي ، وأنهم إذ ينساقون في تيّارهم يُظاهرونهم في آثامهم وإن من بعيد . ولو كانوا على شيء من المسيحية لأدركوا ان القربى التي توحّد بين أصحاب الضمائر الواعية هي الفضيلة وحدها ، فاتّعظوا بجواب السيد المسيح له المجد حين قال له الجمع : إن أمك واخوتك ينتظرونك فقال إن أمي وإخوتي هم الذين يحفظون كلمة الله ويعملون بها . هذا مع العلم بأن ذوي قرباه قِديسون وأن أمّه أطهر نساء العالمين باتفاق الإنجيل والقرآن . ولو ملك أنسباء هذا الرجل مقدار ذرّة من الشجاعة لهتكوا الغشاء الذي ران على قلوبهم ، فاستنكروا جنايات نسيبهم المفسد في الأرض وتبرأوا منه ، براءة النبي العربي من عمه ابي لهب ، وقد

أقرّه على ذلك الذكرُ الحكيم ، فلم يصرح باسم شخص سواه ممن يتبوأون مقاعدهم من النار . « تبّت يدا أبي لهب وتبّ ، ما أغنى عنه مالُه وما كسب ، سيصلى ناراً ذاتَ لهب ، وامرأته حمّالة الحطب ، في جيدها حبل من مَسَد » . بلى ولكانوا تبرأوا من أتباع سليمان اولئك المنبوذين الذين تقيأهم المجتمع لِقَذَر أخلاقهم ، وإنهم ليؤثرون صاحبهم الشرير على السراة من خَدَمة الإنسانية سواء أكانوا أتقياء متصوفين ، أم أطباء محسنين ، أم خالدين .

لا نبيّ في بلده

وهنا حاول ابراهيم ان يقاطع صديقه عباس فقال : هَدّىء من روعك يا أخي ، وأرجو ألاّ اكون من الأدباء الخالدين الذين يُفضّل عليهم سليمان ، فإن أمر القرية لا يعنيني لأنني فيها بجسدي ، أما روحي ففي عالم آخر .

فهبّ عبّاس هِبّة الريح العاصفة وقال : يغيظني منك يا ابراهيم انك تنكر واقعاً لا يُدحض ، وانك تمعن في الصبر حتى ليملّ منك الصبر ويحسبك الناس بليداً ولست كذلك ، فلئن كنت مقتدياً بالمسيح فلقد أسأت الاقتداء . ألا ترى أن يسوع ثار غير مرة على الكتبة والفريسيين والظالمين ، فنعتهم بالثعالب والأفاعي والقبور المكلّسة ، فهلاّ تذكرت غضبته يوم طرد الصيارف وباعة الحمام من الهيكل ، فقلب موائدهم واتّهمهم باللصوصية ؟ أتكون أوفر وداعة من القديس بولس ، وهو معلم المحبة الأعلى بعد المسيح ، إذ نقم على جاحدي فضله ، فبيّن سَبْقه للرسل في ميادين الجهاد ، وذكر ما نزل به من الضرب والرجم والآفات الأُخَر . بيدَ أن لك بيسوع أُسوة حسنة ، لِمَا لقيه من أهل وطنه الناصرة يوم جاءها بعد ما انتظم دويّ

معجزاته المسامع ، وزجر البحر فركدت عواصفه ، ولكنه عجز عن إخماد عواصف الحسد في صدور الناصريين فائتمروا به ليقتلوه ، وهمّوا أن يطرحوه من شفا جرف هارٍ ، بعدما تهكّموا بـه ، لأنهم عرفوه نجّاراً فظل في رأيهم الخاطىء فتىً مزدرى ، لأنه يحدثهم بالسماء وهم عنهـا لاهون بتوافه الأرض . يقول لهم ليس بالرغيف وحده يحيـا البشر ، وأذهانهم الخاوية لا تحلم بسوى الرغيف والتناسل ، فلقد مات فيهم الإنسان وعاش الحيوان .

لولا يسوع لكانت الناصرة من أحقر بقاع الأرض ، ولطواهـا الدهر وابتلعها النسيان كموجة غابت في بحر لجيّ ، فما وعاها زمان ولا مكان ، فخلّدها يسوع وأبقاها مختلجة في الضمائر ، وشائعة على الألسنة ، تداولهـا العصور بعد العصور ، والناصريّون اليوم ، يهزون أعطافهم تيهاً بأن ذلـك النجّار تنسّم نسيمها ، وشرب من مائها ، ووطئت قدماه ثراهـا ، فاذا حجّها الناس ، من كل أفق بعيد ، خاشعين متبركين ، تبادر أهلها ليدلّوهم على أنقاض يرجّحون أنّ المسيح شرّفها بظله ، وعلى بئر كانت مريم تستقي منها إذ جاءهـا الملاك مبشّراً بالحمل السماوي فقالت : « أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ، قال إنمـا أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ، قالت أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً ، قال كذلك قال ربك هو عليّ هيّن ولِنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً » .

ذلك هو شأن المسيح في الناصرة وذاك هو شأنك يا ابراهيم بين قومك ، على بعد الشقّة بينك وبين يسوع الذي انت أحد عبيده . فلقد شرّفت هذه القرية الوضيعة أبد الدهر بعبقريتك حياً ، وصيتك المتجدد ميتاً . فهي لا تُذكر إلا بك اليوم وغـداً والى منقطع نفس الأيام . فلقد خلّدتها بأدبـك الرصين ، وفاءت من خلقك الى كنف مكين ، ولئن شاء سوء طالعك ان تشهد فيها النور مولوداً ، وتعثر فيها بالدجى كهلاً ، فلقد شاء حسن طالعها ان يبزغ من وراء الليل الغُداقيّ نورُ قلمك فيمتد الى كل قطر لاهجٍ بالضاد ،

نافذاً الى كل بصيرة مؤمنة برسالة القلم . وكأني بجفداء هذا الجيل من قومك الغافلين يلومون اجدادهم الألى جهلوا قدرك ، فآثروا عليك من لا يعدل جناح بعوضة في كفة القيم . ويرجح عندي أنه يوم يغدو بيتك العتيق مزاراً يحجه أهل الفكر ، يتسابق يومئذ أبناء قريتك الألى ضيّعك اجدادهم حياً للتباهي بك نسيباً قريباً . ولا يشتدّن عليك جهلُ ذويك واستخفافهم بمكانتك ، أوَلم يقل صاحب ملحمة « عيد الرياض » ، في معرض الكلام على الهجرة النبويّة وتنكـّر قريش للنبي العربي ومحاولتهم اغتياله :

رُبَّ نبع ينِدُّ عنه ذووه ويبيتون والشفاه ظِماء
حسدٌ يغمر القلوبَ فتعمى وتلظـّى وُقربها السقـّاء
كم عظيم ثوى ولولاه لم يَشرفْ نسيبٌ ولا زكى نبلاء
يَتَباهجونَ باسمه وهوَ حيٌ واليه بعد الممات انتماء
أهله الأبعدون أهلاً وداراً ومزاراً فأهـله الغربـاء
فاهجر الأهلَ يا محمَّدُ وانزلْ بلداً أنت فخره والسناء

ولا غروَ أن الطغام يؤثرون عليك سليمان ، أفلم يطلب اليهود من بيلاطس حين خيـّرهم بين العفو عن يسوع أو عن اللص الخطير براباس ، أن يصلب يسوع ويطلق براباس . ولا تحسبنّ اليهود وحدهم عُمْيَ البصائر ، أفلم يؤثر القرشيون أبا جهـل على النبي العربي ، ثم تألـّبوا عليه تحت رايـة رئيس الأحزاب ابي سفيان . كل ذلك يثبت أن الرذيلة حرب على الفضيلة . ولكان الخطب أيسر لو استطـاع الشر ان يسكت في حضرة الخير فـلا ينـاهضه ، ولكنه لن يسكت ابـداً ، وإن كان النصر للفضيلة في آخر المطاف . وانمـا يكون لها الظفر ، في الغالب ، وقد ذهب صاحبها من الدنيا شأن سقراط وأمثاله .

مات سقراط طعمةَ الظلم ، وَهْوَ الفكرُ ، شعَّ الضياء من أسفاره
أطفأوا عمره وفي كلّ جيلٍ حقباتٌ تزيد في أعمـاره

يُعجزُ الدهرَ خنق روح كبير فحياة العظيم بعــد اندثاره
كلما ثارت العصورُ لحقٍّ ألـقَـحَتْها هباءةٌ من غباره

(ملحمة عيد الغدير)

ولك بالنابغة جبران في المعاصرين مثل حيٌّ في هَوَان المرء على أهله ،فلقد خفيت عبقريته على ذويه حيناً ، وربما ازدَروه فصدّوه عن مصاهرتهم ناشدين الأكفاء من ذوي اليسار واللقب الضخم ، وكلاهما في الغالب مِجنٌّ يستر ضآلة الشأن ، وسخف العقل ، والعيوب الأخَر ، وهــا هم البشراويّون اليوم يفخرون بالذي هزّ بالقلم والريشة أندية الأدب والفن ، حتى دوّى صيته بين مشرق الشمس ومغربانها .

اما ان سليمان اللص المقنع يتمتع بالجاه والنفوذ في الدوائر الرسمية ، فمما لا ريب فيه ان بين الموظفين فئـــة خيّرة منزّهة عن الدنايا تدرك تبعاتها ، وتعي مالها وما عليها ، وهي الفئة القليلة بيد أن الأغلبيّة تنطوي على أنداد سليمان من المقنّعين ذوي الضمائر الواسعة ، والبلاعم الرحبة ، والأيدي الزهمة لفرط ما تلوثت بالرُشَى . ولتجدنّ بــين هؤلاء المختلسين زمرة من ذوي المناصب العالية والجاه الرفيع ،والصيت العريض، يُدِلّون إدلال الطواويس ، ويسرقون سرقة الغربان ، كما تجد بينهم الذين تقوّست ظهورهم لكثرة السجود للوسطاء والشفعاء المشفعين من ممثلي الأمة . وليس النواب في الفضل سواء ، فمنهم الأماجد الذين يأنفون ان تدنس عتبات منازلهم بالمجرمين ، ومنهم الذين يشترون أمثال سليمان بكل نفيس ويدّخرونهم لفصل الانتخاب العصيب ، فهم الدعاة الذين لا يتعثّر لهم لسان في دَسّ أو كذب ، يشوبون الوعــد بالوعيد ، والجدّ بالهزل . وكثيراً ما يكتب لهم التوفيق في الإقناع ، فليس أدرى من الذؤبان بضعف الكباش ومَقَاتلها ، وعامّة الناس قلما يرتفعون عن الـطعان في اندفاعهم وحماستهم وبُعدهم عن المنطق . أليس ان الجمهور الذي استقبل السيد المسيح بفرح عظيم صباح يوم الاحــد هو الذي انتقض عليه فصلبه مساء الجمعة !

ويتوسل سليمان بنفوذه ذاك لدى باعة الضمائر للتهويل على الضعفاء والتنكيل بهم ، شفاءً لغليله وغليل أنصاره البسطاء من خصومهم الذين يبتدعهم سليمان ويبتزّ أموالهم في الخصومات ، فيصيب غايات متعددة بحجر واحد ، تلبيـة للعقد النفسية التي تضطرب في صدره ، موقناً ان طريق البطش هي الطريق المثلى لاجتلاب الأنصار قسراً لا إعجاباً بالوغد المجرم ، وانما يسايرونه اتقاءً لغدره ، ويتحبّبون اليه تحبّبهم الى الثور النطّاح ، والكلب العضوض ، ولا ريب ان أحطّ البشر هو من يداريه الناس اتقـــاء شره ، ألم يقل صاحب ملحمة عيد الرياض :

الحقيرُ الحقيرُ من فقـــد الحبّ فـــذاب الأنامُ في بغضائه
من يُصمُّ الجنانَ عن هاتف الخير مُدِلّاً بلؤمه وخَلائـه
من يعدُّ الأنـــامَ بعض مطاياه وشيئاً يزيـــد في أشيائه
من إذا ماتت البرايا جميعـاً لا يعكّرْنَ ذَرّةً من هنائه
من يدارونه اتـّقـاءَ مَعَاصيه فإن غاب أمعنوا في هجائه
من اذا مات أمسكتْ عبراتٌ واشمأزّتْ يراعةٌ من رثائه

ولا يحسبنّ أحد أن سليمان على شيء من الشجاعة ، فانما هو بالتهويل يغطّي جبنه ، وبالأذى يستر دناءتـــه سَدّاً لمركب النقص واستعلاءً ، كأنه يقول للناس بوجهه الصفيق اني موجود فلا تحسبوني عدماً ، ذاك هو شأن العقرب ، فلولا ما تبتلي به الآمنين من ألم اللدغ ، لجاءت الدنيا وذهبت عنها غفلاً .

* * *

الثرثار

وقرع جرس الكنيسة مرة ثانية فتزايد عـــدد الذاهبين والذاهبات الى الصلاة ومنهنّ اللائي تبرّجنَ تبرّجاً شائناً ، ومشينَ متلعات الأجيـاد صاخبات شاردات العيون ، بينهن خادمة عادت من قطر عربيّ وقد أحرزت من النقد والحلى شيئـاً كثيراً ، بعدما أغنت أهلها وأدخلت أخاها أسعد الجامعة ، فخرج منها بشهادة الحقوق ، ولـكن لسانه كان يستعصي عليه في الذياد عن الحق، فلا ينطلق إلا يوم يأتي القرية فيحدّث بوجاهته زعيماً مهيباً، وصديقاً لأساطين القانون والأدب ، يسمّيهم مجردين من الألقـــاب لارتفاع الـكلفة ، ثم يختلق مغامرات غرامية وضحايا من الحسان اللائي شغفهنّ حبـاً حتى ليصبح « دون جوان » إليه قزماً . وانه ليستفيض فصاحةً في ثلم صيت نساء القريـــة فلا تكاد تنجو منهن واحدة . ولو أدرك جرّاح الأعراض هذا فجور جدته وأمّه التي ربّته بمـال عُشّاقها ، وأخته الـتي أدخلته الجامعة بهبات أصحابهـــا ، لتحاشى حديث الفحشاء من أساسه ، وهجرَ مجالس الخنى حيث تقذف المحصنات ، ويتعرّى الآفكون من الحياء متفكـّهين بتمزيق صيت سواهم ، وربما كانت أعراضهم أوْهَنَ من سمعـــة الذين يغتابون – ولا غروى فالمرء حسن الظن بأهله – فاذا خرج أحدهم من الحلقة أعملوا ألسنتهم في هتك ستور محارمه ، فعلَ الذئاب يتظاهرون مقبلين ، ويتناهشون مدبرين .

البخلاء

ودخل علينا ثلاثة نفر فائز وحسن وباسل المعروفون بمثلث النقائض ، أو مُثلّث الكسالى . أما فائز فلم يفز بشيء سوى إرث ضئيل جاءه من عمه العقيم ، ويزعم بعضهم ان ابن الأخ عيّد يوم ارتحل عمه عن الدنيا ، فأولم لأصحابه عشراء السوء وليمةً شربوا فيها نخب موت عمه البخيل ، الذي كان يكثر الملح في الطعام ليملأ جوفه بالشرب المتواصل ، فيشبع من الماء ويدّخر الخبز . وقلما كان يقتات بسوى الصعتر والترمس ، فاذا ألهب الملح حنَكه ، تحلّى بشيء من الخرّوب البرّي ، أو بقطعة مُلبّس مما ينثر في العرس ، وقد سقطت في السياج فنجت من أقدام الجمهور ، فخبأها للساعة المُرّة . وما كانت المرارة لتدخل فمه لولا قضمه البلّوط بدلاً من (الكستنا) يزدرده نيئاً ومشوياً ، على جمرات سنديان يستعيرها من جيرانه في أعقاب السهرة ، ويضعها في مِدفأته . وربما أتته المرارة من مضغ أعقاب (السجائر) يلمّها من الطرق ، في غفلة من الرقباء ، ويحرزها في خريطة من جلد . ومما يروى عن ابتكاره في الشحّ انه لا يخلع الحذاء قبل مصاحبته سنتين . فسئل في ذلك فقال انه يمشي على عقب الحذاء ستة أشهر ، ويتوكأ ستة أخرى على مقدمه ، ثم يعتمد على كل من الجانبين ستة أشهر ، فضلاً عن انه يدوس الثرى دوساً رفيقاً ، لا تيهاً ولا اختيالاً ، بل ضنّاً بالنعل ان تتهرأ ، ولا يلتزم في سيره إلاّ السمت المُعبّد ، فيتجنّب الجنادل والحصى وكل محدّد الأطراف من الحجارة ، فليس أفتك منها في النعال . ومما يروى عنه ان أحدهم صفعه أربع مرات فرفعه الى القاضي ، فأراد القاضي ان يصلح ذات البين ، فقبل المدعى عليه ان يدفع للمدعي الشحيح ليرة عن كل صفعة . فلما تراضيا على

ذلك خرجا من المحكمة ، ولم يكن لدى المدعى عليه سوى ورقة نقدية من فئة الخمس ليرات ، فأخذها الشحيح وقال له ليس لديّ ليرة أردها اليك ، فصفعه المدعى عليه الفكيه وقال ضاحكاً هذا هو الرصيد، فتلقاها الخسيس بعين الرضا .

وفي يوم وفاتـــه وجدت شقيقته تحت مخدّته قصاصة من جريدة تراكم عليها الوسخ ، لفرط مــا قلّبتها أنامل الفقيد شغفاً بما فيها وهذا هو نصها :

أيها المال ربّ الأرباب وسلطان السلاطـــين ، وسيف إبليس القاطع ، ودرع الغني المانـــع ، كل دولة تذهب إلاّ دولتك ، وكل صولة تحول إلاّ صولتك ، بك تفسد الضمائر ، وتُجتذب الحرائر ، يا مفتاح الملذات ومحقق الشهوات ، ومثير الجنايات ،وقائد عصابات البرّ ، وقرصان البحر ، ومهرّبي المخدّرات ، باعث المهارة في مُزيّفي النقود ، والدقــة في المزوّرين ، ومضرم الذكاء في صدور المحتالين . من أجلك يختصم الاخوان ، ويتباغض الجيران ، ويغترب الشبّان فيسلخون قلوبهم عن الأوطان سلخ الشغاف عن حبّ الرمان. ويخوضون المجاهيل في أفريقيا وأستراليا والبرازيل ، فكأيّن من داء وبيل ، ومن سليب قتيل .

ايها المال يا رافع الأدنياء ، ومُعزّ الأوغاد السفلة ، بك يتبوأ الأغبياء الـذرى ، وبشوكتك يستقوي الموظف الغاصب ، والمُبطِل الغالب . ولك يسجد خدمة الله إذ يعبدونك في السر ويكفرون بك في العلانية،وربما طلّقوا من أجلك الإيمان طلاقاً لا توبة فيه ولا إنابة ولا أوبــة ، فأثاروا الشك في صدور العوامّ ، إذ البسطاء لا يميزون بـين الدين ورجاله ناسين انهم بشر مثلهم ، وان يوضاس الذي شهد معجزات المسيح ومنها إحياء الموتى قد باعه بثلاثين من الفضة فلا غروى أن يبيعه الذين لم يروه بأكثر من ثلاثين الفاً من الدولارات .

ايها المال انت الوسيلة الى الزواج يا ساتر دمامة الشوهاء ، ورعونة البلهاء،

وسخافة المأفون وان كان بليـداً ، تغطـّي حُمقـَه فيبدو رشيداً ، على رأيـه تجري الخواطر ، والى أُبـَّهته تتلفت النواظر ، فيستكبر ويطغى بعد جوع وخنوع .

أيها الربّ الثاني ، بل ايها الرب الأول اني أضرع اليك ، مصلياً جاثياً ، أن توحي إليّ كيف أعبـدك حقّ عبادتك ، فأدّخرك في صناديق لا يقوى على كسرها أمهر لصوص (شيكاغو) وأسطاهم ، ولو احتشدوا لها عصابات وفيالق ، فأحرِزُها في سراديب لا ينفذ اليها النور ، وأحجبك عن اليتامى والمساكين وذوي القربى ، وتخفيك يدي اليمنى عن يدي اليسرى .

زدني علماً في التقتير فأكتفي بالرغيف بدون إدام ، وحبّب إليّ الصيام ، ومُدّني في المنام ، واكفني الغذاء ، ففي القول المأثور : أنّ من نام اغتذى . فإن لم يكن من الأكل بُدّ فيسّر لي دعوة الى وليمة أصيب منها فوق الشبع، في غفلة من الآكلين ، وأدّخر في أحشائي فضلة تغذوني بضعة أيام وردّ عني عيون الرقباء لعلي أدسّ في جيوبي مقداراً من الأرغفة ، ولا بأس أن تيبس فسأبلـّها بالماء ، وهو عند جيراننا وافر . فاذا تعفّنت فلا ضير عليّ في ازدرادها ، فلقد زعم العارفون ان (البنسلين) مشتق من العفن .

أيها الرب شدّد عزمي وَقوِّني على احتمال الوسخ فالصابون غالٍ في هذه الأيام . ثم انـه يبري الثياب فَتَنْصُلُ ألوانهـا ، ولا أبالي نقـد الهجّائين المتقذّرين مني ، فأنا وجوديٌ من أتباع جان پول سارتر ، حاشاي أن أغتسل ولو مرة في السنة . وهذه الدرع من الدرَن قد تقيني غدر الغادرين ، فلو عدا عليّ عادٍ فوجأني بسكين ، لانكسر أو التوى حد السكين . ولقد ساومني جاري ، فشرط عليّ أن أغتسل في جنينته ، يقيناً منه بأن الوسخ الذي غشّاني يعدل جوالق من سماد الخنزير ، فأبيت لأنه كذوب يخلف الوعد .

ايها المال المعبود ، ان المتوسل بك لا يخيب ، ولقد وقعت في يدي –بعد سقوطها من يد البائـع – ورقـة يا نصيب والسحب قريب ، فأَدِرْ نحوي الدواليب يا سميع يا مجيب .

واني أقسم بعزتك ألاّ أفرّط فيك اذا ربحت بل أزداد هياماً ، وأترك غرفتي هذه ، وأنام على السطوح في الربيع والصيف ، وألجم أفواه المتهكمين بي ، فلقد بلغت وقاحة أحدهم المَبَالغ ، فحذّرني من ان يسحبني النمل ، لما تراكم في كوخي من نوى الزيتون ، والزيتون في ما أعلم خير الثمار ، فلقد بارك الله عليه ، أو لم يرد في القرآن الكريم : « يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار » وقوله «والتين والزيتون وطور سينين ، وهذا البلد الأمين » .

ومعلوم ان النصارى يتخذون من زيته « الميرون » الذي يدهن به الطفل المعمّد ، والمريض المحتضر في سرّ مسحة المرضى . فضلاً عن ان الزيتون يزيل الإمساك ، ويقوّي الكبد ، وله منافع أخرى لا يحصيها عدّ ، ثم ان العامة في لبنان يسمونه شيخ السفرة .

ولقد عاب عليّ مَاجِنٌ آخر اقتصادي إذ ركبت ، الى جانب السائق ، سيّارة مُعدّة لنقل الزبل ، وبلغت منه الغباوة انه لم يميز بين انواع السماد ، اذ كانت الشاحنة تُقِلُّ سماد الماعز لا البقر ، والرعاة ينامون عليه في المراح فراشاً وثيراً ، ويستدفئون ولو اشتد الزمهرير وزمجرت العواصف ، وأظن انه يوليهم العافية ، فقلما تجد بين المعّازين سقيماً ولا هزيلاً .

أيها المال أيّدني بسلطانك لأخزي حُسّادي والطامعين بتركتي ، ولا سيما ابنة أخي نعيمة وزوجها وأولادها . ولا أنسى ما حييت يوم تناولت الصحفة لتغسلها ، فأفلتت من يدها وطارت شعاعاً فتصدّعت كبدي لانكسارها ، كسر الله يدها .ألا تباً لها من مسرفة تغسل وجهها كل يوم بالصابون العَطِر. كأن الماء وحده لا يكفي ، ومنه جعل الله كل شيء حيّ ، وتحذو أولادها

نعالاً جديدة على رأس كل سنة وترمي بالعتيقة . ومن مأثور الكلام احفظ عتيقك جديدك لا يبقى لك . ومـاذا يضير الأولاد لو مشوا حفاة فالحفاء أفـيَـدُ للصحة . وفي القول المأثور : تخوشنوا إن النعم لا تدوم .

ولا يُعادلها في الإسراف إلا زوجها الذي اشترى معطفاً منذ أربع سنين ، ثم اشترى معطفاً آخر منذ شهرين . ولقد كان في استطاعته ان يقلب العتيق باطناً لظاهر . وانا قد احتفظت بمعطفي خمسة وعشرين حولاً فقلبته ثلاث مرات . ولما بعته الى (العتقجي) شعرت كأن شيئاً مني ينهار لمفارقة ذلك الرفيق الأمين الذي وقاني البرد سحابة ربع قرن ، فاستحق يوبيلاً فضياً . وكنت أدفع به حرّ الشمس فيقوم لي مقام المظلّة اذا رفعت يديّ ومشيت في الهاجرة ، ويا طالما اتخذته لحافاً إذ كنت أنام على السطح فردّ عني صقيع الطلّ في الأسحار ، وبسطته فراشاً في ظلال الأيْك ، وطويته مِخـــدّة على الصخر في القيلولة ، وسددت به النافـــذة عند انكسار زجاجها لئلا تزحف الحشرات الى غرفتي .

ولا أنسى يوم ناظرت يعقوب الحوراني في الشحّ والتقتير فظَهَرتُ عليه برغم عراقته في هذا العلم ، وقد ألّف كتباً شتى بهذا الصدد منهـا « الرأي الأصيل في محامد البخيل » و « الكلام المسموع في معالجة الامراض بالجوع ». و « الاستغنـــاء بالهواء عن الشرب والغذاء » و « معايب السخاء وغباوة الكرماء » و « نبذ الكساء والدعوة الى الإعراء » . ومما يؤثر عنه انه قصد أحـد أقطاب اللؤم عيسى الترسيسي خاطباً ابنتـــه ، لا معجباً بجمالها بل طامعاً بمالها . وكان عيسى من طبقة سميّه الذي قال فيـه ابن الرومي :

يُقتّر عيسى على نفسه ... وليس بباقٍ ولا خالد
ولو يستطيع لتقتـيره ... تنفّس من منخرٍ واحد

وقد آل على نفسه ألاّ يصاهر إلاّ من بَذّه في البخل فيكون عزاؤه الوحيد ، بعد الموت ، ان صهره لا يبدّد مالاً استعبد حماه ، فأفنى حياته في

جمعه مرابياً او مختلساً لا يؤدي الأمانات الى أصحابها .

ودخل يعقوب على عيسى وقد تلهّبت الرمضاء ، ونضحت الجباه ، وابتلّت القُمُص فلزقت بالأجساد . وبعد التحية نشر عيسى مِروحته يجتلب بها النسيم ، واقتدى به يعقوب ، فقال يعقوب : جميلة هي مروحتك فمنذ كم اقتنيتها ؟ قال منذ عشر سنوات ، وهي ما برحت جديدة كما ترى لأني لا أحركها إلا تحريكاً رفيقاً ، واني لأرى مروحتك أحدث منها فمنذ كم اشتريتها ? فابتسم يعقوب وقال : ورثتها عن المرحوم خالي منذ خمس عشرة سنة ، ولا يأخذنك العجب ، فأنا أنشر مِروحتي ولا أحرّكها ، بل أحرّك رأسي يمنة ويسرة ، وهبوطاً وصعوداً فأجتذب النسيم . فهبّ عيسى واقفاً وقال : أنت هو الصهر الذي أحلم به ، بورك لك بألكسندره .

الابن سر ابيه

ومما يروى عن يعقوب انه خرج وزوجته ذات ليلة ليسمرا في بيت صديق لهما ، فلما بلغا منتصف الطريق ذكرت الزوجة أن المصباح ما زال مشتعلاً جزئياً ، فقالت لزوجها عُد الى البيت وأطفِئه تماماً ، فهرع وأطفأه وعاد ، فقالت ليتك لم تفعل ، فلقد تهرّأ من حذائك بمقدار نفقة الزيت ، فضحك وقال أتحسبيني غبياً ، لقد تأبطت الحذاء وقطعت المسافة حافياً .

ولقد رُزِق يعقوب وألكسندره أولاداً جمعوا اللؤم من طرفيه . وكان الزوجان إذا قررا ، بعد مداولة وجهد ، إعداد (الكبّة) ، وهي الأكلة اللبنانية المحبّبة ، يشترطان على الاولاد أن من يأكل حصته منها نيئة يسقط حقه بما يشوى منها أقراصاً . وكان يعقوب يُحرز الاقراص المشويّة في

الصندوق الحديد ، الذي يختزن فيه الذهب .

ولقد أكد طبيب ثقة أن يعقوب ، في مرض موته ، لم يستدع طبيباً ، ولم يتناول دواءً ، لان النفقة والموت في نظره صنوان . ولكن ذوي قرباه ألحّوا على زوجته لتستقدم طبيباً في آخر يوم من حياته ، دفعاً للملامة واتقاء لتهكّم الناس . فجاء الطبيب في الصباح وحقنه بزيت الكافور ، تحت الجلد، بعد ان غطّ قطنة في محلول صبغة اليود . وعاد بعد الظهر ويعقوب في النزاع الاخير ، فأمسك المُحتَضَر بيده وقال مهلاً فلقد احتفظت بالقطنة التي استعملتها صباحاً ولم تزل الصبغة عليها ، وهذه الجديدة تمتصّ أكثر من تلك فلِمَ هذا الإسراف ؟

مات يعقوب عن ثروة طائلة أورثها زوجته الكسندرا وأولاده، وأورثهم عبقرية الشحّ ، فبرّز فيها بخاصة ولده البكر اسكندر ، وكان شحُّه بكراً لا ينهض بمثله بُخَلاء الجاحظ مجتمعين . وقيل إن والدته مرضت عقيب موت زوجها لفرط الحزن ، فلقد كان زوجاً ورفيقاً وصديقاً ومرشداً متفوّقاً في ضروب الاقتصاد ، فأبت أن تتعزّى عنه ، فأسبغت عليها ثياب إرمالها ولزمت غرفتها . فمرّ بها الطبيب الذي شهد الوفاة ليؤاسيها فهاله ما رأى من هزالها وشحوب وجهها ، فخاف عليها السلّ ، فدعا بابنها اسكندر الى عيادته وحذّره مغبّة سقم الوالدة ، ونصح له بان يضاعف تغذيتها ، وأن يستعمل لها (المصل) حقناً في الوريد ، فأظهر اسكندر اهتماماً بالغاً ، وقال انها أمي أفتديها بدمي ، ولا يغلو على معالجتها غال ، فلقد حملت الى ابي أموال جدي عيسى وفيها الألماس وسبائك الذهب ، وإنها لخليقة بكل تضحية . أما الغذاء فعندنا من جميع أنواع القطانيّ من حمص وفول وعدس ، والعدس بارك الله فيه يحتوي الحديد ، ولا يخفى عليك ايها الدكتور الحكيم ان عيسو بن إسحق ، وهو سمي المغفور له جدّي ، باع حق بكوريته من أخيه يعقوب ، سميّ الطيّب الذكر والدي ، بأكلة من العدس ، وبحسب

ذلك دليلاً على قيمته . وأرى ان اللحم أكثر الأطعمة ضرراً لما فيه من دسم يؤذي الكبد والمعدة والقلب ، ويستوي في الضرر أصناف اللحوم جميعاً ، أكانت من الطير أم من الضأن أم من السمك . أما المصل فموفور في مزرعتنا الخاصة ، لأن الفلاحين هناك يحرزون اللبن الرائب في أكياس يعلـّقونها في الأشجار ، ويرشح مَصْلـُها فيذهب في الأرض هـدراً ، وليس أيسر من إحرازه في قصعة كبيرة نجلبها للوالدة .

فابتسم الطبيب وقال يا أبقراط آخر الأزمان ، إن المصل المطلوب هو دواء يُعَدّ في أوربا ويباع في الصيدليات لا مصل اللبن الذي يطرح للكلاب فتلغ فيه . فاكفهرّ وجه اسكندر وقال كم يكلفنا من المال هذا العلاج ؟ قال الطبيب إن المصل مع ما يضاف اليه من انواع (الفيتامين) يقتضي نحواً من ألف ليرة لبنانية ، لأنه علاج يتمادى . اما اللحم فضروريّ في هذه الحالة ولا سيما لحم الدجاج الغريض فَدَعْ موقتاً ما سمعته من العجائز والدجّالين عن مضارّ اللحم .

حينئذ غاض الدم في وجه اسكندر فاعتلت لُهاتـُه وجفّ ريقه وقال اني لا أرى موجباً لكل هذا ، فالمناخ الجاف عندنا في المزرعة مع الراحة والنوم وعناية الله تكفي لشفاء الوالدة .

فقال الحكيم الحمد لله الحمد لله ألف مرة .

فتهلـّل وجه اسكندر وقال إذن تراني مصيباً .

قال الحكيم بل أراك مصيبة منقطعة النظير ، وانما حمدت الله على براءة أُمـّك وزوال الريب الذي داخلني في شأنها ، لأنك لما أبديت ما أبديت ، في مستهلّ حديثنا ، من استعداد للتضحية أكبرتك وقلت في نفسي لله درّه من ابن يبرّ والدته فما ينسى قيامها على تربيته طفلاً ، ولا سبائك الإبريز التي حملتها من بيت أبيها حتى تلاقت ثروتا يعقوب وعيسى .

ولقد خامرني الشك في صحة أبوّة يعقوب لشاب سخيّ ، إذ الشوك لا يثمر عنباً ، ولا العوسج تيناً . فلما رأيت منك هذه النذالة الآن أيقنت انك ابن يعقوب حقاً . وأُرَجّح أنك شأوته أيّ شأوٍ ، وسيكون بإزائك حاتماً الطائي الحديث ، فيذكره الناس بالخير ويترحّمون عليه كما ترحّموا على عبدالله الساحلاني سارق أكفان الموتى ، وموجز خبره انه خلّف صبيّاً وحيداً يدعى شمشون ، فلما أيفع الغلام رأى الناس يعرضون عنه ويلعنون أباه . فاستوضح أمه السبب فأخبرته أن والده كان يسرق أكفان الموتى فقال : هَوّني عليك يا أُمّاه فسأجعلهم يستمطرون له الرحمة . وانطلق شمشون الى العين الوحيدة في قريته فكسر مزرابها ، وفجّر الديناميت في قعرها فغارت ، وألجأ الناس الى الاستقاء من عين تبعد عن القرية بضعة كيلومترات ، فأخذوا ينقلون الجرار والقُرَب على ظهور الدوابّ ، وكانوا كلما مرّوا بضريح عبدالله يترحّمون عليه ويلعنون شمشون . وستكون انت يا اسكندر شمشون الجديد فاذهب في غير حراسة الله .

الحسام الجبناء

تلك هي القصاصة التي وجدت تحت وسادة المتوفّى عم فائز . أما حسن ، ثاني أركان المثلث ، فكان ذا أنف أخنس تقبّع في مثل قبّعة القنفذ ، كأنه يخشى أن يُطلّ على الضوء ، تعلوه عينان جاحظتان كأن إحداهما هاربة من أختها ، فوق جبهة كحدّ الصراط ، تشرف عليها جمجمة أعرى من كفّ الوليد .

أما باسل فلقد خلّفه أبوه رضيعاً وربّته أمّه أجبن ما يكون الرجال ،

فصبا وشبّ واكتهل لصيقاً بثدي أمه ، واختار له زوجة من طراز والدته ، لئلا يبتعد عن الحُجْر الدافىء . بيد أنه كان زوجاً وفياً يأوي الى البيت قبل أن يفيء الفيء وتتقلّص الظلال ، لا كلفاً بقرينته ، وهي أبشع من أمه ، بل خوفاً من العتمة ، فلو أدركه الليل خارج البيت لاستنجد برفيق يبلغه العتبة .

ذلك المثلّث المتناقض معاني الأسماء وافق ظاهره باطِنَه ، وكثيراً ما تظهر النفس في الوجه ، وفقاً للقول المأثور : من سيماهم تعرفونهم . وقلما اجتمع هؤلاء الثلاثة على خير ، وكان أبرز عيوبهم الحسد والكسل . قال الرب لموسى : لا تشتهِ مقتنى غيرك ، وهؤلاء دأبهم التشهّي والقعود عن طلب المعاش ، خوّارة عزائمهم ، قصيرة عن ارتياد المعالي خطاهم ، يسلخون نهارهم في مراقبة الناس ، ويحصون عليهم أنفاسهم ، ويتسقّطون أخبارهم ، فتراهم عيوناً راصدة ، وقلوباً حاسدة . يسمرون ليلَهم مشغولةً خواطرُهم بنجاح سواهم ، مرددين هنيئاً لسليم الذي عاد من افريقيا ثرياً ، وهنيئاً لكريم الذي عانى ما عانى من الأسقام ثم شفي وأصبح ميسور الحال محترم الجانب ، وهنيئاً للطبيب حبيب فلقد تملك بناية في بيروت وصار في صفّ الأرستوقراطيين ، وكان بالأمس واحداً منا ، فحبذا الشيوعية تسوّي بين الناس ، فالمال مشترك والمرتبة واحدة ، فلا صراع في الوجود ، بل سكينة ونعيم وعزّ مقيم .

وكان من سوء طالع هؤلاء أن عبّاساً بَغَتَهم ذات ليلة سامرين خائضين في هذه الأحاديث ، فأخذته الحمية على عادته فأسكتهم وخاطبهم بما هذا بعض معناه :

ألا قبّحكم الله معشر الطفيليين تنقّون نقيق الضفادع في غدير وَبِيء ، كلما تدَجّى الليل فبرزت النجوم ولم يبقَ للعيون سواها مُرتاداً ، إلاّ ما كان منها عيوناً رُمْداً قريحة الجفن ، كليلة الإنسان ، يفضحها النور

ويؤذيها ، فتذمه وتدعو عليـــه بالخسوف ، كما ذمّ آباؤكم ذلك البطل الذي أنقذهم بيد قوية من مضطهديهم مالكي هذه القرية بالأمس البعيد ، إذ كانت منازلهم الى الأكواخ أدنى منهـــا الى البيوت ، لا يرتفع لأحدهم رأس إلا تناوله الصفع ، فيقف المضروب مكتوف اليـــدين ويقول للضارب البَطِر الأشِر إضرب يا سيدي فضربك شرف . كان أولئك الطغاة يتحكمون بمصايركم يتخذون من فتيـــانكم أُجَراء ومن صباياكم ونسائكم كنّاسات وخبّازات وحظايا ، فلا يطرُّ النبت في حقولـكم إلا بإذن سادتكم ، ولا ينمو العنقود في كرومكم إلا تحت عين الشمس وعيونهم ، فإذا عصرتموه خمراً سلافاً ، نزلوا عليكم آمرين لا ضيوفـــاً وشربوا أطيب خوابيكم وتركوا لـكم الثمالة ، فاذا تذمرتم طردوكم َطرْدَ السوائم ، وقذفوا بـــكم أنتم وأطفالـكم وآنيتـكم الى الخـــلاء ولو في اليوم المطير ، فتناثر متاعكم في مهبّ الريح المتناوحة . ويا طالما عبروا عليكم جسوراً إلى منافعهم فسيّروكم في رَكْب النائب الذي يدعمون ، فانتخبتم ولا حرية ، واخترتم ولا خيار . ويا طالما تفاخر آباؤكم بأكلة خصّهم بها معلمهم في يوم الحصاد ، إذ تتفصّد جباههم عرقاً وقد احمرّ القيظ ، ولفحت الهواجر ، فلما اختار الله للأرقّـاء الأقزام آبائكم شهمـــاً محرّراً منهم خذلتموه إلاّ أقلّـكم ، ومشى سوادكم في ظل الخونة المقرّبين من أسيادكم الطغـــاة ، لتظل اليد العليا لهؤلاء واولئك ، وأقيمت العيون على الشهم المحرر فكان الخوَنة يغزون مائدته ، ويسمرون عنده ثم يَشون به الى المستبدين الظَلَمة ، كل ذلك خوفاً من الحرية ونعيمها ، مؤثرين عليها ما يتسقطون من فضلات موائد الطغاة ، لا يرون في الحرية إلا شبحاً مخيفـــاً يَكيلـُهم الى انفسهم ، ويضعهم بإزاء تبعاتهم ، وإن هم إلا مطايا أسلست قيادها ، فلا تقحّمُ براكبها لئلا تشرف على رياض الحرية .

بيد ان ذلك النبيل الشجاع لم تروّعه الصعاب فشهر عصـــاه في وجوه المستبـــدين ، فكأنما أشرعت اليهم الأسنّة ، فلما حرر الضعفاء لم يجد منهم ثواباً ، فقلّ الشاكرون وكثر المتذمرون الذاكرون بالخير سياط الفراعنة ، وما

أنتم إلا حَفَدَة اولئك الآباء .

ففيم تعادون سليماً الذي وضع روحــــه على كفه وجاب القارة السوداء يخوض مجاهيلها ، وربما أوغل في أدغالها ، وحيداً أعزل يدركه الليل بـين عواء الذئاب ، وفحيح الثعـــابين ، وقد ينام غرثان ظمآن متوسداً جذع شجرة ، أو ملتحفاً أوراق دوحة يابسة ،بينا كنتم أنتم رُوّاد الحانات والمقاهي تتثاءبون كسلاً ، أو تترنمون ثملا ، ولقد عاد سليم وأضاف الى ثروة وطنـــه ثروة جديــــدة اجتلبها بماء الجبين وعرق الفؤاد . فأيكم أوفر عائدة وأجزل نفعاً ؟ أأنتم التنابلة منابت البغضاء أم هو المغامر الذي أفلح .

وعلامَ تحسدون خليلاً الأديب الذائع الصيت ، وقـــد سلخ معظم عمره فريسة الألم ، فثبت ولاثبات الرواسي مؤمناً بالله والقيم واليوم الآخر ؟ ألِئن شفي واستغنى عمّا في أيدي الناس تأكلكم الحسد ! فأين كنتم يوم كان يغطّ قلمه بدمه ليكتب ويؤلف فيكتسب المال حلالاً ثمناً للدواء يدفع به عن نفسه غائلة الموت ، وعن عياله ألم العوز ، فلا يكون عالةً على أحد .

أيؤلمكم ذيوع صيته في أقطار العرب وخمول ذكركم أنتم النكرات بدون تعريف ، وبسببه تصبحون نكرات معرّفة اذا تجاوزتم تخوم قريتكم فقيل لكم انتسبوا فإلى أي صنم من أصنامكم تنتسبون يا سدنة الأوثان . أو تحسبون أن الأدباء وأعـــلام الفكر يصبحون كذلك عفواً ، وان المعرفة تنزل على أصحابها آلياً وبــــدون مشقة ؟ ألا فاعلموا ان الفهماء المصابيح يجرون في حياتهم على ما هو آلم من الشوك ، فيفرّجون من الصعاب مــــا هو أعقد من العوسج وأكثر اشتباكاً ، فيسلخون ألوف الليالي مسهّدي الأجفان مضطربي الخواطر ، يُنضبون دمهم ، ويقصّرون آجالهم فَرِحين في الاطلاع والخلق والمشاركة في الحضارة .

ولكم أقام صاحبكم خليل من بناء شامخ في دولة القلم ، فما تنبهت خواطركم لجهلكم بالأدب ، فلما قام يبتني بيتا جبل بلاطه بمهجته جحظت عيونكم حسداً

ونتأت من محاجرها تطلعاً الى الحجر كأنكم تستكثرون عليه ذلك ، وثمة ألوف الأكارين ، وسائقو السيارات ، والراقصون ، والمغنون ، والضاربون بالدف ، وسارقو اموال الناس من موظفين ومهربين ومن جرى مجراهم ممن اقاموا القصور وبذخوا ، فلم تحتملون الالوف ، وتغصون بواحد اكتسب كل فلس بنقطتين واحدة من قلمه وواحدة من دمه !

ولم تقيمون القيامة على طبيب جاهد الحياة فأفلح ، أفلا تذكرون قصة الجندب والنملة حين استجداها فسألته :اين كنت في ايام الحصائد . قال : كنت اغني قصائد . فأجابت : اذن فارقص الآن فخجل ومضى . واين كنتم انتم يوم كان هو ينفق في طلب العلم من ماله ودماغه غارقاً بين الفيزياء والكيمياء والطبيعيات آخذاً في تشريح الجثث؟

ألا فاحصدوا الآن غلة ما قدمتم . اما ان تتهموه بالارستقراطية لانه اقتنى سيارة فخمة استكبرتموها عليه فحسد ، ولو استطعتم لابتعتم افخم منها غير مقتصدين ، فما هو زهدكم بالدنيا الذي يثنيكم عن البذخ والغرق في الملذات ، لقد صدق احمد شوقي حين قال :

قسماً لو قدروا ما احتشموا   لا يعف الناس الا عاجزين

ثم ان هناك فارقاً جسيماً بين الارستقراطي الفارغ المستكبر والأنوف الذي يدرك قدر نفسه ، فيتجنب مجالس الرعاع واصحاب الهذر والاباطيل ، ضناً بكرامته وبوقته ، والوقت أثمن ما في يد الانسان فالحياة كلها مجموعة ثوان تتمادى بين المهد واللحد . ثم ان هذا الذي ارتفع مقامه الاجتماعي ولئن كان ابن وطنكم او نسيباً لكم لا يستطيع الهبوط الى مستواكم ، فحسبكم منه اخلاصه لكم ، ومعاملتكم بالحسنى ، والقيام على خدمة مرضاكم خدمة انسانية جليلة . واني على كرهي للارستقراطية واختها الاقطاعية لما يحتويان من المساوىء والمفاسد الجمة ، اراني مسوقاً بعامل الانصاف لتدوين بعض الحسنات اذ قلما يكون الشر شراً محضاً والخير خيراً صرفاً ، وكثيراً ما يتداخلان

سواء في ذلك النظر اليها ذاتياً ام موضوعياً ، فان الطرفين يلتقيان ، واذا لم يكن من المفاضلة بد فان الارستقراطي الانيق ، ابن البيت العريـق ، له من مآثر بيته ما يمسكه عن التبذل ، فماضيه وحاضره يشدانه الى تراث يستقوي به على مجابهة المستقبل ، فلا تجد فيه دناءة الاوباش الذين يبذلون ماء الوجوه، فاذا ابتليت باحدهم ضاق صدرك به لفرط غلظه وتبذله وسوء تهذيبـه ، ولا سيما اذا كان طريف الغنى بعد املاق تليد ، وقد بدله القدر من الحمار الاعرج سيارة تمزق الريح والمارة من الاولاد الطائشين ، والعجزة المبطئين ، فاذا كان عائداً من الولايات المتحدة فقد تمت المصيبة واستجمعت النكبة عناصرها .

عائد من نيويورك

وهنا وقف صاحب البيت ابراهيم معترضاً ، وقال يا عباس لقـد أفحشت في القول على المغتربين اولئك الأبطال الذين رصّعوا المهاجر بمآثرهم الغرّ فكانوا نعم الفاتحين الأعلام بعد أجدادهم الفينيقيين، وما هذه القصور الحمر التي يزدان بها لبنان من أقصاه الى اقصاه إلا بعض آثارهم . ألا وإنهم رسُل العمران أينما كانوا ، ولئن شطّت بهم الدار فإن قلوبهم معنا ، ولقـد شهدت بعيني هاتين ، في مهرجان الأرز ، جمهوراً منهم يكبّون على الثرى يحتفرونـه بأصابعهم ويأخذون منه حفنات يحرزونها في ظرف ، فسألت أحدهم في ذلك فقال : هذه ذخائر مقدسة نحتملها الى أبنائنا وراء البحار يشمّون منها أرض لبنان . أما وقد تعذّر عليهم ان ينتقلوا الى بلدهم الطيب فها نحن ننقل اليهم بعضه تذكاراً :

فقال عباس : على رسلك يا ابراهيم ، لئن كان هواك مع المغتربين فإني بهم

اشغف قلباً ، وانك لم تبدِ من صفحات مجدهم إلا بضعة أسطر . ولا يخفى عليّ أنهم أعرق في لبنانيتهم من الذين أُقحموا في لبنان ، اقحاماً ولمّا يندمجوا به بعد ، شأن الزيت والماء ، يظلّ كل في ناحية . وأدهى من هؤلاء ، أولئك الذين ألبسو حلـّة لبنانية تستر َعوارَهم ، وما برحوا ينظرون اليها وكأنها حلـّة امرىء القيس المزعومة مسمومة ، وما هلك الملك الضلـّيل إلاّ من قروحه ونتن جسده بعد أن غمسه في الموبقات .

بلى يا ابراهيم ان المغتربين هم الحلى اللبنانية منثورة في ديار الغربة، ولكني في معرض الكلام على حديث النعمة الذي تلاقى عليه البطر وسخف التفكير، وانك لتجد بين العائدين من المهاجر نماذج من هذا الطراز ، فدعني أحدثك بما وقع لي مع أحدهم ذات يوم .

كان نبيه العائد من اميركا جاراً َلحـّاً لأخي المقـيم في نيويورك ، فكتب اليّ شقيقي ان استقبله في المطار وان احسن ضيافته وأُريه وجه لبنان الجميل، بعد إن هجره خمس عشر سنة . ولم أكن قد رأيت نبيهاً ، قبل اغترابـه ، سوى مرتين في بيت شقيقته ببيروت . فلما ترجّل في المطار خففت اليـه فعانقته وفي نفسي اني أعانق أخي ، فابتدرني بقوله ألا تزالون في لبنان على سيء عادتكم من الضم والتقبيل . قلت : فمـا يفعل الأميركان في مثل هذا المقام ؟ قـال : يتصافحون بالأيدي ، وبسط اليّ كفـّاً كالِمذْراة ، فمددت يدي فشدّ على أصابعي شدّة الملزمة الحديد ، فشعرت ان الدم احتقن تحت الأظافر ، فافتقدت أصابعي ، ولا سـيا الإبهام والسبّابة لحاجتي إليهما في الكتابة . كان ذلك فعل يده اليمنى في التسليم . أما اليسرى فقد شاركتها في التحية بالضرب على كتفي ابتهاجاً باللقاء ، فحمدت الله على ان الضربات كانت في حدود المعقول من الألم ، وأن السلام لا يتمّ بتبادل الصفعات فلقد كنت افتقدت أسناني بدلاً من أصابعي، ولا بتعاطي اللكم اذ لا بدّ من صدع أضلاعي، ولا سيا ان صاحبنا عائد من موطن جاك دمبسي الملاكم المشهور .

وركبنا إحدى سيارات النقل الى الفندق فسألته عن اخي سعيد فقال (Good) غود قوريت بالقاف المقلقلة يريد بها (All right) فقلت حفظك الله من اين ابتدعت هذه القاف الانكليزية ، أفأنت عائد من بعقلين أم من نيويورك ؟ وما حان لك ان تنسى المصطلحات اللبنانية . فاعتدل حينئذ في مقعده ولهجته وقال انتم لا تزالون متأخرين في هذه البلاد قلت ولماذا ؟ قال ما هذه السيارة الـ (سيمكا Simca) ؟ ستصل سيارتي بطريق البحر غداً فترى ما أجملها ولا أظن ان في لبنان مثلها ؛ قلت وما نوعها ، قال (بويك) قلت سترى العشرات من امثالها أمام المرائب وعلى شاطىء البحر وقد تفككت أوصالها فغدت حطاماً ، فليس بين أمم الأرض من يسبق اللبنانيين الى الترف، ولا الى السخاء والضيافة المنقطعة النظير ففيهم يصح قول الشاعر:

إذا جئتني بالزاد فالتمسي له أكيلاً فإني لست آكله وحدي
وإني لعبد الضيف ما دام قائماً وما بي إلاّ ذاك من ذلة العبد

الأميركان يخترعون واللبنانيون يشترون ويتمتعون . ثم أوصلته إلى الفندق واضطررت ساعتئذ للتغيب عن بيروت مدة عشرة أيام ثم عدت بعدها واصطحبته الى زحلة . وكان ذلك في منتصف ايلول سنة ١٩٦٤ ، فلما أشرفنا من المريجات على سهل البقاع في عصارى النهار ، كانت الشمس قد انحنت على البحر ولملمت أذيالها عن الجبال الشرقية ، فبدت صياصيها سبائك من عقيان، والتمعت آفاقها خطوطاً من لازَوَرْد ، ولاحَ السهل بساطاً موشىً بالخضرة والحمرة رافلاً بكل لون بهيج . فأمرت السائق ان يتّئد لئلا تفوت رفيقي تلك المفاتن من عرس الطبيعة في الريف ، وحدّقت الى نبيه فلم أتبين في سيمائه للنباهة أثراً، فكان خامد القسمات متبلّداً كأنه يسير في جنازة ،فحسبته مسحوراً بذلك الجمال السافر ، فقلت ما رأيك بهذه الفراديس التي يقصر عن تخيّل نظائرها رافايل وميكالنج وليوناردي ڤنشي مجتمعين ، وأنّى لهم ان ينبشوا مثل هذه الكنوز على صعيد الفن . إنه سهل البقاع سُرّة الريف

اللبناني العالي ، وأغنى سهوله خصباً ، وريّاً ، وأحفله بالفاكهة كرزاً وتفاحاً وأعناباً ، وأبهجها أنساً وأهلاً وجلباباً .

قال نبيه أتظن ان في السهل نبعـــاً من البترول يتعذّر نبشه على رؤساء الشركات الذين ذكرتهم . فصعد الدم إلى رأسي ، وكدت أجاوز حدود اللياقة الى شتم ضيفي ، ولكني تجلدت فقلت مالك يا نبيه ! أحدثك عن الفن وانت بالنفط حالم ! لقد تأمركت أكثر مما تأمرك الاميركان أنفسهم ، فسيّجت على نفسك حتى لم يبق لك على الجمال ُمطـَلّ ، فبتّ بعيداً عن الحضارة والفن ُبعدَ بنات نعش عن سطح الأرض . فتزحزح وقال الأميركان خلقوا الحضارة والفن والمدنية والسينما وكل شيء . قلت : اما الفن فقد نبت في اوربا وتمكنت جذوره فيها ، فلو شاء الهجرة الى اميركا َلبكى ، مـا لم يرافقه الأوربيون في دار غربته يتعهّدونه ، فلا يزلزل أعصابه هدير المعامل وسرعة عجلاتهـــا ، ولا يسود وجهه دخانها فيصبح زنجياً شبيهاً بالانغام والرقصات التي ينسخها الاميركان عن الزنوج .

ولا يخفى عليك ان ليس أقتل من الآلات للجمال .

ولقد ذكرني تنويهك بالسينما (فيلماً) شهدته بيروت في الآونة الاخيرة ، وكان احد ابطاله القديس بطرس الذي (أمركه) اصحابك فاسكنوه قصراً بلغ من الروعة والزخرف ما لم تبلغه قصور اباطرة روما ولا ايوان كسرى . واقتضت الرواية ان يسعى بطرس في هداية بنت وثنية ، فاختـاروا له ممثلة تفوق بريجيت باردو جمالاً وعرياً وصرخة جنس . فلما حاول اهلهـــا سفك دمها ، أردفها القديس على حصانه الاشهب ، وفرّ بهـــا ناسياً وداعة معلمه ، الذي لم يعرف من المراكب سوى جحش امتطاه يوم احد الشعانين اتمامـــاً للنبوآت ، ولولا ذلك لظل ماشياً عمره ، فواخجل الفن من هذه (الأمركة). ولقـــد أوجس قلبي فزعـــاً وأنا في قاعة السينـــما ان يشكّ المشاهدون في قداسة بطرس ، وهو المشهور بالزهد والقنوت ، وخشونة الملبس والمنزل ،

إذ نشأ صياد سمك ومات صيّاد نفوس يرفعها الى الله طاهرة ، والأرجح انه استشهد مصلوباً منكوس الرأس ، لئلا يستوي ومعلّمه في شرف الشهادة.

وليس من الغرابة بشيء ثناؤك على الاميركان فان الوفاء شيمة اللبناني . ولا جدل في فضل الولايات المتحدة التي فسّحت أرجاءهاللمغتربين من كل جنس ومدّت بالملايين من دولاراتها ملايين البشر ، مدفوعة بعوامل بعضها إنسانيـة وبعضها سياسية . أما أنّ الاميركان لطفاء مثاليون ، فلقد رسخ في ذهني ، بعدما قرأت وعرفت عـن شيكاغو وأخواتها ، ان عصاباتهم يربون على البدائيين الضاربين في مجاهـل أفريقيا وأستراليا والبرازيل وحشيّـة وافتنانـاً في الإجرام . ولتجدنّ في البدائيين بساطـة الغابـة اما في اولئك اللصوص ، أعداء الامن والعدل ، فربمـا كانت الصلة الوحيدة بينهم وبين الأوادم ازياءهم وملابسهم الانيقة .

واظن ان الغرائز تنجـلي وينهتك قناعها اكثر مـا تكون الفضيحة في حلبات الملاكمة والصراع . ولشد ما كانت دهشتي حـين شهدت المصارعين الامريكيين وبعدهم الاوربيين ، فأيقنت انهم ابعد الناس عن الروح الرياضية ، فتراهم يباهون بخرق نظام المصارعـة ، اذ يهشمون الانوف، ويصلمون الآذان عضاً وتمزيقاً والحكم صنم او شاهد زور لا يدفع اعتداء ولا يقوّم عوجـاً ولا يردع هَمَجاً. ولا غروى فالحكم والمصارعون من طينة واحدةهمد فيها الشعور الانساني . وعلى كثرة ما شهدت من حفلات الصراع لم اجد حكماً واحداً عدلاً انذر المعتدي ثم حكم عليه ، فشذ عن زملائه الاصنام او الجبناء او المتآمرين المرتشين . وقد يحاولون اطفـاء عيون خصومهم باصابعهم بعـد ان يحاولوا خنقهم ، فاذا سقط خصمهم تقاذفوه بالاقدام ركلاً مصحوباً بالبربرة«الزمجرة» والهمهمة والدمدمة . وما احسب ان الضواري تطوي حناياها على مثل حقد هؤلاء الغلاظ . ومن قبيـل الانصاف اقول ان الاميركان لم ينفردوا بهـذه الوحشية فقد جاراهم زملاؤهم الاوربيون الذين منهم غوته وكنط وهجـل ومكس شيلر وراسين وموليير ومئات الاعلام في الشعر والفلسفة وكل مجالات

العبقرية . ومن دواعي الفخر لوطن الأرز ان يكون المصارعون اللبنانيون انبل المصارعين واوفرهم حلماً اذ تطيش الحلوم ، واكفهم يداً عن الانتقام ، فما ابعدهم عن التشفي والاختيال ، اذ يختال الغرباء على حلبة لبنانية ، ويهددون بجماع اكفهم جمهور المشاهدين . واذكر ان ابرز المهددين عمالقة المكسيك والاسبان الذين مردوا على مقاتلة الثيران وانشاب الحراب في اكتافها وجنوبها ، فتجول في مصارعها مفتوحة العيون على اللاهين بسفح دمائها ، لا قرماً الى اللحم بل تلذذاً بدماء الحيوان البريء تكتحل بحمرته جفون الاطفال والنساء ، فتنطفىء في ابصارهم وبصائرهم آخر ومضات الرحمة والشعور الانساني .

وقد يلي المصارعين اللبنانيين في السماح والمكرمات العمالقة الزنوج . قلت الزنوج لا العبيد إجلالاً لهم عن العبودية ، فلئن كانت الشمس قد لفحتهم فصبغت أجسادهم بلون الآبنوس ، فلقد والله صهرت نفوسهم فابيضّت وطهرت من الكبرياء وشهوة السلطان والاستبداد .

ولما آنست من رفيقي نبيه إصغاءً أحببت أن أردّ عليه قوله : ان الاميركان خلقوا الحضارة والمدنية ، فسألته : ما الفرق بين الحضارة والمدنية فقال هما شيء واحد فقلت ها نحن قد أوشكنا أن نهبط زحله ولا مجال للإسهاب ، وموجز القول فيهما ان المدنية مدارها المادة ، والولايات المتحدة مجلية في هذا الشأو ، فما من سابق لها في صناعة السيارات والطائرات والآلات التي توفّر للمرء راحة الحلول والانتقال ورخاء العيش . أما الحضارة فمدارها الروح وتعمير العقول وتحقيق إنسانية الإنسان ونشر الخير والحق والجمال ، حتى لتغدو الأرض فردوساً للانسان في هذه الدنيا لا بعد الموت ، فيكون هنا ملكوت الله الذي هو في صميم الإنسان ، كما قال السيد المسيح ، ويكون هنا بدء الأبدية ، حينئذ يتغير وجه الزمان ولا يظل الوقت لاحقاً (للروزنامة) خاضعاً للتقسيم ، مشتتاً بين الدقائق والساعات ،

بل يصبح دواماً وجودياً نندمج فيه نحن البشر خالدين بخلود الله عز وجل .

وهنا شعرت أني قد حمَّلت عقل نبيه فوق طاقته فاكتفى بأن أجاب (يس يس) نعم نعم . هل وصلنا ؟ فقلت أجل هذا هو الوادي ، وهذا هو الكازينو .

وادي العرائش

ولجنا الكازينو وقد تصرّم آخر حبال الشمس فأمسى الوادي ، وسكتت قماريّ الطير في سرحه ، وعندلت بلابل الأنس حول جذوع دوحه وتدلّت من العساليج مصابيح الكهرباء ، فترجّحت وكوكبت كوكبة العناقيد في كروم تلّ شيحا في ليلة أضحيانة ، فتوهّجت الأشعة ، وتذبذبت الألوان فابتدعت ألف قوس قزح ، بين الشلاّل والبركة ، وتشعّبت الجداول يندفع فيها الماء من سَرَب الى سَرَب ، فيُسمع له وشوشة كوسوسة الحلى على صدور الملاح سَرَحْنَ في تلك الليلة – وكانت ليلة الأحد – في منفرجات المقهى ، وبين الموائد والأرائك ، نَوَاهِدَ حساناً أتراباً ، يتهادين في مثل زَيَفَان الطواويس دَرَجْنَ الى المناهل ، ويَمِسنَ في حلل الديباج والحرير ، وقد اشتملن بشالات لا يُراد بها اتقاء النسيم العابق بأنفاس المُدَلَّهين ، بل مضاعفة الحسن في الأكتاف العواري ، وابراز المحاسن من خلال الأضداد ، فمنها الأسود يتهافت على مناكب الشقراوات فيذكّر بشعر الدارميّ حيث يقول :

قل للمليحة في الخمار الأسود ماذا فعلت بناسك متعبد

ومنها ما كان لمَّاحاً في صفرة العسجد ، أو قانياً في حمرة الورد ، أو حانئاً في خضرة الزبرجد .

وتوالت أفواجهنّ في اتجاه البركة وقد تحلـّق الزاجلون، فتفحت قرائحهم عن مثل الزهر النظيم والكوثر الهادر ، قيامـاً بحق الجمال وشهادة لفعله في الأفئدة ، ولو انها ُموصَدَة ، ومعلوم ان الزجل ولد في لبنان ، ثم ُقبض الى حين ، ثم استفاق من الصرعة ، وسيخلد ما خلد لبنان وتاقت المسامع الى أناشيد العبقرية .

ويا طالما شهدت بركة (الكازينو) من أجواق المطربين والمطربات ، ما لو شهـد بعضه أبو الفرج الأصبهاني لاختصر القول في الغريض ومعبد وميّادة وسلاّمة ، وهانت عليه المئة الصوت المختارة على تراخي العصور فاستجمعها في ليلة واحدة .

وطاف السقاة على الشاربين بخمرة َعتـّقتها الحِقَب في أقبية (كساره) ، حيث ُختم عليها في الدنان فجاشت فهدرت فأزبدت ، فلما تجاوزت العُنوسة قرّت فصفت لوناً، وطابت َمذاقاً ، فاذا ُصبّت في الأكواب تهافت َحبَابُها دعوةً للشفاه الظِماء تترشـّفها قطرة قطرة غبّ قطرة . ولقد يمر بالسامرين ُسقاة القهوة المرة ساخنةً في أباريق مفضضة كمخارج أعناق البجع .

وسألت نبيهاً أيُّ الخمور شرابه الأثير ؟ قال : الويسكي قلت : أنت وما تريد ولكنني حسبتك – وانت عائد الى عاصمة الويسكي في الشهر المقبل – تحنّ الى الشراب اللبناني الأصيل ، وليد الكروم التي شهدناها في السهـل والمنحنى وقد استرسلت دواليها ، فمنها ما اعترش على َعمدَ الصُلب والحديد، ومنها ما رفعته المساميك وقد انبسطت اوراقها الخضر ، كأنهـا الأكف السخيّة مبسوطة للعائدين . وانمـا طعم العرق في عاصمته زحله غير طعمه في سواها ، فانظر اليه على هذه المائدة حيالنا رحيقاً مصفّقاً كمثل لـبَن الجنان. أولا تبعث فيك هذه الكؤوس رسيساً من ذكريات صباك الأول ، إذ َتدرجُ في قرية كانت المرافع أبهج مواسمها وأحفلهـا بالعرق العتيق . وكان المرفع يومئذ تأهّباً للصوم الكبير فيصيب الناس من اللحم في أسبوع ما يصدّهم عنه

سبعة أسابيع يقتصرون فيها على الحبوب والبقول ، وما جفّف من فاكهة الصيف محرزاً في البراني والجرار والأسفاط . تلك الأيام القلائل - ولا سيما يوم الخميس - المعروف بخميس السكارى - كانت مطلع خير على الشباب الفراهيد وشؤماً على الضأن والمعيز والديكة .

فهزّ نبيه رأسه قائلاً : صدقت ولكن الأحوال تغيّرت وصرت أحب الوسكي وأميركا اكثر من لبنان .

فأحسست مثل احتدام النار يتأكل مفاصلي ،فادّرعت بالصبر وقلت: اذا كان قلبك بعيداً عن وطنك الأول الى هذا الحد فلِمَ تحملت مشقة السفر ؟ قال: جئت أقيم الدعوى على ابن عمي وأكسر عنقه،لأنه في أثناء هجرتي أكل غلة بستان الزيتون وأهمله فيبس ، وكان يعطي مقدار نصف قنطار من الزيت الصافي كل سنة .

قلت :لئن فعلت لنصبحنّ والله سبّةً في افواه بني وطنك وانت المليم في اجتلاب اللعنة . أفبعد ثروتك الضخمة التي ساقها اليك الحظ ، وكنت قبلها مُعدِماً ، تُسَوِّل لك نفسك مقاضاة ابن عمك الذي لزم المرحومة والدتك في مرضها الأخير فغمرهابالعناية ، أفتبغي جرّه الى المحاكم لأجل بضعزيتونات أدركهن الهرم ، أو يَبِسنَ بفعل الحشرات ، أترى لهذه الشجرات الخمس المزعومة بستاناً قيمة أثرية ؟ أهو البستان الذي غشيه يسوع فركع وصلّى ، بالله عليك دع قضية البستان هذه .

قال : قيمة البستان زهيدة ولكنني أريد تأديب ابن عمي سرحان وفرض هيبتي على أهل الضيعة . ثم إن موسى الجبيلي يريد ذلك ، وأنا لا أعصى له أمراً . ولقد سمعت ان والده المتوفى منذ سنتين كان رجلاً شريراً أما هو فكريم اليد والخلق .

قلت : أو صدّقت ما يزعمون ؟ إعلم حفظك الله ان المرحوم الوالد وولده يصحّ فيهما قول الراجز :

هذي العصا من تلكمُ العُصيّه لا تلد الحيّةُ الا الحيّة

بلى لقد كان أبو موسى حية من نوع الحنش الذي يكشّ فيخيف ولا يقتل ، أما ابنه فصلّ اذا لسع قضى الملسوع لساعته .

وانه ليشبه موسى النبي من جهة أخرى نفسانية . ذلك أن موسى كان يقرّب القرابين على المذبح لشعوره بثقل أوزار الشعب الإسرائيلي. أما موسى هذا فقد بهظه الشعور بآثامه الشخصية ، فتعذّر عليه أن يتوب عنها بتضحية شيء من ذات نفسه ، فخلع آثامه على الأبرياء وقام يعاقبهم على خطاياهم الموهومة ، وانما هي خطاياه قد انعكست – في عقله الباطن – على ضحاياه . وان هذا الذي يدفعك للانتصاف من ابن عمك دخل السجن غير مرة وحكم عليه بجرائم الاحتيال والتزوير وإساءة الأمانة ، ولو شاء خصومه نبش ماضيه لشممت مثل رائحة القبور ، ولم يكن إحجامهم رفقاً به ، بل بالخياشم والصدور لأن رائحة الجيف أزكى من ماضيه وأطيب .

ثم ان هذا (الموسى) لا يشبه سميّه النبي البطل إلا بالضربات التي ينزلها بالناس ، فيخرب بيوتهم باختلاق الدعاوى والأكاذيب ، لسانه لسان أفعى ووجدانه وجدان ذئب . يودّ السيادة والغطرسة ولو مشى اليها على الجثث . يبتدع الفتن ويؤلّب القرويين بعضهم على بعض ليقودهم الى طاعته في انتخاب ناطور ، او مقاومة نائب ، او ما شاكل ذلك من التوافه اليومية الحقيرة ، فعل الحشرات التي تألف المزابل ، فاذا فجأتها بالعطر خنقتها. وانه ليريدك جسراً يعبر عليك للانتقام من ابن عمك سرحان ، فلا تصدّق بإخلاصه ، فاذا شفى غليله من سرحان عاد فانقلب عليك ، ما لم يجد سبيلاً الى جيبك يستفرغ ما فيه بواسع حيلته . ولا يغرّنك ما في ملمسه الناعم ، فلو قيّض له ان يحرق قريتكم فتصبح رماداً لفعل ، فحذار حذار لئلا يعديك فتبتلي بالجرب . فأجفل نبيه وقال : ماذا أهو جربان؟فقلت لو كان جربه جسدياً لهانت الرزية إذ تغتسل بالكبريت فتزول البثور . ولكنه أجرب النفس ، فأخاف ان

يعديك فتحمل الداء الى نيويرك وتعدي سكانها ، ولو جمعت حينئذ كبريت العالم بأسره وأذبته في نهر الهدسون ، فاستحمَّ فيه الناس وانت على رأسهم لما شفيتم . واني لأربأ بلبنان ان يصدر مثل هذا الوباء الى بلد صديق .

حينئذ أومأ نبيه انـــه اقتنع ولن يقيم الدعوى . فقلت بارك الله فيك ولكني لم أفهم بعد سبب استصغارك لبنان . قال : ان اللبنانيين مجتمعين لا يعادلون حيّاً واحداً من أحياء نيويورك . وهناك البنايات الشامخة تناطح السحاب لكثرة عدد طبقاتها . وهناك الميسيسبي أكبر أنهر الدنيا ، وهنـــا تسمون البردوني نهراً وهو دون الساقية ، عمر الله أميركا ، انظر حجم الموز على المائدة المحاذية فان الموزة الواحدة هناك تعادل أربع موزات من مثل هذه. فقلت يا أخي متى كانت القيم تقاس بالعدد والحجم ؟ فإن ازدحام الناس في كبريات المدن لا يفضي الى راحة الانسان بل الى شقائه ، فالصخب يوتّر الأعصاب والجلبة تنهك القوى وتشتت الخاطر ، وليس أقتل لعافية الجسد والفكر من الحركة الدائمة ، وصلصلة الحديد ، وضجة العجلات التي يدور معها الرأس لفرط دورانها . ويغدو الانسان في تيّار السرعة ذاك آلة سريعة تفنى قبل أخواتها لأنها من لحم ودم . وهـــذه الآلية التي تدين بها انت وأشباهك متوهمين انها مجلبة السعادة ومنطلق المدنية ستقضي على الحضارة ، وتقود العالم المتكالب على المادة الى الدمار الأخلاقي . ولا تحسبنّ التسابق الى القمر ومحاولة غزو الأجواء انفلاتاً من الأرض وسموّاً ، فبقدر مـــا يسمو الصاروخ في الطبقات العلى يتدنّـى الانسان أسفل سافلين اذا تجرّد من الروح. وشتان بين التحليق في أجواء الطبيعة وبين الاستعلاء في اجواء الروح ، فتبّاً للانسان يغزو العالم الخارجي ويهمل عالم نفسه فعلَ الظمآن قدمـــاه في الماء وشفتاه تتلهّبان ظمئاً .

ولا تغرّنك أناقة سكان المدن ونفاسة ملابسهم ، وما هم عليه من الترف، فأهل الريف – في الغالب – أصحّ أبداناً ، وأصفى أذهاناً .

ويحضرني هنا قول سيد البلغاء ، قديس الاسلام علي بن ابي طالب : « ألا وإن الشجرة البريّة أصلب عوداً ، والروائع الخضرة أرقّ جلوداً ، والنباتات البدوية أقوى وقوداً ، وأبطأ خموداً » .

أما شموخ ناطحات السحاب في نيويورك فلا يزيد في مدى البصر كثيراً إذا طمحت العين الى الاشراف من علُ ، واني لأتمنّى عليك ان تعتلي شعاف جبالنا السامقة من حرمون الى القرنة السوداء ، وتقلّب خاطرك وبصرك في ما يكتنفها من شعاب وبطاح ، وهضاب وسفوح وبحيرات من خضرة يتموّجن في المروج لترى ما يبقى من جمال الناطحات هناك . وماذا يهمك من آلاف الغرف التي اتّخمت بهـــا ناطحات السحاب اذا كانت الغرفة الواحدة كفيلة براحتك . ألا قل لي أفإذا رقدت في واحدة منها نهضت أوفر نشاطاً ممن يقضي ليله في فندق الأرز أو بعلبك أو ظهور الشوير .

ولا أرى مسوّغاً لازدرائك بالبردوني ومقابلته بالميسيسيبي ، فان كنت راغباً في السباحة فكل الساحل اللبناني بحر لا يضيق بك مستحمّاً ، فان كنت صادياً فالماء هنا أطيب ، وهذا نبع قاع الريم يكفيك مؤونة التشهّي ويشفي أوَارك ، والحمد لله على نعمه ، فليس في المناهل أصفى من ينابيعنا مورداً ، بدءاً من ينبوع (سير) في الضنية الى عين الجوز في (شبعا) . اما ما ذكرت من صغر الموز فهو عندكم أكبر حجماً وعندنا ألذّ طعماً ، فاقضم — حفظك الله — أربعاً يسدون مسدّ الواحدة .

ودعوتُ بالعشاء فازدحمت المائدة بالكؤوس والصحون والصحاف، ويقيناً انه ليس في بلد من بلدان العالم ، ولا في لبنان نفسه ، من يسخى بالنقل على الشراب سخاء الزحليين ، فضلاً عن افتنانهم في الطعام شواءً وطبيخاً ومقلياً ونقيعاً بالخل ، وليس أذكى للشهية من العصافير مشويّةً ملفوفة بالخبز الرُقاق يمتص من دَسَمِها فيعود هو أيضاً لحماً مطوياً . وكذلك القول في اليمام المقليّ المُغَشّى بالتوابل . فالتفت إليّ نبيه وقال مستنكراً ألا تزالون تأكلون

العصافير في لبنان ؟ قلت أفأنت من أكلة النبات ؟ وهل يعفّ الأميركان عن الطيور ويتأثمون من ذبحها ؟ ولِمَ لا يتورعون عن ذبح ملايين الخنازير والكباش والبقر ، وملحمة شيكاغو تهرق من دماء الضحايا في اليوم الواحد ما يكفي لبنان بضعة أشهر فلِمَ لا يتأثمون ؟

قال نبيه : أيّاً كان دين صائد العصافير او جنسه فهو خال من الرحمة . إن هذه الطيور الصغيرة لنافعة للزراعة ، فضلا عن حلاوة أغاريدها وبعثها الحياة والجمال حيثما حلّت ، فما رأيك أيها المأخوذ بسحر الطبيعة والفن ؟ حينئذ أدركني الخجل وعلمت اني المغلوب هذه المرة ، وان تحت الرماد الذي توهمته في نبيه جذوات إنسانية لم تنطفىء بعد ، فأبديت دهشتي وإعجابي بشعوره فقال يا عباس لا تحسبني عنيداً ولا غبياً ، ولكني تعمّدت إثارتك غير مرة ، لما سمعته من أخيك عن قوة حجتك ومضاء عارضتك ، وقد انشرح صدري لما سمعته منك ، فانا لبناني المولد والدم والخلق مثلك ، وان تخلّقت ، في بعض الشؤون، بعادات بلد أحرزت فيه الجاه والغنى فلا يسعني إلا امتداحه ، وسأنقل الى أخيك والى الجالية اللبنانية في نيويرك كلما دار بيننا منذ لقائنا في المطار إلى الساعة .

الرأسمالية والاشتراكية

وهنا تهلل وجه ابراهيم وقال الحمد لله على ختام هذا اللقاء الذي بدأ قاتماً كالليل وانتهى باسماً كالفجر ، فجاء مُصدّقاً لنظرتي الى المغتربين الذين لا يبرحون لبنانيين في صميم قلوبهم وإن تأمركوا ظاهراً. ثم إن لأميركا حسنات لا يجهلها إلا عُمي الأبصار والبصائر ، فاذا حنقت الطبيعة على بلد فغيبتهُ

الطوفان ، أو صعقه الزلزال فاندكّت معالمه ، وانقلبت أعاليــــه أسافله ، كانت اميركا أسخى المنجدين كفاً ، وأبعدهم في المروآت شأواً ، وتكون سائر الدول تبعاً لها في الجود .

وهنا ثارت ثائرة المثلّث الدميم فائز وباسل وحسن لما سمعوا من ثنــــاء صاحب البيت على أميركا فقال حسن : لو كانت الدنيا كلها شيوعية لما احتاج المنكوبون الى غوث اميركا او سواها .

وقال فائز : الولايات المتحدة بلد الرأسمالية وجفاف الرحمة ، فتباً للأغنياء هناك يطرحون اللحم لكلابهم ويدعون جيرانهم الفقراء فريسة للجوع .

وقال باسل : يا ليت الاشتراكية تعمّ الدنيا لنصبح نحن في لبنان متساوين بالعظمة والكرامة ، وتكون سماؤنا على الأرض .

وهمّ إبراهيم بالردّ على المثلث فاستأذنه عباس قائلاً : سندّخرك للكلام في القيم العلى ، وتكون انت الحكم في نهاية المطاف ، ودعني اردّ على هؤلاء ، فلغتي الى لغتهم أقرب ، وشأني بشأنهم أوثق ، وسأفنّد مزاعمهم غير آبه لقرابة الدم التي تشدّني الى باسل ، واني لأرى رابطة الرحم أوهن الوشائج التي تربط إنساناً بانسان ، فربّ امرىءٍ أتته البليّة من ذوي قرباه ، فمنهم الحسود والحاسدة ، والألسن الآفكة والعيون الراصدة ، يعايشونه وتفوتهم رفعة مزاياه ، فمنهم الغبي الذي يؤوّل حنانه تأويــــلاً معكوساً ، والأعشى الذي يقيسه بمقياس النفع المــــادي الحقير ، يفسّرون ترفّعه كبرياء ، وإباءه انزواء ، وهو يرى في الأبعدين إخواناً صفت أخلاقهم فاختار منهم الأصفياء القمم ، حقاً لقد صدق القائل : رب أخ لك لم تلده أمك .

لقد صدق فائز في زعمــــه أن من الاغنياء من يطرحون اللحم للكلاب ويدعون جيرانهم الفقراء يبيتون على الطوى ، اؤلئك أوغاد حقّت عليهم اللعنة الى يوم القيامة بما كسبت أيديهم من فلس الأرملة واليتيم ، ومن الربا

والاحتكار « ولا يحسبنّ الذين يبخلون بما أتاهم الله من فضله هو خير لهم بل هو شرّ لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ، ولله ميراث السماوات والأرض والله بما تعملون خبير » ولو حملت نقودهم بعض ما في نفوسهم من النتن والدنس لعاف قبضها أحرص الناس على السحت ، بل السارقون الذين يأتون البيوت دامقين ويحطمون الخزائن والأقفال ، ذلك ان نفوس معظم الموسرين أخبث ريحاً من الخنافس ، ألا وإنهم الجفاة الظلمة المفتنّون في طرق الفحشاء والتعهُّر ، التيّاهون بغناهم بطراً وأشراً ، فكأنهم يستفزّون الفقراء ، ويثيرون رواكد الحفائظ بما يعرضون من خواتم ، وعقود ، وحليّ توهّجت يواقيتها فبصّت جماراً في قلوب المساكين . ولا أنسى مهرجاناً أقيم في لبنان لعرض الجواهر التي تحرزها ملكات المال ، فحملها الخدم لفرط ثقلها ، مخافة ان تنوء بها الصدور والمعاصم ، وتنحني دونها الأجياد التي يستحق سَوادُها حبالاً من مَسد .

أو لم يفطن اولئك المتكبّرون إلى أن المفاخرة تكون بنتاج القرائح ، لا بثمرات الفضائح التي تزيد الفجوة بين الانسان وأخيه الانسان . وأرجّح ان تلك النسوة المتباهيات هنّ أقلّ بنات جنسهن علوماً ، وأخفهن حلوماً . وربما كانت حِلاهُنّ ستراً لدمامة نفوسهنّ كما تعطّر بالورد جثث الموتى ، وتُموّه الفكرة السخيفة بطلاء من بوارق الكَلِم . ولا يشاكل ، في الخفة والسطحية ملكات المال الا ملكات الجمال ، إذ يتجرّدن من كل مقوّمات الحشمة عدا ورقة التين ، فبئس الرقيق وأشباه النخّاسين .

وبحسب الأغنياء مقتاً ان السيد المسيح قال فيهم : إن دخول الجمل في ثقب الإبرة أيسر من دخول الغني ملكوت السماوات ، أما كلف باسيل بالاشتراكية وفايز بالشيوعية وتمنّيهما الفردوس السماوي على الأرض فليس مبعثه العقيدة بل كسل العاجزين ، وخيبة الأنكاس الفاشلين المخفقين ونقمتهم على كل ذي همة سعى فثبت فأفلح ، فالمساواة في رأيهم لا تتعدّى مشاركة موسري هذه القرية في مالهم . مثال ذلك انك انت يا ابراهيم تملك هذا البيت ذا

الطبقات الأربع . فإنهم في قرارة نفوسهم يتمنون صاعقة تهدم هذا البنـــاء الجميل على رأسك في يوم مطير ، فان بخلت عليهم السماء بهذه الأمنية ودّوا لو اكتفيت بطبقة واحدة مسكناً واستولوا هم على الثلاث الباقيات يقترعون عليها فيما بينهم ، كما اقترع صالبو المسيح على ثيابه .

اما الاشتراكية فأخت الشيوعية ، برغم الأقنعة البرّاقة الـتي تُغطّي من شناعتها نظرياً ، ولكن دمامتها لا تخفى على أحد في صعيد الواقع، فالشيوعية مسيحية تهوّدَتْ واصطبغت بصبغة كارل ماركس الذي تنصّر أبوه وظلّت اليهودية في دمه وفي عقله الباطن ، فلا ينكر ان الوراثة تستمر في المرء إلى الجيل الرابع ، وفضلاً عن اللاوعي الفردي (Inconscient individuel) ، الذي يرافقها فثمة اللاوعي الجماعي (Inconscient collectif) . ولقد تراكم الجماعيّ في اليهودية منذ فجر التاريخ . وموجزه تأليه الشعب وازدراء الفرد. أو لم يحكم مجلس الكهنة اليهودي على المسيح بالموت من أجل خلاص الأمة . فغريزة الشر في الانسان وشعوره بالإثم يبتغيان كباشاً للفداء ، سواء في ذلك الضحايا من الحيوان كالقرابين الوثنية أو اليهودية ، أو من بني الانسان كالأطفال تحرق الإله (مردوخ) ، او الجميلات يطرحهن المصريون عرائس للنيل . أما وأن موت الفرد كان أمراً محتوماً فقد خيّر بيلاطُس اليهودَ بـــين يسوع وبراباس ، فآثروا الشر على الخير وضحّوا بالمسيح .

ومن الـــنماذج الشيوعية قول كارل ماركس سنة ١٨٤٧ « وما القوانين والقواعـــد الأخلاقية والأديان إلا أوهام بورجوازية تستر خلفها مصالح بورجوازية » وقول انجلز سنة ١٨٧٧ « ان الأخلاق التي نؤمن بها هي كل عمل يؤدي الى انتصار مبادئنا مهما كان منافياً للأخلاق المعمول بها » وقول لينين سنة ١٩٦٠ « يجب على المناضل الشيوعي الحق أن يتمرّس بضروب الخداع والتضليل ، فالكفاح من أجل الشيوعية يسوّغ كل وسيلة » .

قال يسوع ليس بالخبز وحده يحيا الانسان، فآثروا الخبز وحده ،اي أنهم

أخذوا المادة واطـّرحوا الروح . وعلى هـذا جرى كارل ماركس بعد أنجلس وفرباخ . ولقد رأى الديالكتيكية جاهزة قوالبها بين يدي هجل ، فغـالى وسكب فيها مادة بلا روح ، كما غالى قبله هجل فصبّ فيها روحاً بلا مادة ، فتبخّر المحتوى في قوالب هجل لأنه غازيّ لا يتماسك ، وتحجّر في قـوالب ماركس فطغى عليها وشقها وتبددت الشظايا في كل وجه أنىّ تُصبْ تجرحْ . وكان من جرائها لا رفع الجميع الى فوق بل خفض الجميع الى تحت ، باسم الحرية أثاروا الافراد وباسم الحرية خنقوا المجموع .

فقال ابراهيم : يا عباس لم ادرك معنى عبارتك الاخيرة فهلاّ أوضحت .

فقال عباس : أجل ان الدعاة الى الشيوعية قد ناهضوا خصومهم باسم الحرية التي تحطم الأغلال ، وتولي الانسان حقه في الحيـاة والتملك ، بعد زوال الملكية الفردية ، اذ يصبح الانسان سيد نفسه ، فيعيش البشر في فردوس واقعي ، لا فردوس موهوم خطىء فيه آدم فطُرِد ، لان فردوس الشيوعية نعيم لا يزول ، ولا يطرد منه أحـد . فصدّقت الجماهير بزاعم قادتها فثارت ، وكسرت قيود العبودية مدفوعة بعوامل شتى أهمّها الفقر . ولكنها خرجت من عبودية سوداء الى عبودية حمراء ، ومن طغيان زعيم الى جور زعماء . كما خرج الفرنسيون من ربقة لويس السادس عشر الى أغلال دانتون ومارات وروبسبير . ثم جاءهم طاغية لم يحـلم الاستبداد بأثقل منه يداً ولا أشغف منه بالقتال وسفك الدماء فؤاداً ، فأيتم الأطفال ، وأثكل الأرامل باسم الحرية ولمجد فرنسا ، وإن هي إلا كبرياء كامنة أزّت في صدره كما تؤجّ النار في بطن الارض تُصدّع منها ما تُصدّع فتزلزل زلزالها وتخرج أثقالها ، ومـا كان الجبّار يبتغي سوى سؤدده تلبية لعقد نفسية حفل بها صدره منذ كان في أجاكسيو مُعدِماً يتحلـّق واخوته حول قصعة من حساء فيتبلـّغون ولا يشبعون. وانه ليستوي وهتلر في المرض النفساني المزمن الرامي الى تقويض العروش وسحق التيجان، إنهما لَصِنوان في المطامح والعُصاب، أما في

العبقرية فان هتلر الى بونابرت كالرابية مقابل جبال حملايا . الهر هتلر منقبض بغيض كالح النفس والوجه ، مريض قدَحه الوسواس ، فمن كان في شك من اختلال عقله فليطالع الكتاب الموسوم (بصباح السَحَرة) Le matin des magiciens ، ويكاد ذكره ينطفىء وما برح رفاقه أحياء وامـــا ذاك فما انفك سيفه الدامي ، وَنفَسُه اللاهب يوريان الخواطر بعد كرّ الأجيال . ولا غروى ان يصبح الانسان في القفص الحديدي فرداً في الأفراد لا شخصاً في الأشخاص .

فقال ابراهيم : ماذا تعني بقولك هذا ؟ وما الفارق بين الشخص والفرد؟

قال عباس : حسناً فعلت اذا استعلمت فهناك فوارق جَمَّة بـــين الفرد والشخص . اما الفردية فهي انعزالية انهزامية لا ترى في المجتمع إلا شرّاً ، غايتها التنكـّر للحضارة والمدنية معاً ، والاندماج في الطبيعة . وكان حامل لواء هذا المذهب الرومنطيقي المتطرف جان جاك روسو ، الذي ودّ التفلـّت من سلاسل المجتمع ، في ما يزعم ، ليعود بالإنسان إلى حريته الأولى فيعيش على الفطرة ولو قادته الغريزة الى الدبّ على الأربع . ذاك هو محور مذهب الفردية . فإن الفرد في قطيع الغنم هو الكبش ، وفي المعزى التيس أو العنز، وفي النحل اليعسوب وفي الحجلان اليعقوب وفي المجتمع الاشتراكي هو الانسان، أو الآلة التي تدور مع سائر الآلات فتؤلف المعمل الكبير الذي هو الشعب . ويمكن استبدال الآلة أو الأداة بسواهـــا ، ويصحّ التداول بها كالتداول بأوراق النقد ، فاذا تهرّأت لفرط الاستعمال طُرحت وجيء بغيرها ،وتكون قيمتها على قدر نفعها ، فلا قيمة ذاتية لها . ذاك هو ذوبان الفرد في الشيوعية وما شاكلها من مذاهب أخرى تؤلـه المجتمع ، فـــلا قيمة للفرد إلا بالنسبة للبشرية .فمنها ما ألـّه الانسانية وصاحب هذا المذهب هو أوغيست كومت ، ومنها ما ألـّه المجتمع كما فعل أميل دركايم .

أما الشخص فهو الإنسان الحامل القيم بذاته، المنفتح على اللانهاية ، المخلوق

للحرية والخلود ، الذي لا يتنكر للمجتمع بل يندمج فيه لا آلةً للفناء بل عاملاً صالحاً ، يرتفع به الى الحرية الصحيحة ، لا الى الفوضى أو الانفلاتية التي يدين بها جان بول سارتر ذاك هو مذهب الإيمان بالإنسان أو الشخصانية، ومن أبرز القائلين به المفكر الروسي الكبير نيقولا بردايف . وانه لمن الخطأ البيّن اعتبار الإنسان الشخص جزءاً من كل أو عضواً من جسم فلو صح اعتباره كذلك لساغ حذفه في سبيل نفع الجسم . ألا وإن الإنسان هو كلّ في كلّ .

بيد ان هذه الكلية لا تسوّغ له العزلة والتمرد على المجتمع ، بل تدفعه الى التجاوب مع إخوانه البشر ، حينئذ يستوي الجميع في الكرامة . وتصبح (الأنا) والـ (أنت) (نحن) ، وينصهر الناس في وحدة داخلية تجلّ عن العلاقات الخارجية الدنيويّة القائمة على تبادل المنافع، وترتفع أيضاً عن مستوى المؤسسات الدينية التي تؤول في الغالب الى التعصب والتنابذ او الاتجار والتناحر باسم الدين وسواد المُتّجرين من المشككين المرائين أو المنافقين الملحدين ،فلو نفذت بصيرتك الى أعماقهم لاعتراك مثل الغثيان الذي تحدث عنه سارتر في كتابه المعروف ، فالوحدة الداخليّة أرفع من هذا كله ، لأنها أخوّة الإنسان للإنسان في ظل الله تعالى مصدر القيم جميعاً .

ولا يستغربنّ أحدٌ إخفاق الشيوعية في واقعها حيثما كانت ، إذ لم يكن بدّ من تهافت السدود الصفيقة التي ضربتها حواجز وحجباً من دون الحرية ، فلقد طالت المحنة على السجناء قرابة نصف قرن ، وطفق الذين شاركوا في إقامة الأسوار يفتحون فيها مسارب لهواء جديد ، يخفف من ثقل المناخ الوبيء المنبعث من ضريح الحرية الموءودة مع أخيها الدين الذي تأصّل في الشعب الروسي وجرى منهم مجرى النفس . ولا تحسبنّ شعلة الايمان قد انطفأت الى الأبد ، فلئن أخمدها السيف والنطع ، وظهر الإلحاد على التقوى ، وجاهرت الدولة الله بالمحاربة ، فكلّ ذلك الى حين . وما التمادي في إنكار وجوده تعالى ، والتنكيل بالساجدين له وحده من دون الطواغيت ، إلاّ دليل على

اعتقاد الملحدين أنفسهم بوجوده . إذ لولا ذلك لما استماتوا في محاربته ، لأن العدم لا يستفزّ أحداً ، ولا تُشنّ عليه حرب ، ما لم يكن المحارب أهوس من طراز دون كيشوت .

وبحسبك دليلاً على ثمرة الشيوعية أن الإلحاد من أركانها ، فاذا حُذف الله فمن يقوم مقامه ضمانة للقيم والأخلاق ؟ أتستطيع البرولتاريا مثل هـذه الكفالة ؟

ويتذرع المضللون الاشتراكيون بالإنجيل ، والإنجيل ركيزة المحبـة ، وإنها لفي غنى عن الإشتراكية كما ان الإسلام يـدرأ هذا الوباء بما فرض من زكاة وبالأحاديث الصحاح التي ترفع من شأن العامل فمنها « إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت ايديكم » « كلكم راعٍ مسؤول عن رعيته » « أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه »«ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ومنهم رجل استأجر أجيراً فلم يوفه أجره » .

ألا وإن البناء الذي يقوم على الفساد لفاسد ، ويا طالما حـاول مفكرو القرن الثامن عشر ، الموسوم بعصر النور في فرنسا ، تركيز الأخلاقيات على ما زعموه نوراً فخبطوا في الظـلام طويلاً . وكذلك القول في اليقينين Positivistes أتباع كومت . ولقد حاول أمثال دركايم وليڤي بريل وفئة من التطوريين ، نظراء هربرت سبنسر ، تركيز الأخلاقيات على غير الله فما شادوا إلا قصوراً في الأثير اتخذوا لها الهواء عماداً .

ولا نكير ان بين الشيوعيين كما بين الماسونيين أناساً حسنت نيتهم فأغوتهم الظواهر ولو أنهم أدركوا حقيقة المصير ونهاية المطاف لكان لهم من أنفسهم روادع .

الفرد والمجتمع

فلما بلغ عباس هذا القدر من الكلام قرع جرس الكنيسة فوقف مجيد ويوسف والمثلث فائز وحسن وباسل وانصرفوا الى المعبد ، لا رغبة في الصلاة بل هرباً من عباس الذي عَرّاهم أمـــام أنفسهم ، ونثر كنانة الحقائق بين أيديهم فأدمتهم نصالها . والتفت ابراهيم الى عباس قائلاً : يا أخي حقّاً انها صبحيّة فريدة ، وهي من الساعات المكوكبة في حياتي ، وأشهد انك صدقت في كل ما قلت برغم المبالغة في القذع ، وربما كان التجسيم ناجماً عن خيالك الشعري ، فوضعت الواقع في إطار من المجـــاز ، وخلعت عليه من رونق بديهتك ، ولكن المعوّل عليه هو الجوهر ، والجوهر هو ما قدّمت ، والآن بدأت الصلاة فهل نذهب الى الكنيسة؟ قال عباس نذهب في المساء ، وانا الآن جائع ، وأظن أن بهزاد في مثل حالتي فعجّل بالفطور. فوافقت على الاقتراح فحُمِلَتْ إلينا مائدة كان أشهى ما عليها البقول والفاكهة الجبلية ، من تفاح كخدود الملاح ، وأعنـــاب شقر كذؤابات الصباح ، وتين أخضر تقطّر من ثغره الأحمر عسلٌ مصفّى لذّةً للطاعمين . فقال ابراهيم الآن ستشربون قهوة تعتلق بالفنجان ، قلت إذن تكون جامدة فترسب ثفالتها في القعر .

قال : أخطأت يا بهزاد فأنتم سكان الحواضر تجهلون سفر تكوين القهوة. وأومأ الى الخادم فجيء بصينية من نحاس أصفر مخرّمة الحواشي ، تخـــالها سبيكة من عسجد لفرط بريقها ، وقد صُفّت عليها ثلاثة أباريق تشاكلهـــا لوناً والتماعاً . ثم أخذ يركز الأباريق تباعاً على كانون تلهّب فيه فحم السنديان، ويذرّ فيها (حبّ الهال) . فلما جاشت أخذ يسكبها من إبريق في آخر حتى راقت ، ثم أدارها علينا نهلات متوالية ، فترشّفناها فاصطبغت بهـــا حوافي الفنجان ولم يرسب في قعره منهـــا شيء . فذكرت ما قاله لي صاحب

عيد الرياض ، يوم نزل ضيفاً على بدويّ في حوران ، فأعدّ له مثل هـذه القهوة (التي تعلق على الفنجان) فأوحت اليه صورة الاعتلاق . تلك صورة شعرية وصف بها الليل في قصيدة له منها قوله :

ليلٌ إذا الغيدُ المِلاحُ وَسطتْهُ   صبغَ الوجوه فمدنَ غير ملاح
حاولتُ بالمصباح شقّ أديمـه   فـإذا بِفحمَتِهِ على المصباح

قال ابراهيم أرأيت كيف ان هذه القهوة ، مشروبة على هذه الشرفـة ، تبعث نشاطاً في الهمة ، وصفاء في القريحة ، فما قولك يا بهزاد لو زادنا عباس من علمه وتجربته في الحياة ؟

فالتفت الى عباس قائلاً : لقد ألمعت في حديثك الشهيّ الى نقاط مررت بها مرّ النسيم على ماء قناة يتدحرج ، فأرجأت الكلام عن المحبـة إلى آخر الحوار، وألممت (بالأنا) و (الأنت) (والنحن) إلماماً يكاد يكون عنواناً لبحث وربما تعمدت تخطّي هذه الشؤون القيّمة الصعبة لِمَا رأيت من تثاؤُب النفر الذين انصرفوا الى الكنيسة ، ولا لوم عليهم في ذلك لسببين أولهما : صعوبة الموضوع وثانيهما عادة الجبليين في التثاؤب ، بـل في النوم فترى سوادهم من رجال ونساء يأتون بيوت جيرانهم للسهرة وما إن تقرّبهم المقاعد حتى تتراخى أجفانهم ، فيهوّم بعضهم ، ويأخذ بعضهم في الشخير فاغري الأشداق ، وقد ألقوا برؤوسهم الى (الكنبة) مُتّكأً ، وبأيديهم الى المرافـق ، وبسطوا أرجلهم يتعثر بها الخدم . وترى هاماتهم تترنح ، ثم تميل الى الأمـام والى الوراء ، في حركة تذكّر بتداعي التيوس للنطاح . وكثيراً ما يقع هـذا الكرى الاجماعي اذا ارتفع الحديث عن توافه القرية ، وما كان أحرى بهم لو ناموا في بيوتهم فكفوا معشر السامرين تلك السماجة.

فهات يا عباس الآن ولا تَنفَس علينا بمعرفتك . اقد حدثتنا صادقـا ، واستعرضت الصور والأخلاق ناقداً لاذعا ، فكنت في معظم بيانك سلبيّاً

فهل لنا أن نرى منك الصفحة الايجابية ؟

قال حباً وكرامة شرط ألاّ يدخل علينا متثائب ، أو صاحب غفلة ، أو غبيّ ضيق الأفق حدود عالمه تخوم القرية ، وحدود فكره فوز المختار ، أو هزيمة رئيس البلدية ، أو أهمال الناطور ، او النقمة على النائب، فمثل هذه السخافات كفيلة بأن تسدّ قريحة شكسبير ، وتغلق باب الفصاحة في وجه سحبان وائل. وتعقل عن الرواية لسان الأصمعي محدثاً بنوادر العرب وأبي عثمان الجاحظ متهكماً بالبخلاء .

قلنا لا عليك فلن يدخل أحد . فقال عباس : معلوم ان الإنسان خُلِق اجتماعياً فلا يمكنه الاعتزال أبداً ، لأنه إنسان موجود مع الآخرين . وليس في الآراء أوهن من زعم القائلين باعتزال المجتمع ليخلصوا أنفسهم ، تلك هي القمّة في الأنانية ، فهل استطاع الزهّاد والنسّاك الذين انقطعوا الى العبادة في المغاور والقفار السباسب الاستغناء عن المجتمع ؟ فإن كابر مكابر زاعماً انهم اتخذوا النبات قوتاً ، وفصلوا جلد الحيوان كساء، ضارعين الى الله ، مصلّين في الأصباح والأمساء ، قائمين في الأسحار ، أفليس المجتمع هو استاذهم في كل هذا ؟ بلى لقد كان المجتمع خير مرشد لهم فاتعظوا بالمآسي والعبر ، وسلكوا النهج الأفضل أو الذي توهموه كذلك . أوليست الصلاة الربّانية بصيغة الجمع؟ فلو لم يكن للمجتمع شأن ، ولو كانت الأثرة هي الراجحة في الميزان لكانت الصلاة الربانية على غير هذا الوجه .

وإذن فالـ (نحن) مقدمة على الأنا . وانه ليستحيل على المرء الفرار من الأحياء ، بل يتعذّر عليه الفرار من الموتى الذين طبعوا المجتمع بآثارهم في الاختراع والفكر والدين ، ولئن طغى الفرد وحسب نفسه إلهاً او فرخ إله ، مستقلاً بذاته ، فلقد ضلّ سبيل الهدى الذي يسلكه الشخص منفتحاً على الآخرين وعلى القيم ، بحيث يكون المرء في داخل المجتمع ، ويكون المجتمع في داخل الانسان . وربما تأتّى خطأ القائلين باستقلال المرء وانفراده من

رؤيتهم الإنسان مستقـلاً بجسده . ولكن الأجساد وإن تباعدت فالنفوس تتداخل ، وليس الانسان جسداً فحسب ، فاذا نظرنا الى الآخرين، نظرتنا الى انفسنا استوينا في سلم القيم صعداً ، اما اذا حسبنا الآخر شيئاً من الأشياء فلقد جردناه من أية قيمة ذاتية وقسناه بمقياس المنفعة او اللذة ، فاذا هرم العامل الذي أكرمناه نشيطاً أيـداً ، أو شاخت الصبية الـتي عشقناها ، أو زال جمالها لعلـّة ، طرحناهما طرح الثوب العتيق .

بلى إن الاشخاص لتبدو بـدون الحب أشياء ، ولتصبح الأشياء مع الحب أشخاصاً تختلج فيها الحياة والروح ، سواء أكانت دوحة باسقة يقيل المرء في ظلها اذا اشتـدت الهاجرة ، أم نباتاً طيّب الشميم ينتعش بـه الصدر ، أم صخرة ملساء ، على ضفة غدير تكاد تفشي ذكريات الصبا .

وحذار من الخلط بين الحب والشهوة ، فالحب روحاني المصدر ، والشهوة جنسية . الأول ينير البصائر والشهوة تعميها ، وتكون مجلبـة للغيرة والتحكم والقلق . في الشهوة يصح حلول شخص مكان آخر لأنها إشراك ، أمـا الحب فتوحيد وتحرير ، والشهوة استعباد . والحب أوسع طرق المعرفة لأنه نور . لذلك تفرد القديسون والمتصوفون – على بساطتهم – بإدراك مايعجز الفلاسفة وتلاقوا مع الشعراء . أخص بالذكر منهم فرنسيس الأسيزي ، ويوحنا الصليبي والقديسة تريزيا الكبرى ، وابن الفارض والحلاج وابن عربي . في كل ذلـك أربت قيمة الشخص على قيمة عمله فحياة ميكال انج وشخصه أثمن من رائعته الخالدة تمثال موسى ، وحياة يوحنـا الصليبي وشخصه أنفس من رائعته (ليلة الكرمل) ولقد قال أحدكبار مفكري الهند ، ولعله غندي ، أيها المسيحيون خذوا مسيحيتكم وأعطوني مسيحكم. ولقد أخطأ الذين آثروا المبادىء والفكر فقالوا بخلودهما واستهانوا بالشخص ، اذ لا قيمة لشيء بدون الإنسان ، لذلك صح القول يجب ان نتأله لنرى الله ، وان نتأنس لنرى الإنسان. ولئن اشترك الناس في نواح متعددة فلكل شخص جوهره الخاص به ، فكما ان الوجوه

تتشابه مع الفروق فكذلك القـــول في النفوس ، وبهذا السبب كان بروز الأعلام ، والتفرد بالمناقب ، فمن أبى الا المطابقة انحدر بالإنسان الى الحضيض العام ، حيث تتم المشاركة بالنقائص والمعايب وذوبان المرء في خضم المجتمع ، أو في بؤرة العامة التي تفكر في الغالب تفكير القطعان .

وربمـا كان الدليل على نفاسة الشيء تحقير العامـة له ، فالشخص الإنسان هو مصدر القيم ابتداء من سقراط وديموقريطس الى كوبرنيك وغاليليو ، الى باستور وديكارت ، الى الإمام علي ، الى شكسبير ، عنيت ميادين القـيم جميعاً من الفكر الى الفن الى التصوف والعلم الخ ..

ويجدر التمييز بين المشاركة والوحدة الـتي هي الحب . في المشاركة يظل المرء على حذر من الآخر ، يحاول نبش خفاياه وإزاحة القناع ، أما هوفيروض نفسه على الاستخفاء لئـــلا يظهر الآخر على دخيلة نفسه ، ولكن الحب يهزأ بهذا كله منزهاً عن الصغائر والمنافع ، لا كبرياء ولا عتواً ، بل كرماً ومنـة أخلاقية ، ومثل هذا الحب يتناول الموتى انفسهم لأنه أقوى من الموت ، وما يبتغي ثواباً لأن ثوابه في صميمه .

ومن المفكرين من يزعم ان المعرفة تولد الحب ، ومنهم من يزعم العكس ، ومما لا ريب فيه ان المرء لا يتعلم شيئاً وهو له كاره ، فاذا أحب بلداً عرفه بأجزائه فأحب روابيه وكرومه ، وقيعانه وغابه . ألا تذكر يا ابراهيم اذ نحن جاران في المدرسة يوم كنت تصرف نظرك عن اللوح الاسود ، اذ يأخذ المعلم في شرح دروس الحساب لقلة رغبتك في الرياضيات ، بينا كنت تستظهر الشعر بأسرع من رجع الطرف لشغفك بالقريض ، مـــذ تلاقت على مسمعك فاصلتان ، أو سجعتان ، أو قافية .

حب الوطن

فقال ابراهيم إذن أنا أعرف قريتي (الغابة) لأني أحبها .

فقال عباس طوبى لك يا صاحبي ، انك لرجل طيب العنصر ، فانك ما تزال تحب (الغابة) ، وما لقيت منها سوى الهوان والألم والكفر بالمعروف.

فقال ابراهيم : لي أسوة بالناصري وما لقيه من اللدد في وطنه كما أسلفت القول . ولي أسوة ثانية بالنبي العربي الذي لقي في مكة من ألوان العذاب ما لا يطيقه إلا نبي ، فهجرها قـائلاً : اللهم إنهم أخرجونا من أحب البقاع الينا فأَنزِلنا أحبَّ البقاع اليك .

أوَلَمْ يبكِ المسيح على أورشليم بينما كان بنوها يُعدّون الخشبة لصلبه . واني ولو جهلني بنو قومي فان البغضاء لن تجد الى فؤادي سبيلاً ، فإن كرهت فسيئآتهم ، أما أشخاصهم بالذات فلا .

أما وجه (الغابة) الطبيعي فيلازمني في كل جارحة من جوارحي ، فتغلو عليّ أرضها وإن أجدبت ، وسماؤها وإن تجهّمت . فلئن مضّني بَخَرُ سَفَلَتِها يمّمتُ وجهي شطر صعترها وريحانها ، وسنديانها ولبانها ، وعناقيد كرومها . ولئن صكّ مسمعي نعيبُ غربانها وبومها رنّحتْه بعندلة حسّونها وشحرورها . ولئن آلمتني شناعة المنافقين من رعاعهـا كحلت عيني بخضرة غابها ، وشقرة صباحها وحمرة شَفَقِها . فإن فدحتني خساسة أوباشها صَعَّدت بصري في نضرة آكامها غير ناقم ولا حاقد .

وكيف أشنأُ بلداً في تربته دُفن آبائي وأجدادي ، وفي جوّه زغردوا في الأعراس ، وندبوا في المآتم وهزجوا في المرافع ورقصوا غير آثمين فضحكت لهم هذه الضواحي قاعاً ويفاعـاً ، وحرثوا الأرض السِباخ فأخصبوها بعرق

الجبين فجنيناها كروماً وحقولاً ولباناً شامخاً لا يغضّ الزمهرير من خضرته ولا الحر من رونقه ونضرته .

ولئن غابت عني الوجوه فما غابت الأرواح ، ومـــا برحتُ أناجيهم في العزلة ، وآنس بذكرياتهم في الوحدة ، وأعيش معهم أكثر ممـــا أعيش مع موتى الأحياء الذين لا يسرّونك إذا وجدوا ، ولا تفتقدهم اذا نزحوا .

ولا أظن (الأنا) الذي حدثتنا به يا عباس يقتصر على الجسد المتحيّز في المكان والزمان ، فاذا كان فيما يزعم العلماء النفسانيون امتدادُ (الأنا) مكتبةً ألِفناها وساهرناها فأضاءت فكرنا بأوْفَر مما تنيرنا الكواكب ، أو جنينة في دارنا جادتنا بالبقل والثمر وكل زهر عَطِر ، أو بندقية رافقتنا الى مَجاثم الحجلان ، فاتّقينا بها سباع الوحش وكواسر الطير ، أو عباءَة تدثّرنا بهـــا اجتناباً لصقيع الليل ، أو كلباً أهرت الشدقين ، بارز عظم الجمجمة ، قويّ المشمّ جلْداً على المشقات أميناً ، أو فرساً عربياً دقيق الوظيف سلهباً سائل الغرّة ، يُشعرك وأنت في متنه بالعزة والسؤدد كأنما الآفاق رُفعت لك جميعاً ، أجل اذا كان ذلك امتداداً (للأنا) أفلا يكون البيت الذي شهدت فيه الضياء ، وأطللت منه على العـــالم الخارجي أقرب اليك وألصق بك من كل ما حسبناه امتداداً لشخصك ؟

ألا وإن صلة المرء بوطنه لصلة عريقة شبه مقدسة ، تتعدى الآفـــاق المحسوسة الى الآماد الروحانية ، ومنها نشأت في العالم القـديم عبادة الآباء والأجداد ، وإكرام أرواحهم ، واعتبارها سابحة مدوّمة في أجواء أوطانها ، تأبى الزوال أو الاغتراب ، تفرح لفرح الأبناء وتأسى لأحزانهم .

ولئن حُقّ لنا العتب على الدخلاء الطارئين اذ يتنكرون للبـــنان أو يعقونه ، والعقوق أدهى مايشين الانسان اذ يقابل المعروف بالجحود ، والضيافة بالعدوان والجريمة ، فاننا لنكلّفهم شططاً ، ونسومهم رهقاً إذ نسخرهم لحب لبنان . فلحب الوطن وشائج وعروق كمثل التي نشاهدهـــا في غابات الأرز

والسنديان ، اذ يقلُّ عليها التشبث بالثرى ، فتتأصل وتمعن في الحفـــر حتى تفلق الصخور سراديب ومساريب .

ألا وأن حب الوطن كالخمر تجيش في الدن فتهدر ، فتزبـــد فتروق لذة للشاربين. وبمثل ذاك الشعور جاش الحنين في صدر الشاعر اللبناني داود عمون اذ تيمَّمَهُ الشوق الى لبنان فقال من على ضفاف النيل :

يابني أمّـــي اذا حضرت ساعتي والطب أســلمني
فاجعلوا في الأرز مقبرتي وخذوا من ثلجـه كفني

وهو القائل في قصيدته الهائيـــة

أحبُّ بلادى على رغمـها وان لم ينلني سوى عـارها

وأنا أحب هذه القرية الغابـة ، وان لم ينلني سوى عارهـا وجحودها ، وهوانها وجمودها .

في المقهى

فقال عباس لله درك يا ابراهيم لقد أمسكت عن الكلام في هذه الصبحية عملا بأدب الضيافة فأصغيت لثرثرتي ، وكأنك التلميذ وكأني المعـلم ، وما أنا اليك إلا الاحصاة بجانب الهرم ،فتركتني اهذر وانت أسد رأياً ، وأجزل بياناً، وأرحب أفقاً . وما كنت أجهل من قبل ، مدى معرفتك وأخـذك من كل منهل بنصيب . ولقد كلفتني الحديث عن المحبة وأنت أعرق الناس فيها ، بل أنت منها وهي منك ، وأبيت الحديث عن نفسك ، ووكلت الي هذا الأمر ثم اوجزت الكلام عن قريتك فلقنتني درساً لا أنساه.

وهنا اقترح علينا ابراهيم نزهة في السيارة ريثما يحين الغداء ، وكانت الساعة قد نيفت على التاسعة ، وابتعدنا عن قرية الغابة مسافة عشرين كيلومترا فبلغنا مقهى يطل على البحر من بعيد ، وقد أحدقت به غابات الجوز والحور وجنائن التفاح ، واطّردت المياه في جوانبه وبين المقاعد ، في أقنية غطّاها البلور الشفاف ذو التعاريج والتهاويل ، فقال عباس انظر يا ابراهيم انه لصرح ممرد من قوارير ، فقلت أنى لنا بنظيرة ملكة سبأ ، فقال عباس لَبّث قليلاً يأتك من مشيلاتها خلق كثير فهيا بنا ننتبذ تلك الزاوية من المقهى ، فانها مشرفة حائدة في آن معاً .

وتبوأنا مقاعدنا ونظرنا فاذا المكان يغص بالنادين من مختلف الطبقات والألوان ، متحلقين حول الموائد ، وقد انبسطت الوجوه حتى لتعلن عن سرائر أصحابها للمتفرس ، ولا سيما اولئك الذين استخفّهم الشراب ، أو طيب المناخ ، أو منظر الغيد الصباح ، يدخلن المكان أفواجا . فقال عباس لا شك ان هذا الجمع الغفير هاربون من حرّ المدينة وجلبتها ، فقلت ان الحر والضوضاء سببان ثانويان ، وإنّ ما وراءهما لأهم وأعمق جذوراً ، إنهم لهاربون من أنفسهم .

قال ابراهيم ماذا ؟ أتقول حقاً ؟ ان الإنسان ليهرب من عدو ، أو من أذى يلحق به ، أو من حماته أو من الدائنين المرابين ، أما ان يهرب الإنسان من ذاته فهذا شيء بدعٌ ، فقلت بل قديم بقِدَم الإنسان ، فأول ما ابتلي به المرء هو داء الضجر ، يهرب منه ابداً ، ثم يلتفت الى الوراء فيدرك انه يتعقبه كعين الله في أثر قايين .

إن سواد هؤلاء الذين في المقهى يملأون أيام الأسبوع بمشاغلهم العادية . اما اليوم الاحد فلا شغل لهم ، وليس في مقدورهم ملء الفراغ بمثله ، لذلك يسدونه باللعب والشراب وما اليهما ، وكأين من مرة سمعنا هذه العبارة المتداولة : فلان يقتل الوقت بلعب النرد أو بالشراب ، أو بالصيد ، فحسبنا هذا التعبير

سطحياً. وما هو في الواقع سوى تعبير فلسفي عميق الجذور في نفس الإنسان ولكنه ابتذل لفرط ما جرت بـه الألسنة . بلى ان الناس يتعمدون قتـل الوقت لئلا يقتلهم ؛ يتغدونه قبل ان يتعشاهم، ومردُّ ذلك الى فرار المرء من رتابة العيش ، فالتغير في طبعه ، أما قول الشاعر :

كم منزل في العمر يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منـزل

فيعارضه قول الشاعر الآخر :

وَدَعِ القديمَ فللجديد حلاوة تنسيك ماضي العيش في المستقبل

ويقيناً ان سواد الناس يعيشون خارج ذواتهـم فراراً من الضجر ، ومن مواجهة أنفسهم عزّلاً وبدون مجن يتخذونه من العالم الخـارجي ، لذلك تراهم يؤثرون على الاعتزال مع ضمائرهم ، وجزعاً من تلك الخلوة الرهيبة ، ركوب الأخطار وارتياد المجهول سواء أكان ذلك في بحر هائج ، أم قارة ران عليها الجليد فأجمد الدم في عروق التائهين فأدركهم الجوع فهلكوا، أم بيداء تنصبُّ عليها الشمس فتنضج رؤوسهم وجلودهم، ساعين وراء الخيال ، يبتغون الكنوز المسحورة وما يلقون إلا سراباً ، أو يهيمون في غابة عذراء فيقضون فرائس للضواري . ومثل هؤلاء متسلقو الجبال ، والغواصون في أغوار البحار .

وفي جملة الهاربين من أنفسهم أصحاب المغامرات الغارقـون في اللذائذ الى ما فوق آذانهم لئلا يسمعوا ، وعيونهم لئـلا يبصروا . ولا تحسبن الخلعاء الذين يعاشرون مئات البغايا ولا ينتهون إلى غاية أفسق من سواهم وأوفر شبقاً ولكنهم أسرع من غيرهم في الفرار من الضجر وأوقح وجهاً ، مثلهم مثـل شارب الثلج ، أو المصاب بداء الاستسقاء كلما نهـل ازداد عطشاً ، فكل لذة تفتح الباب لأختها وأختها أشد نهماً .

بيد أن من الهاربين صفوةً خليقة بالإعجاب هي فئة العاملين على صعيد المدنية والعلم ، فمنهم المكتشفون والمخترعون ورجال الأعمال الكبار . ولا

تظنّنَّ أصحاب الملايين يدأبون في العمل خوفاً من العوز ، بل هرباً من الضجر ، فتراهم لا يقرُّ لهم قرار ، فاذا كانوا من أرباب الصناعات الكبرى وجدتهم يبتدعون أسباب الترف لسواهم ، ولا ينعمون بشيء مما يبتكرون لأنهم في سباق مع الزمن ، وربما تعذّر عليهم الجلوس الى مـــائدة الطعام فيتناولونه في السيارة او ساعين على الأقـــدام . ولا يغرّنك ما تشهد من الحركة الموصولة فتحسبه دليلاً على الحضارة ، إن هو إلا عالم الآلات يستعبد الناس فيجعلهم آلات من لحم ودم .

ومن الهاربين فئة مباركة هم رجال الفن والأدب والفلسفة ، أمثال ميكال انج ، ورافايل ، وليوناردي فنشي وشكسبير وغوته وكنط وبرغسون والمتنبي والجاحظ والغزالي وأقرانهم من عباقرة الشرق والغرب . ومنهم المتأمّلون المُنطوون على أنفسهم ليأتوا بالروائع ولكنهم قلة . وربما كان الخلق عند المفتَنّ فراراً من قفر نفسه الداخلي . بقي ان الفئة التي تنحدر أسفل سافلين من جيش الهاربين هي زمرة المنتحرين . ولا يخفف من جرمهم ان لظى جهنم وزبانية الجحيم أرأف بهم من أسرتهم أو بعضها .

الشقراء

وهنا عَلا الضوضاء ، واضطربت المقاعد فاتجهت الأبصار الى سرب من الغواني اللائي قال فيهن جرير :

يقتلنَ ذا اللبّ حتى لا حراك به ... وهنّ أضعف خلق الله إنسانا

وتدافع الخدم بالمناكب ، يفرّجون ما بين الكراسي ويركزون على قناة المـــاء المنسرب سدّةً تبوأتها سيدة شقراء اللون ، شهلاء العينين ، عقصت

شعرها فبدا تاجاً من الذهب الإبريز ، فقلت في نفسي لعل هذه الحسناء هي التي يعنيها صاحب ملحمة « عيد الرياض » حيث يقول :

زَندكِ اللمّاح أغوى نحلةً — حسبتهُ الشهدَ يُغري باجتناء
رجعت عن وهمها لما درت — أن تلك الشقرة الحرّى ذُكاء
سَعِدَ العصرُ الذي أفعمتِهِ — من كنوز الحسن مجداً وثراء
بهجةُ الأعياد في أيّامه — والأماني في لياليه الوضاء
كل يوم لم تقبّلْ شمسهُ — خدّكِ الوضّاح لم يسطع بهاء
وجبين هالةٌ من عسجدٍ — راح فيه الحسن تيّاهاً وجاء
وذؤابات أشعّتْ خصلاً — فبها للحائر الساري اهتداء
كلّ تاجٍ حلمَ العزُّ به — دون ذاك النور وهجاً وازدهاء
فكأنّ الله لما صاغها — صبَّ فيها كلّ ما العين تشاء
وترى الأبصار فيها أحدقت — مثلما بالقُدس طاف الأتقياء
تستحمُّ العين في لألائها — ما لها عن ذلك السحر انكفاء
طالما غطّى على هذي الربى — ظلُّ (أفروديت) غادات النساء
مثلها أنت جمالاً ملهماً — فوقها أنساً وسحراً وإباء
آهِ يا حسناء هذا مرقمي — بالجمال العبقريّ الفذّ ناء
حُسنك الاوحدُ كونٌ ماله — في سماء الشعر حدٌّ وانتهاء .

قلت إن الحسناء تبوأت مقعدها من ذلك الفردوس الارضي ، وفي الواقع أنّ جلستها كانت الى الاستلقاء على أريكة أدنى منها الى الاستواء على كرسي . وسرعان ما نفذت الأبصار الى جسدها ، وما حجبّته بسوى غلالة ورديّة زادتها رونقاً وفتنة ، وما أخفت منها إلا عوارَها ، على أنّ ورقة التين التي استجنّت بها حواء كانت أصفقَ وأسترَ لذلك الموضع .

فنظر اليّ عباس قائلاً : هذا هو الصرح المُمَرّد ، وهذه طِلْبتك ملكة

سبأ التي أتت من أقاصي الأرض لتشهد حكمة سليمان ، بيد أن الفروق جمة بين هذه وتلك .

قلت أنا أكفيك مؤونة إحصائها . فتلك قد زين الشيطان لها ولقومها أن يسجدوا للشمس ، وهذه أخت الشمس يسجد لها عباد الجمال وسدنة كعبته . تلك شمرت عن ساقيها ، إذ توهمت الصرح لجة ماء ، فأشفقت أن تغرق فيه ، وهذه كشفت عن ساقيها لتغرق فيهما عيون الناظرين . تلك قدمت على سليمان تائبة من عبادة الاصنام ، وهذه جاءت فتنة وغواية ، لتعود بالشباب الى عبادة الزهرة بما تثير من شهوة ، وما تلهب من خيال !

فقال ابراهيم أجل انها لتوقظ الدعارة لأنها تعرت جزئياً ، ولكن المرأة لو تجردت من أي لباس كان فألفتها الأنظار عارية ، لأخمدت الشهوة بدلاً من إثارتها ، فإن الغطاء يثير الفضول ويغري بما خلفه . ألا ترى ان المتوحشين العراة ليسوا أكثر شبقاً من سواهم ؟ وان المتوحشة تتوهم جلدها لباساً لها ، فلوا اكتست لشعرت بالخجل لأنها تثير الخواطر بما وراء الستار . وفي ظني ان الرجل غطى عورته فاحتشم ، لأن في وجهه قبساً من الألوهة . وهو الذي حمل المرأة على إخفاء العورة غيرة عليها ، ثم تعود الناس احترام المرأة الكاسية بعدئذ ، وأصبحت الحشمة أساساً لانتيجة ، ولولا الحياء الذي تأصل بحكم العادة والاستمرار لما ترصّن الإنسان فاستطاع الاتيان بالروائع ، بدلاً من الاستغراق في اللذة الجنسية ، هذا فضلاً عن كون الاحتشام يحفظ صحة النفس والجسد .

وهنا اعترض عباس قائلاً: أخطأت يا ابراهيم في اعتقادك ان التعفف يحفظ صحة النفس والجسد فان العلامة سيغموند فرويد مكتشف التحليل النفساني وقاعدة المثلث المؤلف منه ومن أدلر ويونغ يزعم ان المرء يخادع نفسه ويختبىء وراء الحياء ، اذ المعركة شعواء بين العقل الباطن والوجدان الظاهر. فقال ابراهيم: أجل ولكن هذا الوعي الظاهر هو الذي يرفع الشهوة الحيوانية

الى مستوى الحب،والحياء الصحيح أفضل من يذود عن الحب ، فيظل الانسان في وحدة متماسكة فلا يتبدد بحكم تأثير الحواس. أنظر يا عباس كيف تضحك هذه الشقراء ضحكة مخنوقة ثم تعبس . وأقسم أنها لا فرحة ولا حزينة ، ولكنه ضرب من المد والجزر ، بل سبيل من سبل الصيد يُنبّه خواطر الناظرين ويزيد في سلطانها، وليت هذا الحياء المصطنع كان طبيعياً ، إذن لكان حافزا للحب لا للغريزة الجنسية . ولا يغرنك من الشقراء تكلف التفوق ، فالمرأة تحب ان يتغلب عليها الرجل وهذا يوافق نظرة أحمد شوقي :

وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

فقال ابراهيم أتراها متزوجة أم عزباء؟ وأرجح انها متزوجة لانها تتصرف بملء حريتها .

فقلت : ألا تباً لهذا العرف الشرقي الذي يولي المتزوجة حرية تمتنع على العازبة ، اذ يتحتم عليها الاحتشام في القول والفعل ، فاذا هي تزوجت فلا جناح عليها ان هي خاضت في الاحاديث الدسمة ، وتفكهت بالنكتة العارية، فكأنها اذ تخلع ثوب العرس تطرح معه الحشمة ، مع انها ارتبطت برجل . ولعمري انها لأثقل وزراً من العذراء الطليقة ، فجريرة المتزوجة مضاعفة ما في ذلك ريب . الحياء وحده يسمو بالشهوة من فطرة الحيوان الى مرتبة الانسان ، ويجعل من الزواج سراً مقدساً . ومما يشجي انه أضحى في عصر الناس هذا سبيلاً للمتعة والتجارة والتناسل ، فتدنى الى مستوى السلع ، فاقترن النبيل باللئيمة،والوضيع بالكريمة ، فسقى الله احقاباً كان فيها زواج الأكفاء شرطاً جذرياً . وربما كانت فضيلة الارستوقراطية الوحيدة التشدد في المصاهرة ، لأن للوراثة شأنها في النسل ، ولقد كان هذا المبدأ شاملاً يدرج عليه الشرق والغرب ، ويدين به العجم والعرب ، ويحضرني هنا قول الشاعر:

وما هند الا مهرة عربية سليلة أفراس تحللها البغل

وفي هذا العصر المزعوم عصر الحضارة ، وهو عندي عصر الانحطاط

الحضاري والتفوق الآلي ، انتهكت الحرمـــات وفي مقدمتها سر الزواج ، فأصبـح الدولار أفضل الأصهار وأحبّهم الى الاهل السَفَلة والزوجات اللائي يبعنَ أجسادهن للموسر العجوز ، ويدّخرن قلوبهن للمعاميد الفراهيد . وقد نسي النـــاس قول الانجيل : من اجل ذلك يترك الرجل أباه وأمه ليلتصق بامرأته ويصيران جسداً واحداً . وقول القرآن « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

فقال عباس لقد والله ذكرتني يا بهزاد حادثاً وقع في بـيروت ، ومؤداه أن جاراً لنا عاد من المهجر ثرياً ، نَيَّفتْ أمواله على الملايـين ، وذرّفت سنه على الستين ، وهو ، في صورته ، طلبة العلاّمة دروين ، الذي طالما نشد الحلقة المفقودة تأييداً لنظرته في تحدُّر الانسان من القرد ، فهو أصلع الرأس ، جاحظ العينين ، بادنٌ مترهّل ، مُندحِق البطن لفرط شراهته ، فكأنه يثأر لجوع قديم . ولقد نُكِبَت به مائدة أحد أنسبائنا فأصاب ديكاً وديكاً تعرّق لحمَه ، فترك العظام بيضاً ثم تمششها ، فغصّ بالشجا فدفعه بغرفةٍ من المرق الساخن ، ثم طفق يهذي محدثاً بنعمة المال على أهله ، فيطير من فمه رشاش هو أقرب الى الغيث منه الى الرذاذ ، فتقذّرت به سيدة أنيقة ساقها سوء بختها الى جواره ، فتكلفت الصداع الأليم وهربت الى الشرفة .

وكان الجِلْفُ عَزِباً ، وقد آلى على نفسه ان يتزوج فتـــاة مُعيّنة لا يتجاوز عمرها العشرين ، فقلت له ويحك أتقترن بفتاة أنت أسنّ من جدها ! أترى الحصان الهَرِم لا يُعمل ضِرسهُ بسوى الحشيش الطريء ؟ فضحك وقال أنا كنت خادماً لابيها الارستقراطي ، وقد أملَقَ اليوم بعد يَسار وابتهار ، وسأشتريها مهما غلا ثمنها ، ثم أسترقّها كما استعبدني أبوهـا الجائر ، إذ يكلّفني من حَمْل الحطب ما تنوء به البغلة الزرزوريّة . قلت مـــا البغلة الزرزورية ؟ قال هي الدهماء الشبيهة بالزرزور لوناً وسرعةً ، فعلمت انـــه

كان يكاري على البغلة ، ثم انحدر الى رتبة أجير فكارى الناس على ظهره . وأيقنت أنه يبغي زواجاً انتقامياً ينجو به من مركّب الدونية كما تخلّص من الجوع العتيق بالبطنة .

فأين هذه الدناءة من الزواج الذي هو تعبير عن الحب وعن اتحاد روحين وجسدين في شخص واحد ، فلا يكون الوصال إلاّ غاية أخيرة ونتيجة لهذا الغرام الرفيع ، لا إشباعاً لشهوة يشترك فيها الانسان والحيوان . بل يتحتم الاحتشام ، في ما أرى ، بين الزوجين الانيقين أنفسهما فلا يتبذّلان ، ذاك هو الاحترام المتبادل والإعجاب والصداقة والتضحية والمعنى السامي للحب .

قيمة المرأة

قال ابراهيم ألا ترى ان المرأة لا كرامة لها في عالمنا الحاضر سواء اشتراها الزوج كهذا العتِلّ الزنيم الذي وصفت ، أم اشترته بمالهـــا فغالت في الثمن ودفعت كل ما ملكت يداها .

قال عباس إن الحديث عن المرأة لذو شجون وشؤون لا تنتهي ، وربمـا كان مردّ ذلك الى الفكرة السائدة ، ألا وهي دونية المرأة وتفوّق الرجل ، حتى ليكاد هذا الخطل يصبح في حكم العقائد ، وأظن أن غلَبة الرجل تمت له بعد كفاح طويل يعود الى مئات الأجيال ، إذ كانت المرأة وليّة الامر تصطفي من الرجال من تشاء خديناً ، وتسخّر الذكور لخدمتها فتُعَنّتُهم وربما نفتهم او حكمت عليهم بالموت ، هكذا كان الامر في دُجُنّة القرون الاولى . ولقد كان أول المعبودات القمر باعتباره أنثى مخصبة ، وبينه وبين المرأة نظائر من جهة اختفائه مرة في الشهر وتواري المرأة في إبّان طمثها ،

إذ تعتزل الناس قسراً فتنتبذ مكاناً قصيّاً . ثم ان القمر كان مصدر اشتقاق للآلهات والكاهنات ، وكلهن يرمزن اليه أو يَخْدُمنه ، ولا عبرة باختلاف الاسماء تبعاً للأزمنة والامكنة . وانما أرطميس وعشتروت وأفروديت وعشتار وديانا وإيزيس واللات والعزّى ومَناة وأخواتهن قد صدرنَ عن منهل واحد هو المؤنث المعبود .

يقول المثل العامي (تلك القحلة أورثت هذه الوحلة) وها هي ذي المرأة السائدة بالامس اصبحت هي المسودة،إلا في ما كان من سلطان جمالها وسحرها وإطراء الرجل لمحاسنها ، بيد ان يد الرجل ما برحت هي العليا ، فهو الذي يشيلها ويحطها على هواه . وهو الذي يحصّنها او يهتك سترها . راهبة كانت وراء سور ديرها أم لاعبة على مسرح ، أم غريدة مطربة يبتدع لها الالحان والاغاني فينطقها بما يريد ، فبينا تراه يرفعها الى مرتبة الملكات اذا به يحدرها الى منازل العبيد . وليس في سواد الاغاني العربية الشائعة الا المذلة للمرأة ، لما فيها من لين وضراعة ، كأنها تستعطي الحب فتذكر بالشحاذين العميان الذين يتكففون المارة على الارصفة وفي منعطف الطرق ، اذ تعتلّ اصواتهم فتتهدّج بما يشبه البكاء ، فتباً لذلك الطرب المخنث المائع ينطوي على ظمأ الصديان وسغب الجائع ، وبعداً لأولئك الناظمين والملحنين الذين لا يعرفون من الفن الا التفاحش والأنين .

ويا طالما غض علماء الكلام ورجال اللاهوت من شأن المرأة بالامس البعيد حتى ان المجامع الكنسية تساءلت : أللمرأة روح ؟ ومنذ تفاحة حواء المشؤومة ما برحت الانثى غرضاً يرمى بكل فرية ، فتتهم بالطيش والحماقة ، والرياء والتلون ، فهي الزانية المستحقة الرجم ، والساحرة التي تحرق حية — وتكون قديسة كبطلة فرنسا جان دارك — والضعيفة التي يعبث بعرضها الشعراء ويزدريها نفر من المفكرين أمثال ارثور شوبنهور .

ولا تحسبنّ أن رأي الرجل فيها قد تبدل كثيراً بتبدل الحضارة ، وانك

تكاد تقرأ كل يوم في الصحف أن فلانا انتقم لشرفه فأغمد خنجره ثلاثين مرة في صدر شقيقته . وقد يكون هذا الغيور الأبي رب عائلة مشتت الوقت بين الحانات والمواخير وأندية المقامرة ، او عزباً قد استنفد مال أبويه قسراً واختلاساً فأبكاهما حتى ابيضت العيون ، وأنزل شيبتهما الى الهاوية ، ثم تراه يباهي بفحولته وسلطانه على الصبايا اللائي لوثهن ، فيعجب برجولته السامعون ولا يطوله المجتمع ، ولا يفكر أحـد برشقة بزهرة بنفسج فتباً لهـذه المقاييس المجرمـة حيث يُعدّ زنى الرجل بطولة وضعف المرأة جريمـة عقوبتها القتل . ولقد بلغت المرأة من الهوان في الأقاليم المتخلفة ما لا يبلغه سوى الحيوان فاعتبرت رجساً. فاذا ذكرها رجلها في حديث قال : أجلّك الله زوجتي ، فاذا تلطف قال : هـذه التي عندنا ، وعلى المخاطَب ان يفهم التورية فيـدرك ان التي عنـده هي الأنثى أداة النسل والطبـخ والغسل والاحتطاب .

ولقد اصبحت (التي عندنا) علماً للزوجـة المسكينة ، ويروى عن احد هؤلاء الازواج (المُهَذّبين) انه شهد فيلماً سينمائياً كانت أبرز الممثـلات فيه بريجيت باردو أرشق الفاتنات وأجـرأهن في الإغواء ، وأسرعهن في التجرد من المباذل ، فأخذ صاحبنا ينظر ويتفف فقال له جاره – وقد حسبه متقززاً ناقماً على الخلاعة – حقاً ان هذا المشهد العاري لجدير بنقمتك . فأجابه المُتَفَفِّف : أنا لا اقول تفـاً لهذه الممثلة بل لتلك التي عندنا في البيت ، اي زوجته .

ومن الغريب ان المعجم قد عرّف تَفَّفَ هكذا : قال تفـاً أي قذَراً وبُعداً . ثم قال التفّة المرأة المحقورة فلماذا لم يقـل التفّ : الرجل المحقور ومؤنثه التفّة جرياً على عادة المعاجم ؟ وأظن انه لو عُهِـد الى المرأة بالمعجم لكان الأمر على خلاف هذا الوجه .

ولقد اخبرني صاحب ملحمة «عيد الغدير » ما هذا مؤداه .

قال : كنت قاضيا في مرجعيون سنة ١٩٣٤ ، وكان هواي في الصيد

أنشده غالباً على الحدود الفلسطينية حيث يكثر الحجل ، أو في فلسطين نفسها ، في مستنقعات الحولة حيث تتوالى أسراب الحمام والبطّ فتحوم على الماء والظل والحَبّ الحصيد . وكنت أرى النساء حافيات الأقدام ، مثقلات الهام بحزم الحطب او الشعير ، يتقدمهن رب العائلة راكباً حماراً أو بعيراً ، او ماشياً يسوقهن سوق السوائم . وربما كنّ حبالى ، وقد تضع إحداهن في الطريق فتلقي عن رأسها حِملها وعن بطنها حَملَها ، ثم تلفّه بما تيسر من أسمال وتتابع سيرها الى البيت ماشية حافية والزوج راكب .

وكثيراً ما يجري الزواج هناك بالمقايضة ، فيتبادل زيد وبكر أختيهما ، فاذا أربت إحداهن على الاخرى جمالاً استحق أخوها زيادة في الثمن فقبض كبشاً او عنزاً لِنُدور النقد . فمن تزوج ولا أخت له ساقَ المهرَ من الماشية التي يملك . وقلما جاوز المهر ثلاث بقرات أو أربعة حمير . وكنت أصادف الكثيرات منهن في الطريق فأخمنهنّ وأصيب . ولقد ثمّنت واحدة منهن ببقرة ، فغضبت وقالت وَعِجلَتُها فقلت وعجلُها أيضاً .

ولم يقتصر هَوانُ المرأة على الشرق ، بل تعداه الى الغرب ، واستفاقت المرأة هناك على مَناخ وبيء ، فكل ما حولها يشير الى أفضلية الرجل ، فأيقنت انها دونه وان الامر طبيعي فلا مِرْيَة فيه . وقد فقدت ثقتها من نفسها ، وتلاشت شجاعتها ، وتبعاً لذلك قلّ إنتاجها عن إنتاج الرجل ، فأصبح هو النصّ وهي الحاشية في مختلف أبواب الحياة .

المرأة والتربية

ولا يخفى على ذي بصيرة ان الفتيات اللواتي يتدرّبنَ على يد أم مستقلة العمل والتفكير ، لفقدان زوجها أو لغيابه ، ينشأن مقتدرات يُضارِعْنَ

الرجال . وكأيّن من امرأة ساوت الرجل على صعيد العلم والفن والذوق ، ولئن تفوّق الرجل في القضايا المنطقية كالرياضيات وما شاكلها ، فحدس المرأة أعمق من حدسه ، وحسها أصدق من حسه ، ثم انها أصبر على المشقات ، من مثل تربية الأطفال وخدمة المرضى ، والعناية بالمياتم ، وأسبق الى التضحية والانسانية .

بيد ان الشرائع والعرف والعادة جرت بايثار الذكر ، ويعد من باب التحقير للرجل أن يشبه بالأنثى . ومن قبيل الاطراء للمرأة أن تقتدي بالرجل، وكم سمعنا اللبنانيين يمتدحون امرأة برزت مواهبها قائلين :

فلانة أخت الرجال .

وانه يندر أن يتزيا الرجل بزي امرأة إلا ما كان من بعض شبابنا ، الرخيص المخنث ، في نتف الحواجب ، وتسريح الشعر ، وتجميل الأظافر . بيد ان المرأة اليوم تقلد الرجل في كل شيء إلا ما تعذر بسبب الجنس . ولقد استغربت أوربا ، ولا سيما فرنسا ، في القرن التاسع عشر ميل الكاتبة الفرنسية الشهيرة جورج صاند الى الترجل زياً وقلماً وخلقاً واسماً . وانك لواجد الآن ملايين النساء في زي جورج صاند ونهجها في الحياة، أما قلمها الوحد فهيهات هيهات .

ثم ان هناك ظاهرة نفسانية عميقة الجذور وهي ابتهاج الام بالمولود الذكر من دون الأنثى فما معنى ذلك ؟

معناه في الأرجح ان كل امرأة تتمنى في قرارة نفسها ان تكون رجلاً لما منيت به من الدونية طوال العصور ، فكأنها حين تلد غلاماً تشارك في الذكورة وترتفع الى المكانة التي حرمت منها إذ ولدت أنثى . ذلك هو الواقع اليوم ، وكذلك كان بالأمس البعيد من جهة دونية الأنثى بدليل قول القرآن المجيد « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون » « واذا بشر احدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم » وما أغبى اولئك الآباء الذين

يؤثرون الذكور على الإناث ، كأن البنين هدايا الله والبنات بلايا الشيطان ، وانما هُنّ أوفر حناناً ، فاذا شاخ الآباء والأمهات وتوالت عليهم طلائع المنية فهزلت أعوادهم ،وارتعشت المفاصل ضعفاً وسقاماً انسلّت الكنائن وازواجهن ولم يبق الا البنات يدفئن بالدموع السخينة تلك الايدي المرتعـــدة ويغمضن بالشفاه الجفون التي أطفأها الموت .

من تلك الدونية التي أحاقت بالمرأة انطلقت ثورتها أو رد الفعل بطرق شتى، فتوسلت الى التفوق بأرهف الاسلحة وأمضاها ، عنيت الجنس ، أكان وجهاً جميلاً ، أم خداً أسيلا ،أم عيناً كحيلة ، أم شفة غير بخيلة ، الى آخر ضروب الغنج والمفاتن . ثم انها تجاوزت مغريات الانوثة الى المطالبة بالمساواة فولجت البرلمان وتبوأت سدة الحكم . ومن هنا انقسم النساء الى فئتـــين : المترجلة والخاضعة ، وكان لكلتيهما أثر في تربية الاولاد .

امـــا الاولى فتعمد الى القسر والعنف متجهمة صاخبة مهددة ، تخالهـــا تروض النمور في (السرك) فتهمز بالسوط وتكره الأرقـط الزهلول على المرور في دائرة من نار .فما تنفك العقوبات في البيت متواصلة ، والضجةقائمة، والحرب شعواء بين الأم وأولادها ، مما يحملهم على الكذب ويترك في نفوسهم أسوأ الآثار والذكريات ، ويباعد بينهم . وربما عزف الذكـــور منهم عن الزوج لما تركته الرواسب الوالدية في صدورهم من كره المرأة .

اما الخاضعة فتكون في الغالب عديمة الثقـة بنفسها ، فينشأ أولادها على قلة الثقة بها ، فاذا هي أخفقت في محاولة إصلاح أولادها هددتهم برفع أمرهم الى أبيهم. وفي هذا الوعيد نفسه إقرار منها بدونيتها وأفضلية زوجها . وربما تنصلت من الفشل فألقت التبعة على زوجها–ولو غائباً– صونا لكبريائها الجريحة وشخصيتها الضئيلة . وخير لمثل هذه المرأة ألا تلد لانها لا تحسن التربية فتجر الكارثة الكبرى على أولادها بما تحوطهم به من ترف، وما تعوّدهم من إسراف ينمو بنمو أسنانهم فيفدحون أباهم بمخازيهم ويحرقون بالالوف ومئات الالوف

ما جمعه بعرق الجبين أو دم القلب . ولا يكون الابن الشاطر الذي ورد مثله في الانجيل شيئاً مذكوراً بجانب هؤلاء الشاطرين الذين يتـــوبون كل صباح ويعودون الى المنكرات كل مساء فسحقاً لهم من جاحدين . « إن المبذرين كانوا اخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفوراً »

قال ابراهيم لقد أصبت في ما بينت بصدد المرأة ، بيـــد اني لا أذهب مذهبك في تصنيف الأمهات درجتين : مترجلة وخاضعة ، فهلّا سلكت سبيلا وسطاً وجعلتهن درجات فتحاشيت الوثبة من طرف الى طرف آخر .

قال عباس : انا لا أماري في الحل الوسط ولكني اخترت ابرز النـماذج واليك بهذه السيدة الداخلة الآن مستندة الى ذراع الشاب الاسمر خير دليل على ما قدمت .

فقلت من هذه ومن رفيقها ؟

قال هي نجاة الحداد ورفيقها ولدها لبيب ، وهو ثالث أبنائها وأصغرهم سناً ، وانها لزوجة فاضلة بيد انها ضعيفة الارادة ، تنقاد للعاطفة فوق ما تسترشد العقل ، فلقد تعذر عليها ان تعد ابناءها للكفاح فبسطت لهم يدها في العطاء وصرفها فرط حنـانها عن تقـــويم اعوجاجهم فنشأوا اتكاليين مسرفين ، فجرّعوها وزوجها أمرّ من الحنظل ، على طيب عنصرهم وحسن جوهرهم ، فما انسجموا مع الحياة وما تقتضيه من تكاليف ومجابهة صعاب . ولكم غبط والدهم العزّاب والعقماء ، والمتبتلين والرهبان ، بل النساك الذين اتخذوا المغاور بيوتا والأعشاب قوتا ، سكّنتْهم عواء الذئاب ، وصرير الجنادب وما يشيمون في الدجى من وميض الحباحب . ولكم سلخ الوالد التاعس من ألوف الليالي أرقاً قلِقاً يحول بينه وبين الدمع شممه ، لئلا يفشي الوسادُ سرّه اذ لودمعت جفونه لما تقطر إلادمه .

قلت يبدو لي من ملامح لبيب انه حسن السيماء والنفس ، شهم الفـــؤاد ، وان اسمه يوافق صفاته ، وأرجّح انه أحب الى أمه من سائر اخوته .

قال عباس : ما تعديت الواقع يا بهزاد في فراستك ، ولكن كيف رجح لديك انه أحب الى أمه من شقيقيه ؟

قلت : منذ فجر التاريخ الى يوم الناس هذا ما برح صغير الإخوة محوطاً بهالة من الحنان ، لانه في رأي والديه أغضّهم عوداً ، والضعف مجلبة للإشفاق. ولك بيوسف بن يعقوب برهان تاريخي على صدق هـــذه النظرة . أليس هو الذي أنقذ أباه وإخوته من العوز وأسكنهم أخصب أرض مصر ، وتسلّط على فرعون ، ودفع غائلة الجوع في السنين العجاف عن المصريين وبني اسرائيل. ولقد أجمعت الاساطير على نباهة الصغير ، فيا طالما قرأنا في القصص العربي ، وسمعنا في حكايات الشتاء ، نوادر الشاطر حسن وما أتى من الخوارق الــتي ينوء بها الخيال فضلاً عن الواقع . ولَكَم أغـــار الشاطر حسن منفرداً على الفيالق بَياتاً فمزقهم أشتاتاً ، واجتلب الاميرة بــدر البدور من وراء البحور ممتطيــاً حصانه المحجّل الذي يضع حافره ، حيث يقع بصره ، بعدما بطش بالنمور والأسود ، فبنى من جماجمها لقصره سوراً ، وفصّل من جلودها بسطاً ونمارق وسرْجاً وسريراً . ولكن لبيباً الذي ترى جنى عليه إفراط أمه في الحنان فكان عليها وعلى أبيه نكبة دونها الأسقام ألماً .

قال إبراهيم إن لهذه الظاهرة أسباباً نفسانية عميقة الجذور ، ولا يستوي الصغار كلهم في مناهج الحيــــاة ، فمنهم فئة تحس بالدونيّة فتحاول التعويض والتفوق فتفلح أيّما فلاح ، فلا يكون في ميدان الجهاد أسبق منها . ومنهـم من يشعرون بمركب النقص وتعوزهم الشجاعة او العناصر الكفيلة بالنجـــاح فيخفقون وينكصون على أعقابهم خاسئين ، ويلقون التبعة على جميع الناس ، حتى على المربّين ، دفاعــاً عن أنفسهم . وربما كان الصغير ضحية القائمين على تربيته ، بما يزرعون في نفسه من العِقَـد ، وفي طليعتهـا سَبْق الآخرين ، ويا طالما جرّ الطموح الى الاولية من المتاعب الاجتماعية ! فالمنطلق من هـــذه الفكرة الخاطئة قلّما ينسجم مع المجتمع لفرط أنانيته وزهوه ، فما ينفك يتأكله

الحقد والحسد ، فالغاية عنده تسوّغ الوسيلة وهكذا يظل عمره كارهاً مكروهاً. ولا تنحصر هذه الآفة بصغير الإخوة، وربما كانت بالكبير ألصق . وفي أغلب الظن ان البكر يكون مجلبة السعادة او الشقاء للعائلة ، إذ يتمثل به إخوته ، فاذا كان فظاً غليظاً سيء التهذيب لا إرادة له ولا زاجر من دين أو عقل ، فهو على أهله ضربة كبرى .

قال عباس : هذا صحيح ولقد ذكرتني بجار لي في بيروت جمع المعايب التي ذكرت ، قال ابراهيم لعله زياد الصباغ قال عباس : هو بعينه .

قال ابراهيم إن لزياد شؤوناً أخرى نجمت عن كونه ذكراً وحيداً بين سبع بنات ، ومثله يكون في الأغلب قبلة أهل البيت ، يتسابقون جميعاً الى إرضائه ويسهلون أمامه العقبات ، فيتوهم الحياة كلها نزهة مُتنزّه ، فيستكبر ويعتو غير معتمد على قوته ، بل على سواعد أهله ومن جرى مجراهم في الحنان لأنه يعيش طفيلياً ، فاذا اصطدم بعقبة في الحياة ، وهو بعيد عن مساعديه ، تقطّعت به أسباب الرجاء لأنه لم ينشأ على الرجولة ، تلك كانت أسباب إخفاق زياد .

وفي بعض الأحيان ، إذا كان الذكر وحيداً بين شقيقات يستقوين فيؤلّفنَ جبهة نسويّة تطغى عليه ، فيشعر بالدونية ، وتخمد فيه روح المبادرة والرجولة ، حتى لا يبقى فيه للزواج بقيّة .

الامزجة والطباع

قلت يبدو لي من كلامك يا ابراهيم انك تردّ مناقب الرجال ومثالبهم الى البيئة والتربية وتهمل عامل الوراثة ، على عمق أثرها في السلالة ، اذ يعمدون

في بعض البلدان الى اختيار قوّاد المعامع من أسرة اشتهرت بالبطولة ، والى انتقاء الموسيقيين من حفدة أعلام الموسيقى ، كما يبدو ان المجرمين يتحدّرون من آباء شبّوا على الإجرام وشابوا .

قال عباس لا نكير أنّ للوراثة تأثيرها في النسل ، ولكن الذين ذهبوا هذا المذهب غالوا فيه كما يتطرف غالباً كل صاحب مذهب ، يحاول تفسير الكون كله على أساسه ، فإن للوراثة نصيبها ، وللتربية والمناخ ، والمدرسة والمعاشرة ، وما الى ذلك من العوامل نصيبها أيضاً في تكوين المرء حتى لتجد التباين في العائلة الواحدة. أنظر نسيب الغاوي مثلاً ، إنه لرجل متفائل يواجه الصعاب شجاعاً فلا يندُب ولا يتفجّع ولا يطلب من الحياة كثيراً ، فاذا لم يفلح لم يشعر بالدونية . وتراه في أشد المواقف حرجاً قويّ العزيمة ، ثابت الرجاء ، موقناً أنه اذا خسر المعركة فلن يخسر الحرب وأنت أدرى بما نزل به من أسقام في جسده ، وما جرّه عليه ذووه من مِحَن سدّت عليه منافذ الراحة حتى غدا في الشقاء مثلاً سائراً. وانك لتعرف المتفائل بطلاقة وجهه وصراحته ، وعدم حذره ، وبعده عن التكلف ، وسخاء يده . وعلى عكس هذا يكون المتشائمون ، وهم في الغالب ممن اعترتهم نكسة في طفولتهم فنشأوا نادبين لا يرون في الحياة الدنيا إلاّ ظلاماً وصعاباً ، فيفقدوا الثقة بالحياة وبأنفسهم ، ويستصرخون ويستنجدون لدى الرزيّة . وأبرز معايب هذه الفئة الخجل والتردد، والبطء وسوء الظن، وتوهُّم الخطر حيث لا خطر، حتى يهجرهم الكرى فاذا ناموا فعلى مثل الشوك . ويدل الأرَق ، في معظم حالاته ، على ان المبتلى به قد جاوز حد المعقول في حذر العواقب ، مثله مثل الخفير الواقف على سلاحه ليلاً ونهاراً لدفع النوائب . وبحسب المتشائمين جهلاً انهم لا يصيبون من الحياة ، حتى المنام ، الذي يعطى مجاناً للأحياء فما أبعدهم عن فن الحياة .

ولتجدنّ المغلوبين على أمرهم دائمي القلق والحذر ، جبناء يفرّون من

واقعهم الحاضر الى الماضي ، ويختبئون وراءه ، كما يختبىء الاطفـــال تحت اللحاف خوفاً من الغول . وكما ان الشر لا يكون في الغالب شراً محضاً ، ولا الخير خيراً محضاً ، فقد تجد من هذه الفئة نفراً جزيـل الفائدة على المجتمع . وانمـــا عنيت رجال الفن الذين يهربون من الواقع الى الخيال ، حيث لا يصطدمون بعقبة ، فيهدمون دنيا ويبتنون دنيا يفعمونهـا بالجمال . يُعلون القصور وهم سُكـّان الاكواخ ، اولئك هم الواحات في دُجنـّة الحياةوجَدْبها حيالهم يتضاءل غنى الاغنياء ، وعزّة المناصب. وإنّا لنجهل اسم امبراطور روسيا على عهد دوستويفسكي،وملك ايطاليا يوم رسم الجوكنده ليوناردي ڤنشي وحكام فرنسا في عهد شارل بودلير ، وملك أسبانيافي أيام سرڤنتس . بيد ان العباقرة قلة اما المخفقون فجيش عرمرم .

وأبرز نقائص هذه الزُمر الحقد والتذمر والنقمةعلى البشر . فلا تراهم الا شاتمين أو ناقدين ، ينصبون أنفسهم ديـّانين لسواهم ولا يمـدّون لمأثرة يداً . يستثقلون الناس ويبادلونهم حقداً بحقد ، وكرهاً بكره . لا ثقة لهم بالناس ولا ثقة للناس بهم . يروغون روغان الثعالب ويغدرون غدر الذئاب « يا ايها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن إثم ، ولا تجسـّسوا ولا يغتبْ بعضكم بعضاً ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله ، إن الله توّاب رحيم »

قال ابراهيم، ألا تظن يا عباس ان للمزاج تأثيره في الإنسان ، وان طبع الدموي يختلف عن السوداوي والعصبيّ الى آخر ما هنالك من أمزجة ، قال عباس : الطبائع تختلف باختلاف الأمزجة ما في ذلك ريب ، ولكن لا يليق بالإنسان أن يكون لمزاجه عبداً ، ولولا هـذه الحرية لسادت الجبرية .

ولمناسبة ذكر الأمزجة دعني أدلك على أشخاص تعرفـــهم فتشهد الفرق الكبير بين أبناء العائلة المتحدرين من جد واحـــد ، حيث الأزواج الذكور أبناء عم أزواجهم الإناث . وأوثرأن أتخذ مقياساً لهؤلاء الاشخاص مقـدار

أنسجامهم مع المجتمع في مؤازرة الآخرين وخدمتهم والعمل على إسعادهم . انظر يوسف الخزاعي ، هذا الرجل المنفتح الذي يصح فيه القول المأثور : سيماؤهم في وجوههم ، تلقاه وكأنه يفتح ذراعيه ليستقبلك . يبش لك ولو كان في صدره ألف هم وهم لئلا يكدرك ،فكل ما فيه محبب اليك ، يجتذبك ويحلّي لك الحياة ، على ما فيها من مرائر . داخله ينعكس على خارجه في حديثه ورصانته وضحكه . وكثيراً ما نمّ الضحك على صاحبه فمنه البريء الصادق الواضح كزنبقة الربيع البيضاء طلّها الندى ، ومنه التشفي والشماتة بمرض عدو أو بموته ، أو بما بينهما من فواجع ، وهذا الضرب من الضحك يذكّر بالتمساح مكشراً عن مثل كوة جهنم . ومنه التجاري الذي يتكلفه رجال السياسة ، في موسم الانتخابات ، نقلاً عن التجار أو الممثلين ، إذ تكون المهزلة في عنفوانها ، ومنه الجزئي القسري الذي يعوّج معه الحنك فتخال صاحبه مصاباً بالفالج .

ومن البشر من يتعذر عليهم الضحك ، وفي الغالب يكون جزاؤهم من عملهم نفسه ، إذ تتغضن جباههم وتتجعد وجوههم ، وتعشش الدمامة في الثنايا قبل أوان الشيخوخة . وقد يخيّل الى هذه الفئة ان الضحك يذهب بالمهابة وانه لا يليق بهم ، وهم فروخ الآلهة ، ان تنفرج شفاههم ، لان من مقوّمات الألوهة ، في ما يتوهم الشرقيون أن تكون جامدة مقطبة هائلة المنظر لا يراها إنسان ويعيش. ولقد حدثتني احدى الأديبات عن أديب غالى في تزمته ، حتى ندرت ابتسامته ، فلامته في ذلك ، فحاول الضحك ثم غلبه طبعه فجاءت المحاولة ناقصة كالجنين السقط .

والمقطّبون ثقال على القلوب ، وانما يجتذب الأفئدة اولئك الأكياس الذين تشعر اذ تراهم انهم يحبون الحياة ويجلبون لك المسرة . على ان المتزمّتين أخف نكبة من طيور الشؤم الألى نذروا حياتهم للحزن ونشر الكآبة في الناس ، فكأنهم في مناحة مستمرة ، ملامحهم تقوم مقام شارة الحِداد ،

ومن تلك الزمرة حسّان الفتّال . قلت لعله ابن عم سالم الفتّال قال عباس نعم ، فماذا عندك عن سالم ؟ قلت بل ماذا عندك عن حسان ؟

قال عباس: دعينا في العام الماضي الى عرس جبليٍّ أصيل، وقد زُفّت فيه لُبنى ، بنتُ خال حسّان الى صديقي عفيف الشامي ، وانما رغب فيها لعلمها وذكائها اللذين قاما مقام الجمال، إذ قلّما يجتمع الحسن والمعرفة لامرأة وكانت العروس يتيمة ، توفي والدها ولها من العمر سنة ، وهي تِرْب ابن عمّها حسان الذي لم يرَ وجه المرحوم خاله ، إلاّ في صورة علّقتها أم حسان في غرفة منامها .

وكانت ليلة العرس ليلة فريدة ، كل ما فيها يدعو الى السرور ، قمرٌ بدر وأفق ضاحٍ ، وكواكب وهّاجة ، ووجوه مشرقة ، وزغاريد وحلقات رقص . وما راعني إلا حسان متجهماً كالسحابة الثقيلة ، في ليلة كانونية ضنّ عليها البرق بالنور ، وقد تحدّر دمعه على خديه . فقلت ما بك يا حسان ! هل دفعك أحد في الزحام فتجدّلت فوطىء الداخلون ظهرك ؟ قال كلا قلت فهل تشكو معدتك لفرط ما التهمت من الأطعمة ، لاني رأيتك مكباً على المائدة إقبال الضبع الجائعة على جيفة ؟ قال كلا معدتي بخير . قلت أترى أحد الظرفاء صفع قذالك ، أو لطم قفاك ، أو وَقص عنقك ، أو هتّم أسنانك ؟ قال لا . قلت فهل سكب أحد الشاربين ثمالة الكأس على رأسك تخلّصاً من مجلسك الباهظ ؟ قال كلا . قلت هل أهديت لابنة خالك هدية العرس فندمت فبكيت . قال لا لأن شقيقتي أهدت العروس ، بالاصالة عنها وبالنيابة عني ، دجاجتين كلتاهما بيوض . قلت هذا سخاء رائع فما يبكيك إذن يا حسان ؟ قال ، آه لو بقي المرحوم خالي حياً لكان سروره عظيماً في هذا اليوم . قلت إذن أنت تنوح على خالك المتوفى منذ عشرين عاماً ، فأتيت ايها البوم المشؤوم تنغّص على الناس هناءهم ، قبّح الله وجهك ، وصفعته ، بالاصالة عن نفسي وبالنيابة عن أهل العريس ، صفعة أليمة .

فهات يا بهزاد ما تعرفه عن سالم .

فقلت إن سالماً من معدن حسّان ، بيد ان اللون مختلف ، فذاك لا ينفك يشكو سوء حظه في الحياة وانه لا يفلح في عمل أبداً ، فكأنه يباهي بالهزيمة كما لو كان القدر يستهدفه من دون الناس جميعاً ، باعتبـاره قطباً من أقطاب المجتمـع الذين يكون زمانهم حرباً عليهم ، ويبلغ منه الغرور بالنفس والفراغ مبلغاً يتوهم معه ان الله سبحـــانه يُلحق به الرزايا ، وإن هي إلا الكبرياء توسوس له انه جدير بمثل هذا الابتلاء تشريفاً له . وهكذا تراه ينشر حوله ظلّاً ثقيلاً . أمـا وقد فدحه العبء – في ما يرى – فانه يلجأ الى الدين ، ولكن تديّنه يظل مصطبغاً بالشؤم فضلاً عن رقة ايمانه وكثرة هذيانه . فاذا ركع للصلاة بدأ بالعويل والشكوى حتى لتبدو مراثي إرميا بجانب مأساته نقطة في خضمّ . ثم يكلم الله عن شخصه الحقير ، ملقياً عليه ، عز وجلّ ، التبعة في كل ما أحاق به من الكوارث ، بدءاً من خسارته في بيع التفاح الى موت العنز الحلوب ، الى النفور القائم بين صهره وابنته، الى رسوب ولده في امتحان (السرتفيكا) . وبعد ان يسرد المصائب ، يبدأ بالمطالب ويفتتحها بالنقمة على خصومه ، فيضرع الى الله ان ينزل صاعقة على بيت المختـــار ، ومثلهـا على منزل رئيس البلدية ، ثم يلتمس البركة والتوفيق لذويـه ، ولا ينسى دجاجته التي انقطعت عن البيض ، لعل الله يرحمه فتعيد سيرتها الاولى بالخصب ، ولا بَقَـرته الحامل متمنياً ان تضع أنثى ، فـــاذا تمّ ذلك ودرّ لبَنُها نذر للكنيسة ربع ليرة يجود بها طيّب النفس . ومعظم صلوات سالم كانت مشروطة كأنه إذ يناجي الله يخاطب أحد المعقّبين في إنجـاز قضية ، غبّر عليها الزمن ، في دائرة رسمية ، فيعيّن له جعالة أو جائزة ترتكز على نسبة مئوية ، كأن العناية الإلهية تنصرف عن ثلاثـة آلاف مليون من البشر الى سالم الذي تلمح من وراء حقارته كبرياء ذليلة. فقاطعني عباس قائلاً: انه قد التبس عليه قولي كبرياء ذليلة .

فقلت أما الكبرياء فاعتباره نفسه هدفاً للنوازل او البركات ، أما المذلّة فلأن الهوان في دمه ، وهو يشعر بحاجة مُلِحّة الى من يقوده ، لأنه من فئة

العبيد الشاخصة عيونهم الى شفاه مواليهم لتلقّي الأوامر خاشعين صاغرين ، وانك لتراهم وقد تقوّست ظهورهم لفرط الانحناء ، فاذا حاولت ان ترفع وجوههم نغّصت عليهم عيشهم الرتيب ، فأين هؤلاء الأذلة من البسلاء الذين ولدوا للقيادة والمبادرة ، لا للخضوع والتنفيذ ، فاذا أحللتهم المحل الثاني لا يستطيعون شيئاً .

مستوى الجماهير

وفي تلك الساعة دخل المقهى بضعة رجال يتقدمهم كهل طويل القامة ، عريض الألواح ، أشقر الشعر ، أزرق العينين ، بيده خيزرانة يشير بها الى تابعيه فيهرعون الى إعداد منضدة ويصفقون للخدم . وجلس القادم ومن حوله حاشيته فسألت ابراهيم : أتعرف الرجل ؟ أتراه زعيماً كبيراً ؟

قال أعرفه ، إنه فرخ زعيم ، والنفر المحدقون به فروخ هذا الفرخ ، وجميعهم تابعون لزعيم ، فقاتل الله السياسة التي صنّفتهم طبقات ، ورتّبتهم في المعراج درجات ، وهذا يوافق رأي أحمد شوقي حيث يقول :

سُخّر الناس وان لم يشعروا لقويّ او غنيٍّ او مبين
والجماعات ثنايا المرتقي في المعالي وجسور العابرين

فاستوقفت ابراهيم وقلت مهلا ياصديقي أراك تظاهر أحمد شوقي في احتقار الجماهير ، ولقد تكاثر عدد المثقفين في منطقتكم هذه ، وأحسبهم النواة الخيّرة لرفع مستوى الاميّين ، وأرجح انك تغلو في الخفض من قدر الجماعات ولاسيا في هذا العصر الذي قضى على المسافات ولزّ القطب الشمالي بالقطب الجنوبي ، وعمّم المعرفة فوضع الراديو في متناول باعة البقول

المتجوّلين ، والتلفزيون بين أيدي الأطفال .

فقال ابراهيم انك لَواهِمٌ يا بهزاد ، أمّا ما ذكرت من شأن المثقفين فلقد أخطأت في التعريف ، فلو قلت المتعلمين لما عدوت الواقع ، إذ ان بين الثقافة والعلم فرقاً جسيماً ، فالثقافة لغةً هي التهذيب والتقويم ومصدرها الحضارة اما التعلم فمعظم الشوك فيه يظل بدون تشذيب ، وهو تصدير المعامل التي تعد الطلاب للشهادات ، وسوادهم فاسدون ، فلاهم في الأميين البسطاء الذين تُحَبِّبُهم اليك براءتهم ومروءتهم الفطرية ، ولاهم في القادة الخيِّرين وكثيراً ما تسري عدواهم الى الأميين فتُفقدهم خصال الخير ، اذ يتشبهون بالمتعلمين الاشرار فيقلدونهم في اكتساب النقائص . اما الراديو والتلفزيون فعلى كثرة منافعهما ضارّان ولاسيما التلفزيون من جهة أثره في الاطفال ، إذ تنطبع في أدمغتهم الرخصة صور الجنايات في الروايات البوليسية فضلاً عن الجرائم الأخلاقية . أما الراديو فبحسبه ضرراً انه يقضّ مضاجع النائمين ، ويقرّب آجال المرضى المتألمين الذين ابتلاهم القدَر بجيران سفلة رعاع يعلنون عن وجودهم بالصخب الموصول . أما رأيي في الجماعات فما هو بالرأي الفطير ، ومعظمه مقتبس من مذاهب اقطاب العلماء النفسانيين ، ولقد شرعت البارحة أعدُّ مقالاً مسهباً في هذا الشأن فقال عباس : وأنا أشوق ما يكون المرء للسماع فهات :

قال ابراهيم زعمت فئة من العلماء النفسانيين ، وعلى رأسها العلامة (غوستاف لوبون) (Gustave Le Bon) ، ان النفس الجماعية تختلف أيّما اختلاف عن نفوس أفرادها . ولا بد لهذا التعريف من إيضاح يقرّبه الى الافهام ، فإنك لو أقحمت في جمهور من العمال وأصحاب الحرف ، عصبة من الطلاّب والادباء والمحامين والتجار وسوى ذلك من مختلف الطبقات ، وَسيَّرتهم في تظاهرة مثلاً لانصهروا جميعاً في بودقة واحدة صوتاً وعملاً ، ومروءة وضلالة ، شأنهم شأن الخلايا في الجسم تسير في خدمته جميعاً . ولربّ معترض يقول : كيف يتعطل العقل الرشيد فتجري الفئة العليا في

التيّار بدلاً من أن تقف سداً من دونه ، ويكون الراقون مَنَاوِرَ هدى في أسداف الدجى .

ويُردُّ على ذلك بأن العقل عقلان : أولهما النيّر وهو الذي بـه ارتفع الإنسان الى المستوى الجدير بإنسانيته ، فقهر الطبيعة وسخّرهـا لمنافعه ، واستقرأ واستنتج ، وفصّل وجَرَّد ، وتمنطق وتزندق ، وسيّر المراكب في البرّ والمنشآت الجواري في اليمّ ، والطائرات في سَكاك الهواء ، وابتدع مَناعم العيش ومبتكرات البذخ والترف .

ولكن هذا العقل الظاهر النيّر لا يعادل حيال العقل الباطن أو اللاوعي (L'inconscient) سوى وَرقة واحدة في دوحة شامخة ، أو جزيرة (ألبا) الصغيرة . بإزاء المحيط الهادىء . انـه الغور البعيد الساجي حيناً ، الهادر أحياناً . منه ينبع الشعر والعبقرية ، والشر والخير . العقـل النيّر يهندس وينظّم ويمد الأعتاب والرواشن ، ويزخرف وينقش في المرمر والرخام ، أما المستودع أو الخزّان العظيم الذي تراكمت فيه مخلّفات جدودنا ، ثم تسرّبت الينا بالوراثة فهو العقل الباطن. لذلك ترانا نأتي من الأمور ما نسوّغه ونختلق له أسباباً ، إذ يكون العامل الحقيقي أعمق مما نتصور ، فالمجهول الذي خلفنا أوسع من المعلوم الذي أمامنا .

قال بولس الرسول أراني أعمل ما لا أريد وأريد ما لا أستطيع أن أعمله ، ولم يقل إلاّ حقاً .

وبما ان العقل الباطن هو الذي يسود الجماهير فالنفس الجماعيـة تذيب خصائص الأفراد ، وتَمَّحي في الظلام الأدواح البواسق ، وتختفي الألوان ، ولا يبقى سوى الليل الغُدافيّ المزري بليل امرىء القيس وأمواجه وسدوله . وفي هذه الغمرة يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون . وقد تنفلت غرائز الفرد في الجماعة ، لأن العدد يزيد في شوكته ، فيستقوي ويحسب أن لا غالب له ، ما دام مُسوّراً محوطاً بأشباهه ، ولا سيا اذا كان يجهلهم أو يجهل

سوادهم ، فكأنمـــا هو السهم في الشركة المغفلة ، حينئذ تراه يطـّرح برقع الحياء، ويتحلل مما تواطأعليه الناس في باب التهذيب الاجتماعي والمجـــاملة ، ويغدو من أصفق البشر وجهاً ، وأكثفهم وجداناً ، وأفتكهم يداً ، لأنه لا يخاف لوماً ولا عقاباً .

وتسري العدوى في النفس الجماعية بأسرع من اللهب في الزرع الحصيد وقد لفحته الريح السموم في الهـــاجرة ، حتى ليتخلى المرء عن الأثرة والمغنم ، ويغامر في المغامرين بدون حساب ، ولو كان أحرص الناس على ماله ودمه في غير ذلك المقام .

وربما كان تأثير الجماعة فيه كتأثير المنوّم المغناطيسي بالمُنَوَّم ، إذ يمحو ارادته ويقسره على ما يريد ، ولو تعارض مع نفعه . وربمـا كان ذلك بفعل تموّجات تسري من المنوّم الى الوسيط ، فتخيَّلْ في الجماعات ألوف السيّالات والطاقات الكهربائية تتفاعل وتنصبُّ على الافراد ، حتى تسير سير القطعان أو أدنى تمييزاً ، إذ يصبح المثقفون أنفسهم بدائيين كسكان المجاهـــل في استراليا والبرازيل ، او يعودون – وقد بلغوا أشدهم – أطفالاً أغراراً فتراهم في التظاهرة ، مثلاً ، صاخبين مزبدين جَلـبتهم جلبة الخضمّ جُنّت أثباجه ، وتكسرت على سِيفِه امواجه ،وليس أدل على همجية المرء من الضجة ، فحيثما ترتفع الضجة تخفت الحضارة ، سواء في ذلك موسيقى الزنوج ، وصياح الباعة المتجولين ، وخوار الثيران ، وأنكر الأصوات التي أشار اليها الذكر الحكيم.

ومن طبع الجمهور الحدة والاندفاع ، وقد تكون لشريف قصد او لدنيئه، لمحمدة او لجريمة ، وتكون في الحالين استجابة لنزوة عارضة بدون ما تعقّل ولا رويّة ، هذا مع سرعة التحول من غايـة الى ضدها بلا فترة بين الفكرة وانجازها . وقد يغترّ الفرد الذي في الجمهور بقوته حتى لا يرى في طريقـه مستحيلاً .

وإنما الجماعات كالاطفال تصدّق بما لا يكون ، وتتأثر بلا شيء ، بعيـدة

عن التمحيص والنقد ، تفكر بمخيلتها متحللة من رباط العقل ، وما يساورها الشكّ إلا قليلا . ولتجدنّ الخبراء بهوَس الجماعات يثيرونها بمعسول الكلِم ، وترديد الشعارات الحماسية ، والغـــلوّ في إيراد الصور الصارخة . وفي طبع الغوغاء الجنوح الى القوة ،وقلّما تميل الى الرحمة ، إذ تعتبرها عجزاً او ضعفاً، فتمجِّد من أبطالها أقوامهم شكيمة وأعنفهم عملاً ، وأمداهم سلطاناً ، وأبعثهم للرعب في أفئدة أنصاره عبيداً وأتباعاً ، يؤمنون بالتقليد ويكرهون أي جديد، ولو انه الحق الذي لا ريب فيه وأنى يبصرون الحق وقد استيقظت فيهم غريزة البدائيين الكامنة في الانسان الحيوان ، منذ أجيال ، فخدّرت الأفهام حتى نأت بها عن الحقيقـــة ، فعلقت الخرافة والأساطير وآثرتها على الواقع . وأذكر ان احد المتيّمين بعنترة بن شداد ممن كانوا يسمرون عند (الحكواتي) ويصفقون لراعي الأبجر إذ يخوض المعـــامع ، ويردي ألوف الفوارس في الوقيعة الواحدة ، سألني كم طول الحصان الأبجر فأجبته انه نظير الجياد التي نراها اليوم . فلو اني أنبأته برسوب ولده في الامتحان ، او بوقوع الجراد على بستانه لكان أخف عليه من جوابي ، لأن (الحكواتي) أقسم لسامعيه بأن طول الأبجر خمسة عشر ذراعاً .

ومن البديهي القول إن الجماهير تنشدزعيماً، إذ الخضوع في جوهرها كما هو في النحل والنمل ، وأسراب الطيور وُصوار البقر ، وغالباً ما يقودها الثور الأبلق ، وقطعان الغنم وتجري وراء الكبش النطّاح الأقرن، كما يصدق ذلك في الجماهير البشرية .

ولا بدّ للزعيم من استجماع خلال أهمّها : مضاء العزيمة، وقوة الإرادة لأن الجماهير لا ارادة لها . وأن يكون متحمساً لمبـدأ ، أو مذهب ، أو فكرة ، فيتجاوب مع تابعيه ليبقى التيّار الكهربائي بين الزعيم وأنصاره موصولاً ، يتلقى ويعطي في آن واحد ، حينئذ يبلغ الإعجاب بالقائد أقصى حدوده.

بيد أن هذا الرأي فيوحشية الجماهير لا يجري على إطلاقه ، ففي الجماهير

نفسها نجد النجدة والمروءة لدى وقوع كارثة حريق أو طوفان ، إذ يتعرض الأفراد للأخطار ولا يبالون .

وتصح النظرات، التي أسلفنا الكلام عليها في الجماعات العابرة أو الثائرة، يختلف أفرادها جوهرياً ، فلا يؤلّف بينهم سوى رغبة واحدة كالمطالبة بخفض الأسعار ، أو إعادة الدستور المُعطّل ، أو ما شاكل ذلك .

ومما لا ريب فيه ان كل عمل عظيم من مثل الاختراع ، أو اكتشاف المجهول يقوم به الفرد، بيد ان هذا الواقع لا ينفي تأثير الجماعات في الأفراد، ومثال ذلك الأغاني (الفولكلورية) والتقاليد الحميدة ، التي يتوارثها الخلف عن السلف ، وأفضلها في لبنان حسن الضيافة .

واذا فلا مفرّ من التمييز بين الجماعات العابرة والراسخة المنظّمة التي يسودها الهدوء ، وتعمل في سبيل عقيدة أو هدف معلوم . وثمة ظاهرة تجدر الإشارة اليها وهي ان الجماعات العابرة كلما ازداد عدد أعضائها ازدادت حماسة الفرد فيها ، إذ يتوهم الجمهور الغفير ممثلاً الهيئة الاجتماعية بأسرها ، فمهما يفعله فهو جائز . وقلما يخطر لواحد منها ان يقاوم رفاقه ، اذ المعارضة جريمة في هذا المقام عملاً بالقول السائر. من عاشر الذئاب فلا بدّ له من مشاركتهم في العواء. ولو لم يكن الفرد منخرطاً في الجماعات لاستنكف عن إتيان الموبقات التي ينساق اليها مع الجمهور بمثل فعل السحر والإيحاء . ويقيناً أن الرسّام الذي يحرق الروائع والألواح النادرة سائراً بل مُسيَّراً في تظاهرة لينْدم بعدها ، وربما أفنى ضياء عينيه في مصنعه ليأتي بواحدة من مثلها .

ومما يحول دون ذوبان الفرد في الجماعة كونها منظمة دائمة لا عابرة ، وانها مقيدة بنظام يوزع العمل بين أفرادها ، فيختص كل بما هو أهل له . وفي هذه الحال يكون العقل هاديها وضابطها ، لا النزوة الهائجة ولا الغريزة العمياء .

ولقد عرضنا في مستهل هذا المقال مظاهر الجماهير ، وألمعنا الى الاسباب فذكرنا العدوى والرغبة المشتركة وسواهما . بيد ان عالماً كبيراً يجعل قطب

العوامل التي تحدو الجماعات عاصفة الحب ، منطلقاً من الحب الجنسي ، مفرّعاً عليه سائر ضروب العاطفة ، سواء أكان حب الذات ، أم الوالدين ، أم الأبناء ، أم الصداقات بين الناس وما جرى مجراها . ذلك العالم هو سيغموند فرويد الذي يعود اليه الفضل الاكبر في التنبه الى أهمية العقل الباطن ولو غلا فجعل منه مستنقعاً قذراً لا تهبّ منه نفحة خير ، ناسياً انــه معين الشر والعبقرية، لجّة الظلام ومطلع النور .

رابطة الجماهير

وهنا قام عباس فقاطع ابراهيم قائلاً : عجباً لسيغموند فرويد ، فإنه — وهو منشىء التحليل النفساني — لأحوج الناس الى تحليل نفسه ففيه يصدق المثل القائل : ايها الطبيب طبّب نفسك . فلقد ركز جملة رأيــه على العقدة (الأوديبية) وتنافس الإخوة في البيت الواحد ، لأنــه ابتلي بهذه العقدة ، لزواج أبيه مرة ثانية فضلاً عن تأثره النفساني بالاضطهاد الذي أصاب أمته اليهودية يومذاك . وهو فضلاً عن إلحاده يرى الجنس في كل شيء ، في يقظة الناس ومنامهم وأحلامهم ، يلمحه جامحاً في ضراوة المتوحشين ، ولطيفاً في تـصَوُّف المتصوفين ، وصارخاً في صرعة المجانين ، ومكبوتاً في العصابيّين إذ وجد له مُتَنفـّساً ، فأطلّ منحرفاً ، فوسوس للمبتلين به ما وسوس .

ولا غروى فان أصحاب المذاهب الفلسفية يتطرفون فيعمد كل واحـــد منهم الى تفسير الكون كله انطلاقـــاً من مذهبه . ألا ترى كيف يرتكز افلاطون على (الصور الأزلية) وأريسطو على (الماهيـــة) وسبينوزا على (الحلولية) ودركايم على (المجتمعية) . ولقد ذكرني صاحبك فرويد بعانس قدمت بيتنا في العام المنصرم ، وقد ضاقت في وجههـــا سبل العيش والحب

فعمدت الى الطب (التدجيلي) تزعم ان مصدر الأسقام جميعاً ارتفاع الحرارة لذلك ابتدعت دواءً واحداً هو الماء البارد ، تعالج بـــه الملاريا والدفتيريا ، وحمّى التيفوس والتيفوئيد ، والتهاب الزائدة المعوية والحمى المالطية ، وضعف القلب وتضخم الكبد . فسألتها عن مفعول الماء البارد في علاج النقرس وذات الرئة وذات الجنب والوافدة الصدرية ، فضمنت الشفاء التام . فقلت لها : ايتها الآنسة ما اشبهك بذلك الشيخ الجاهل. قالت وكيف كان ذلك؟ قلت:

زعموا ان رجلاً كسولاً نبذه أهله وأصحابه اذ رأوه عالة عليهم ، فقصد قرية نائية لا يعرفه احد فيها ، وأطلق لِحيتهُ ، وكوّر العمامـــة ، ولم يكن يعرف من القرآن الا الفاتحة وبعض الصور القصيرة التي لا تجاوز بضع آيات . ونصب نفسه إماماً للقرويين وكلهم أميون أكـّارون ورعاة ماشية . وكانوا يستفتونه في مسائل الدين فيغمغم حينـاً ويرجئهم احياناً . وصادف ان هبط المدينة ذات يوم ، فسأل عن مفتيها فأرشدوه الى منزله . وكان الرجل شيخاً جليلاً قد تبحـّر في علم الفقه . فأنهى اليه ان الناس يرهقونه بالمسائل العويصة، وهو قليل العلم . فقال الشيخ ان باب الاجتهاد لواسع ، فاذا واجهتك مشكلة فقل : ان للقضية وجهين وبهذا الجواب تنجو من الاحراج . فشكر له نصحه وأمّ القرية مرفوع الرأس ، يقيناً منه بانه خرج من الموقف الضنك الى السهل الأفيح .

وجاءته امرأة ذات يوم فسلمت وسألته هل الله واحد او متعدد فأجاب، جرياً على نهجه الجديد ، في المسألة وجهان . فزجرته المرأة قائلة : ايها الإمام الاحمق – على قلة علمي باللاهوت – أقول لك انك جاهل او كافر .

وانت ايتها الآنسة (فوطينا) ـ وكان هذا اسم العانس –جاهلة بالطب أو مغالية في منافع الماء البارد .

ولا ريب ان صاحبك العلامة سيغموند فرويد قد زاد في الرقـــة حتى انقصف . فمن اليقين ان القضية الجنسية تشغل مكاناً جـد واسع في الكون ،

بيد أنها ليست كل شيء ، ولقد أفرط فرويد في تعميم مذهبـــه حتى أقحم المحبة في الحب الجنسي ، فجعلها احدى مظاهره ، فأدخل في هـــذا الباب رسالة القديس بولس الى اهـــل كورنتوس ، وربمـا كانت من أسنى وأطهر ما خطه قلم بشر في باب المحبة .

وها هو العلامة ألفرد أدلر ، يدحض في كثير من الرصانة والعمق مزاعم فرويد ، منطلقاً من مبدأ شعور الانسان بالدونيـــة ، أي مركب النقص ، وسعيه الى القوة ، حيث يلتقي بعض اللقيا فريدريك نيتشه .

قال ابراهيم أنا لست من مشايعي فرويد ولكني أكتفي بالاشارة الى بعض نظراته في الجماعات ، اذ يرى ان العامل الاكبر بل المحرك الاول هو الحب ، لان الفرد الذي يتخلى عن خصائصه يفعل ذلك من اجل الجماعة .

ويتخذ فرويد ، على قوله دليلاً ، الجماعات الدائمة لا العابرة ولا البدائية ، بل المنظمة الراسخة ، فيضرب مثلاً الجيش والكنيسة . فالاولى يرئسها القائد العام ، والثانيــة السيد المسيح الذي يحب جميع الاعضاء على حد سواء .أليس هو القائل : مهما فعلتم لأحـــد اخوتي هؤلاء الصغار فمعي تفعلونه . اذن فهو الأخ البكر الذي يقـوم مقام الأب . فلا غرابة ، بعد ذلـــك ، ان تعتبر الكنيسة عائلة واحدة ، وان يُعتبر المسيحيون اخوة في محبة المسيح .

وكذلك القول في الاخوّة بين الجنود الذين يستوون في محبــة القائد . ثم ينسب فرويد اخفاق الجيش الالماني في الحرب الكونية الى القسوة الـتي لقيها الجنود ، فأفقدتهم ثقتهم بعطف رؤسائهم ، فانحلت العرى وانهاروا أيما انهيار وليس أدل على ذلك من حالة الذعر التي تصرم أواصر المحبة فينجو كل جندي بنفسه ، ويصم أذنيه عن أوامر القائمين عليه ، وقد يكون الباعث على الرعب سبباً تافهاً لا يجزع له المرء في غير ذلك المقام .

قال عباس: اني لأرى فرويد مصيباً بهذا المثل ، فاذكر وقيعة (واترلو) التي بدّلت وجه التاريخ في ما أظن. فانّ كَـاف الجيش بنابليون ،حدا المؤخرة

على الثبات في وجــه الموت ، اذ كانت مدافع العــدو تحصدهم حصداً ، فقيلت يومئــذ تلك الكلمة الصاعقــة : « تموت الحاميــة ولا تستسلم » L'arrière garde meurt et ne se rend pas . وكان مبعث هـذه الاستهانة بالموت الحب المتبادل بـين الامبراطور وجيشه ، فلقد كان الجيش يعبدون ذلك الطاغية الذي مــا فتىء يلهب أفئدة الملايين من قراء سيرتــه الى يوم الناس هذا .

قال ابراهيم : بالصواب نطقت يا عباس، فلقد كان شغف الجنود ببونابرت يشد بعضهم الى بعض ، فيؤلفون وحدة ، وانما ثبتوا واستماتوا في (واترلو) اذ كانوا على يقين من وجود الامبراطور في المعسكر او قريباً منه ، فلو أتاهم انه مات او نكص على عقبيه لانحلّت العرى الوثيقة للحال ، لأنّ ارتباطهــا بالأفراد مردّه الى صلتها بالقائد . وهذه المحبة الرابطــة الجماهير استثنائية ، لأن الناس فطروا على حب الذات ، وانك لتجد التنافس ، بل التباغض بين الأقارب والجيران ، وبين مدينة ومدينة ، ومملكة ولصيقتها ، بين الساحليين والجبليين ، بين البيض والسودان الى آخر الباب .

ويزعم بعض العلماء النفسانيين ان رابطــة الجماهير التي توحّد بينهم هي غريزة التجمّع التي تؤلف الطيور أسراباً ، والجراد أرجالاً ، والخيول رعالاً، والمواشي قطعاناً ، والعشائر فصائل فقبائل فشعوباً تزاوجُ وتَناسلُ ، وتتحد اتحاد الخلايا بعضها ببعض كما في الجسم الواحد ، وللجسم الواحد في الجماعات رأس واحد هو القائد الذي يشدّ اليه الخلايا جميعاً .

قلنا في معرض البحث ، ان الجماعات تنفعل انفعالاً يعود بها الى البدائية، ويحسن بنا تعريف البدائية بالإشارة الى بعض مظاهرها .

في ظلمة العصور الخوالي كان الفرد يشعر بضعفه ، إذ المخاوف تحيق به ، وإذ الملكية الفردية مُعدمة ، فالجماعة تتألب لصدّ الجوع ، ودفع الضواري ، وصيانة الاطفال . كل ذلك في ظل رئيس القبيــلة القوي الغنيّ عن مساندة

الاطفال ، فهم يستمدون عطفه بالسويّة ويحبونه ، وهو يسودهم ولا يحبهم ، فله الحول والقوة والارادة المطلقة التي تخضع ارادة سواه فلسحر وتنوّم ، لأن الزعيم رهيب مخيف ، وهو لغز عميق ينطوي على قوة غريبة ، فمن اقترب منه أو حدّق اليه ألقى بنفسه الى التهلكة . وكان اليابانيون الى الأمس القريب يهابون رؤية الميكادو .

فقال عباس : لقد هوى الميكادو عن عرشه فأصبح كسائر الناس ، ولكن عندنا في لبنان ما برح أتباع الميكادو قائمين ، فانظر الى هذه الجسور او الظهور التي تتقوّس ليعبر عليها أصحاب السلطان . أما الزعيم او الفرخ الجالس الى المنضدة فقوته لا تعتمد أصالة في النسب فما هو ابن أمير ولا شيخ ولا وزير ، ولا وجاهة في البيت ، ولا سخاءً يجتذب اليه الناس ، بل تعتمد شاربيه المعقوفين ، ومشيته الطاووسية ، وصوته الجهير ، والمخصرة التي يلوّح بها ، وهي عنوان على مسدس تحت زناره من نوع (الكولت) ، أو (سميث وسن) . وانها لظاهرات تسيّج من حوله فلا تطوله العقوبات اذا ارتكب الموبقات ، أو اتّجر بالمخدرات ، ما دامت القوة عدته والزعيم يحميه ، فواخيبة أمّة يتسلسل فيها الفساد لا متحدراً من علُ بل صاعداً من أسفل . ويا مصرع القيم تصدر عن الغوغاء حاملة مع نتن الشارع ، ضراوة الشارع ، وجهله وعنفه ورذائله الأخر كل ذلك ابتغاء السلطان . وقد يتحدّر الجهل من علُ اذا هزل الزمن فدخل مجلس الأمة مثلاً فظ غليظ تلاقت عليه غباوة البدائيين ووقاحة المهربين وصفاقة التماسيح مع البطر والأشر والادعاء الذي لا ينقضي .

فقال عباس : لابأس بالقوة لوهبّت ريحها من غير هذا المستنقع فالمرء مفطور على طلبها . أرأيت ذاك الطفل في الزواية يحاول تسلّق الكرسي باكياً ليرتع في حضن أمه ؟ إنه ليحاول ان يفرض عليها سلطانه . وكل الورى يبتغي السلطان ، فأرباب الفن ينشدونه من سبيل الإبداع ، والموسرون يستقوون بمالهم ، والمطرب يعتز بصوته ، والراقصة بلين مفاصلها وتأثيرها الجنسي في الجمهور ، والمصارع ينشد القوة في صلابة عضله ، والمتكبر يحسّها

في كبريائه والمختال الفارغ في اختياله. فقلت : ياعباس ما الفارق بين المتكبر والمختال الفارغ وكنت أحسبهما مترادفين .

فقال :المتكبر يقايس بين ذاته والآخرين ، كأن يحدّث نفسه مثلاً فيقول: بيتي أجمل من بيت فلان ، وأملاكي أوفر من أملاكه . وأنا اكثر نفوذاً . وأعز نفراً ، وأوسع بسطة عيش . ولئن كان فلان الآخر أغزر مني علماً وأرسخ في صعيد الفن قدماً ، فلقد كان جدي أغنى من جده ، وزوجتي أوسم من زوجته وحماتي أعف من حماته . وقد تكون المزعومة عفيفة عجوزاً ران الشيب على ماضيها فأخفى غلمتها ، ولو عرفها الصهر شابة لأدرك ان كل عرق في جسدها كان فوّارة للفجور . ذلك وأشباهه من ابواب المفاضلة التي تعتمد في الغالب سخف الرأي ، وضآلة الشأن ، وهذه الفئة من الحمقى يسمى واحدها بالفرنسية (Orgueilleux) .

أما المختال الفارغ فهو المزهوّ بنفسه ، يهمُّه رأي الناس فيه لا رأيه بذاته فلئن ابتنى بيتاً صرف وكده الى ما يبديه الناس من إعجاب أو إزراء بشأنه ، وكذلك القول في سيارة يشتريها . فاذا استولى الفراغ على امرأة كان أشدّ وأدهى . وإنّ سواد النساء يقفن حياتهن على آراء الناس ، سواء أتحلّينَ بالجواهر أم ابتعنَ معطفاً ، أم أولمنَ وليمة ، الى ما لا يحصى من مظاهر الفراغ الذي يسمونه بالفرنسية Vanité .

ألقاب مزيفة

وسمعنا في هذه اللحظة وقع أقدام وعبارات ترحيب وتهليل للبطل ، فسألنا من أي نوع بطولته ، فقيل هو بطل كرة القدم الظافر في المباراة

الدولية التي أُقيمت في سويسرة ، فهزّ عباس رأسه وتأفّف ، فقلت ما بك يا عباس ، فقال : أراني غريباً عن هذا المجتمع . فالبطولة كلمة كبيرة ولقد فقدت معناها في عصر الناس هذا ، فثمة بطولة القفز والركض ، واللكم ، والتزلج ، والتسلق والسباحة والرقص ، وتحطيم الأضلاع ، وتمزيق الأشداق واقتلاع شعر الرأس والركل في المصارعة الحرة ومن هذا القبيل بطولة الأكل كأن يلتهم البطل عشر دجاجات وستين تفاحة في اليوم الواحد ، وبطولة التدخين اذا نيّف على المئة سيكارة وما شاكل ذلك من المضحكات . أما أبطال السينما فيدعونهم النجوم . وقد يصبح نجماً كل ممثل يشخّص المجون واللصوصية والسطو على الاعراض ، قسراً او احتيالاً او إغواءً . وربما تسمى نجمة أنثى قذرة النفس تقاذفتها أقدام الداعرين ، فتلقفتها أيدي القوّادين ، ورفعتها الى المسرح فاستمطرت أصحاب الملايين فأمطروها غيثاً موصولاً. ولقد أتانا النعت بالنجمة من الغرب وربما كان من صادرات هوليود . ويا طالما اتّهمنا الغربيون بالكذب ، إذ نشبّه الجميلات بالشمس والقمر ، فماذا نقول فيهم وقد شبّهوا بالنجوم رعاة البقر ، وسُرّاق المصارف ، وكل من هزّت خصراً ، أو عرّت ساقاً وصدراً ، وبدّلت الأزواج تبعاً للفصول والمزاج .

وفي جملة الالفاظ التي ابتذلت فاستعملت نعوتاً في غير مواضعها قولهم : الاستاذ والشاعر والعبقري والقديس .

فقلت انك تبالغ. فانتفض وقال،مهلاً سأضع الامور في مواضعها وأفصّل الحديث إن كان لك جلَدٌ على الإصغاء.

أما لفظة أستاذ فلقد ابتذلت في لبنان حتى تقمّصها أو نُعِت بها كلّ ذي حرفة ، حاشا العتّالين والكنّاسين ، ولم يُستثنَ منها ماسح الاحذية ، ويطلقونها غالباً على الطباخين باعتبارها مماثلة لكلمة (أوسطه) ، وعلى سائقي السيارات أيضاً . ولقد أصبح الاساتذة الخليقون بهذا اللقب كالمحامين والقضاة والمجازين في الادب والفلسفة ونظرائهم ، يؤثرون ان يخاطبوا باسمائهم

المجردة . وفي ذات يوم دخل عليّ أُحد اصحابي فقال مازحـاً : يا خواجا صباح الخير . فقلت اني زاهد بكل الالقاب ، ولا سيما بهذا اللقب التركي ، ومعناه معلّم في أحد الكتاتيب ، غير اني أوثره على لفظة أستاذ ، وكذلك القول في لفظة (شاعر) ولو أطلقها الناس على كل من ألّف كلاماً موزوناً مقفّى كأصحاب الاراجيز من مثل قول القائل :

ويمنع المرء من الميراث   واحدة من علل ثلاث

أو الناظم القائل :

كأننا والماء من حولنا   قوم جلوس حولهم ماء

ولو نعتوا بها امثال هؤلاء لَخَفَّت الرزية ولكنهم يطلقونها على مثـل هذا الذي يقول :

ردوا عـليّ يا ولادي   بـدي غـني قرادي
تعذبت تعذبت كثير   مـا بقى لي جلادي

وانك لتجد من نظراء هـذا السخيف عشرات الالوف عندنا في لبنان وسواه من الاقاليم اللاهجة بالضاد. ولا نكير ان ثمة فئة من الزاجلين اللبنانيين قد تبوأت من الفن مرتبة جليلة ، ولقد توّفر بعضهم على المطالعة فأخذوا من المعرفة بقسط غـير يسير ، وانهم في بعض نواحي التعبير الجمالي قـد ضارعوا كبار شعراء الفصحى ، ولكن اطلاق نعت الشاعر ، على أي زَاجل كذبٌ جرّد اللفظة من قيمتها. وقد قال لي احد اصحابي الظرفاء ، مرة ، عجباً لكم ايها اللبنانيون فان الشعراء الكبار عندكم وفي سائر الاقطار العربية لا يجاوز عددهم عدد اصابع اليدين ، وكذلك القول في عدد شعراء اوربا الكبار امثال غوته وشكسبير وراسين وكورني وهيغو ، وقدامى الملهمين العرب من امثال المتنبي والبحتري وأبي نواس وبشار ومن كان في طبقتهم . وعندكم في لبنان جيش عرمرم يدّعون الشعر وسوادهم أميون او انصاف أميـين ، اذاً لقد

تدنّت القيم الحضارية في بــلدكم حتى ليستوي في نظر العامة الدعيُّ المهذار والشاعر الذي تزدان به العصور حياً وميتــاً . فقلت لصاحبي الظريف هوّن عليك فجيش الأدعياء الى زوال وتسلم العمالقــة . ثم ان قانون العقوبات عندنا لا يطول المتشاعرين ولا السخفــاء الذين يولّـون انفسهم الإمارات والمشيخات ويحملون غلمان الصحافة على نعتهم بنعوت يبتدعونهـــا ثم تجري على الالسنة والاقلام بحكم الاستمرار .

فقلت يا عباس ما دمنا في صدد الشعر ، فمن هم الشعراء القمم الأحياء في لبنان وسواه من الامصار اللاهجة بالضاد ؟ ما هي طبقاتهم ؟ ومن هو أحب اليك منهم ؟ وما أراك الا عادلاً في حكمك هذا .

فانتفض عباس انتفاضة المذعور ، وتغضّن جبينه ، وصاح بي الا اسكت يا بهزاد ! فلئن كنت جارحاً في النقد فلست بالمغرور الذي ينصب نفسه وليّاً على الأدباء ، ولا بالصفيق الوجه الذي يلقي الكلام بلا روية ، ولا بالنكرة الذي يبتغي الشهرة من هذا الوجه. فلقد اتفق لي ان لمحت على شاشة التلفزيون بعض النكرات الذين يدفعون الناس بالمناكب ، او يزحمهم النــاس بالأقدام ، يتسابقون للظهور في موكب عرس ، او مــأتم او استقبال زعيم ، فــلا يبقى لهم بعد رحيلهم عن الدنيا الا الرسوم . بــلى لقد شهدت نفراً من هـــؤلاء الأغفال يفاضلون بين الأدباء فيصنـّفونهم درجات، ميلاً مع الهوى، او انقياداً لغباوة او قياماً بدعاوة ، ولا غروى فالعصر عصر الاعلان، ولا سيما الاعلان عن البضاعة الكاسدة ، ومتى رأيت الربيع يعلن عن مفاتنه ، والشمس عن ضيائها ..

فقلت يا عباس هل لك ان تعرّفنا بالشعر والشاعر تعريفاً جامعاً مانعاً على وجه عام ، ثم تحدثنا بالشعر الملحمي بخاصة ـ لما أعلم من معرفتك الواسعة في هذا الشأن ـ وبالشعر ذي النفس الملحمي .

الشعر الملحمي

قال عباس إذاً لا بدّ لي من اعتماد صاحب ملحمة عيد الرياض فأنقل اليك رأيه كاملاً. أما في تحديد الشعر والشاعر فقلد اورد في الملحمة ما هذا نصه :

قال يا صاحِ إنما الشعرُ لحنٌ عبقريٌّ من عالَم الغيب آتِ
عـالمٌ في غياهب النفس محجوبٌ ، عميق الأصداء والخلجات
كشعور الانسان بالكائن الأسمى ، يراهُ الفؤادُ في وَمَضات
فلذا كان في التدَيُّن شعرٌ ولذا الشعرُ كان في الصلوات
يتعالى عن طبعنا وَهْوَ منّا كعُلُوٍّ الشذا عن الوردات
جذعُها في الثرى وتنهلُ منه وهو غير الأريج في النفحات
ليس شعراً صقلُ الكلام خليّاً من حياةٍ فالشعر شدوُ الحياة
حين تبكي وحين تفرح او تشكو ، ويعـلو الشاكي عن التُرّهات
ليس شعراً وصفُ التعهُّر والفحْش ، وَسرْدُ المحـاذر القَذِرات
وهوَانُ الرجال هَوْنَ عبيدٍ تتقفّى الأنثى او الشهوات
ليس شعراً ما كان خِلْواً من الفكر ، خُلوَّ القفـار من واحات
ليس شعراً ما كان لغزاً عصِيّ الفهم ، جَمّ الوعور والعـتمات
ذاك شأن الضعيف يتّشحُ الليـل ، فيبغي ترساً من الظلمات

* * *

إنمـا الشاعر المجنّحُ مجدٌ وضياءٌ للأزْمُن العكِرات
لا يرى في النجوم إلا رفاقاً مثله في الهوى وبثّ الشكاة
وحساناً من كلّ زيفٍ تعرّت لِلقاءَ الكواكب الراقصات
فيجوب الخيالُ ألفَ سناءٍ ويرود اليراع ألفَ دواة

إنما الشاعر العميق نبيٌّ سابرٌ للقلوب والمهجات
كم بهِ عاشتِ الكبارُ ، ولولاه لظلّوا الأعلامَ في النكرات
مجدُ (حمدانَ) شادَه المتنبي بقوافٍ من السنا حاليات
كم هوتْ غير (سيف دولته) الفرد سيوفٌ عظيمة الدولات
البناء الجبّار ما شادَهُ الشعر ، فخير الأقلام خير البُناة
بادَ عزُّ الرشيد واندرَسَ القصر ، وعاش الرشيد في أبيات
ذاك أن الصخور تحيا لوقتٍ ويعيش القريض للأوقات
وحدَهُ الشعرُ خلّد الحسن والحبَّ ، وأعطى الحياة للأموات
إنَّ تلك الأقلام وهي قِصارٌ أين منها الرماح مشتجرات
ولئن دلَّ فارس بقناة قال فذُّ القريض هذي قناتي
فإذا مُتُّ فهي للخلدِ إرثٌ ليس منّي للأرض إلا رفاتي
أنا صِنْوُ الشلاّل في دولة الفيض ، ورجع الهدير والصيحات
مثلُهُ رفعةً ودفقَ سخاءٍ وبشيراً باليُمْنِ والبركات
مثل ينبوعه نقاوةَ كفٍّ نزِهاً عن مكاسب وسخات
ما رأتني الجوزاء في موقف الذلّ طريحاً ومَوْطِنِ الشُبُهات
أو تخلّى عن الإباء يراعي فتردّى في معرض الصدقات
عوّدتني من التبذّل نفسي وانتحَتْ بي مَراتبَ المكرمات
سرتُ في زحمة الحياة وحيداً وأضلّ المستكبرين أناتي
سوف يمضون في الزمان رماداً ويعيش الزمان في نبراتي
وتعود العصور تسأل عني كاسرات الجفون معتذرات

اما الشعر الملحمي فأبرز خصائصه ، ان يكون مداره الأحداث الجسام والبطولات الخوارق ، أو ما جرى مجراها . وليس من جوهره ابتداع الأساطير كما فعل هوميروس وفرجيل ودانتي ، فمناخ القرن العشرين لا يستطيب الخرافة ومما أورده أعلام الفرنجة في تعريف الملحمة قولهم : إنها قصيدة

طويلة النفس موضوعها البطولة . وهي أضخم نتاج يقدم عليه عقل بشري ، وأكبر مظهر من مظاهر الشعر ، قوامها السرد . ولا بد لمؤلفها أن يكون متأثراً بالشعور الذي يخلعه على أبطاله .

ولقد حاول بعضهم في الآونة الأخيرة استخراج الملاحـــم من التاريخ ، فوضعوا مخطط البناء فعل المهندس المعماري في خريطة الإنشاء، ثم تخيّروا من زوايا الشرق العربي أركاناً غلباً عرابا فأبرزوا محاسنهم صادقـين ، في شعر متين ، بيد أنهم لم يجاوزوا أمانة الكاتب العدل في تدوين الواقعات ، ولقد أعوزهم العنصر الأهم ، وهو انفعالهم بالشعور الذي يخلعونه على أبطالهم .

ومن محاسن الأدب ان يكون واضحاً ، ولكن الافراط في الوضوح يزري به وبالقارىء جميعاً ، فلا عتمة الليل ، ولا إشراق الظهيرة ، ففي كليهما تعب للأبصار ، وأجمل منهما وشاح الصبح الرمادي .

ولئن صحت الرقة في الغزل فإنها في الشعر الملحمي لا تغني من القوة شيئاً فهو لا ينهض إلا بها . وعندي ان الملحمة تكتمل في صدر صاحبها قبل ان تمسي كلماً مسطوراً ، فان الشاعر الذي لا يهدر صدره بالمروءات ، ولا تهتز جوانحه للنخوة والمكارم ، ولايصك سمعه صهيل الخيول فيعايش الوقائع ، بل يقتصر على السرد وجمع الوثائق يخلق به ان يعمد الى غير هـذا الضرب من الأدب .

ويجدر بي التنبيه الى الفارق الكبير بين الشعر الغنائي الذي يقتضي الحُسن والملحمي الذي يقتضي الروعة ، فالاول مثله في الادب مثل الزهر الذي أُلـِّفَ طرائِقَ بهيجة على أبواب القصور ، ومثل الثاني غابة ماردة الادواح يضطرب فيها الريحان والعوسج والحبائك التي تُعَرّشُ على الجذوع وتمدالظلال على الثرى .

ولقد تساءل الناس غير مرة ، أكان للعرب ملاحم في سالف الزمان ؟ أما أنا فلقد أجبت بالنفي القاطع مطمئن الوجدان والإدراك . ولقد حاول

بعضهم إقحام أصحاب المعلقات ، وعلى رأسهم عنترة العبسي بـــين شعراء الملاحم . وفي هذا الرأي مغالاة لا مسوّغ لها . وأصَحُّ القول في أصحاب المعلقـــات وشعراء العرب الفرسان أن نفحتهم الشعرية تنطوي على النفس الملحمي . ولا غرو فلقد كانت البسالة ، والغزوات الموصولة والذياد عن الاموال والاعراض ، وحميّة الجاهلية الاولى ، والمفاخرة بالأنساب ، والتعبير عن ذلك كله بالشعر ، من العناصر الجوهرية في كيانهم لا دخيلة ولا مضافة .

ومن أبرز خصائص الشاعر الملحمي أن يكون واسع الاطلاع ، محيطاً بالقضايا الفكرية قديمها وحديثها ، خصيباً بعيد المجال يتفجرّ الشعر بين يديه كالينبوع الهدار ، فلا ينحت من صخر ولو كان رخاماً . ويحسن به ان يُعنى بالانسان بما هو به إنسان من خـــلال سرد الوقائع ، وان يكون رصيناً فلا يتخنث . وليس أدلّ على ذلك من المتنبي ، فلقد كان ذا نفس ملحمي وان لم يقدم على ملحمة . أما الذين عهّروا أجسادهم وانصرفوا الى المجون والغلمانيات فلقد كانوا ، على شاعريتهم المرهفة ، أبعد الناس عن هذا اللون . مثال ذلك ابو نواس ووالبة بن الحباب وحمّاد عجرد وديك الجن الحمصي الى آخر الباب من قدامى ومعاصرين ، فاذا نظرنا الى هذه الخصائص التي يجب ان تتوفر للشاعر الملحمي ، أدركنا السبب في كثرة الشعراء وقلة الملاحم ، فالشعراء ، من فجر التاريخ الى يوم الناس هذا ، يُعدُّون بالالوف منتشرين بين مشرق الشمس ومغربانها ، اما الملاحم فتكاد لا تجاوز مرتين عدد أصابع اليدين .

وبحسبك دليلاً على ذلك ان فرنسا الـــتي استوت على عرش الفكر ، في عصور متطاولة ، لم تخرج على هذا الصعيد سوى انشودة (رولان) ، وهي انشودة لا ملحمة ، وان ڤولتير أخفــق في محاولته الملحمية (الهنرياد)، ولم يسلم سوى هيغو في أسطورة الدهور . ذلك ان من يقدم على الملحمة يتحتم عليه ان يكون مديــد النفس لا ينبهر في وسط الحلبة ، فمـــا اشبهه بمشيّد الأبراج المنيعـــة تقتضي الصفـّـاح والعمد وقضب الحديد تشد زواياها ، فاذا مرت بها الرياح الزعازع لم تفلّ من صلابتها شيئاً .

ومعلوم ان الانسان انما هو الى الراحة أميل ، عملاً بقانون الجُهد الأقلّ ، وفي ظنــي ان الأدب يوم بلغ الذروة في الاندلس وجزيرة العرب ، راودت فكرة انشاء الملحمة بعض الخواطر المنفتحة ، ولا سيما بعد عبــور الحضارة الاغريقية الى بغداد ، ولكن العزائم قعــدت في اول الطريق ، فاشتكت بُعدَ المفازة ، وقلة الزاد ، وانعدام الواحات الخضر التي تَـقرُّ بها العيون وتنبسط اليها النفوس ، فنكص الخيال وتلهّى بالفخر والهجاء والمدح ، وجنح القلب الى العاطفة التي ترافق الرضيع من يوم استقباله الدنيــا الى يوم وداعها محتضراً .

ولقد بلغ الشعر العاطفي بالامس حد الميوعة، وما برح في امتداد مُنْحَدِر يبلغ الهذيان ، في هذه الحقبــة من الزمن، ولئن قام عــذر للمدلَّهين الغابرين أمثال كثيِّر عزة، والعهد يومئذ عهد النظرة العجلى والحديث الخاطف ، فأي حرمان يعانيه شبابنا الباكي او المتباكي والطعام فوق الشبع .

واظن ان في اسباب قلة الملاحم اعراض الناس عنها واقبالهم على الغزل ، استغفر الغزل البريء فذاك لا يتذوقه الا المتصوفون او من كان في مرتبتهم تهذيباً ونقاء وجــدان ، فالراية اليوم للادب العــاري ، وسواد الشعراء اختصاصيون في تشريح الجنس ، وانما الفارق بين شعرهم وبين التعابير الفاحشة التي يألفها رَوّاد الحانات والقاعات الحمر، هو مثل الفارق بين الفصحى والعامية الأول فحش موزون والثاني بلا وزن ولا قافية .

اما الملحمةفلا تقتصر على سرد الوقائع ، فذاك شأن الحكايــة ، او القصة السطحية ، إنّ الملحمة لَمِرآة العصر بما ينطوي عليه من حكمة وفلسفة وعلم نفس ، وتوجيه اخلاقي ، ومظهر ايماني وما يتصل بذلك . الا ترى ان إلياذة هوميروس هي اصدق مرآة للشعب الاغريقي الوثــني الذي تعددت آلهته ، فراح صاحب الالياذة يُنطق سيد الآلهة جوبيتر على هواه ويستنزل سواه من الآلهة الى الوقيعة ، فيُسخّر واحداً لإثارة البحر ، ويجعــل من الآخر حدّاداً

يصوغ ترساً لآخيل فيرسم عليه خريطة الارض والفلك، ويكلّف إلاهة الحب ان تتراءى لهكتور وتخدعه . كل ذلك ليشيع الحركة الدائمة والحياة في الملحمة . اما السرد وحده فيدنيها من مرتبة القصص الذي به يتكسّب القصّاصون في المقاهي الوضيعة ، وقد تحلقت من حولهم الغوغاء في الليالي القارّة . ويطلق على الحكّاء لقب (الحكواتي) تحقيراً او تهويناً لشأنه.

وأرجّح انه سيأتي على سواد القراء او خيارهم على الاقل يومٌ ينصرفون فيه عن الرومنطيقية الباكية الى الملاحم التي تقتضيهم بعض الجهد والجلد ولكنهم يخرجون منها غير جياع ولا متفجعين .

فقلت بورك فيك يا عباس ، فهل لك بعد هذا الايضاح أن تدلّنا على نماذج من الشعر المنطوي على النفس الملحمي أولاً ثم على الملحمي نفسه بعدئذ . فقال حباً وكرامة فاليك من الأول ذي الديباجة الملحمية مقاطع من قصيدة صاحب الملحمة وعنوانها (صيدون) .

صيدونُ حاضرةَ الدنيا ومَنْبتَها ... حرفاً ، ومَشرقَها فُلْكاً وتمدينا
لولاكِ ما نهضت (رُوما) برائعةٍ ... ولا أضاءت سبيل الفكر (آثينا)
عن مجدك الضخم حين البرُّ ضاقَ مدى ... عَبرَ الزواخر فيَّحْتِ الميادينا
يوم الاحاديث عن أغوارها صُوَرٌ ... تستنبتُ الجنّ أو تأوي الشياطينا
قُدْنا مَجاذِيفنا تفري غوارِبَها ... نطوي مَجاهيلها آناً وتطوينا
قَسْراً تَنَحّت لنا حِيتانُها وَجرتْ ... هُوْج الرياح بما شاءت جوارينا
حتى رَكَزْنَا على أَثباجها علماً ... وفي نهاياتها رَفّتْ سوارينا
حتى غدا (مَرْمَرا) حوضاً لِسابحنا ... و (الأرخبيل) شَتِيتاً من ضواحينا
مجدٌ للبنان أنّ الفُلك ما نَشرتْ ... شِراعها البكر إلاّ في شواطينا
من مطلع النور سيّرنا السفين وفي ... مَغارب النور ألقينا مَراسينا
بكلّ أرضٍ لنا صرحٌ وكوكبةٌ ... وكلّ يمّ لنا في ثغره مينا

في مفرقِ الغرب (قرطاجا) منارَ هُدىً ... شدْنا وفي جبهة الشرقين صيدونا
إن فاخرتْ أمّةٌ في الشرق سائره ... بمجد لبنان رجّحنا الموازينا
شيخُ الجبال وجارُ النيّرات ذُرًى ... وأنبلُ الشامخات البيض عِرنينا
توسّدَتْ راحةَ الباري ذؤابتُه ... فكان قبل انطلاق الوحي من سينا
مُجسنه وشتّ الأسفارَ مُنشِدُها ... بأرزه رصّع القدسَ النبيّونا
تفتّحَ الحسن روضاً في سواحلنا ... تألّق الحُلمُ زهراً في روابينا
ما ضرّنا والعُلى رهنٌ بمرقمنا ... أنا عن الطعن أكرمنا عوالينا
خير المغانم فتحٌ للنهى عجب ... وأنبلُ الغزو غارات المربّينا
لعزّة الضاد غُرٌّ من أواخرنا ... وللحضارات صيدٌ من أوالينا
حلّتْ بنا اللغة الفصحى وقد نزلت ... خيرَ الحماة وأعلاهم أساطينا
من المساجد أوفدنا مشايخها ... من الصوامع أبرزنا الرهابينا
كأنّ في متنها قسَّ بنَ ساعدةٍ ... من دير نجران يستهوي المطارينا
مصونةَ الذيل حاطتها معاجمُنا ... زكيّة العرف بثّتها قوافينا
روائعاً كالنجوم الزُهر دانيةً ... لمهتدين وإغراءً لغاوينا
ما رجّعتْ دوحةٌ للفن عندلةً ... فصفّقَ الروض او مالت أفانينا
إلاّ تركنا مع الأنسام هينمةً ... منّا وفي الغصن ريشاً من خوافينا
ولا تدلّهتِ السُمّار من طرب ... إلا وفي الصوت لحنٌ من أغانينا

* * *

ومن هذا القبيل ، أي الشعر العابق بالنفس الملحمي ، قصيدة أحمد شوقي في انتصار الأتراك ، مخاطباً الغازي مصطفى كمال باشا :

ومنها :

الله أكبر كم في الفتح من عجب ... يا خالدَ الترك جدّدْ خالد العرب
صلحٌ عزيز على حرب مُظفّرةٍ ... فالسيف في غمده والحقّ في النُصُب

يا حُسنَ أمنيّة في السيف ما كَذَبتْ وطيب أمنيّةٍ في الرأي لم تخب

خُطاك في الحق كانت كلّها كرَماً وأنت أكرم في حقن الدم السَرِب

حَذَوتَ حربَ (الصلاحيّين) في زمن فيه القتال بلا شرع ولا أدب

لم يأت سيفك فحشاءً ولا هَتكتْ قناك من حرمة الرهبان والصُلُب

سُئِلْتَ سلماً على نصر فجدتَ بها ولو سُئِلتَ بغير النصر لم تُجب

مشيئةٌ قبلتها الخيلُ عاتبةً وأذعَن السيف مطويّاً على غضب

أتيت ما يشبه التقوى وإن خُلِقتْ سيوف قومك لا ترتاح للقُرَب

ولا أزيدك بالإسلام معرفةً كل المروءة في الإسلام والحسب

ومنها :

تلمّسَ الترك أسباباً فما وجدوا كالسيف من سُلّم للعز أو سبب

خاضوا العوانَ رجاءً أن تُبلّغَهم عبرَ النجاة فكانت صخرة العطب

سفينة الله لم تُقهر على دُسُر (١) في العاصفات ولم تُغلَب على خُشُب

قد أمّنَ الله مجراها وأبدلها بحسن عاقبةٍ من سوء مُنقلب

ومنها :

لمّا صدَعتَ جناحيهم وقلبهُم طاروا بأجنحة شتى من الرعُب

جدّ الفرار فألقى كلُّ معتقلٍ قناتَه وتخلّى كلُّ محتقب

يا حُسنَ ما انسحبوا في منطق عجبٍ تدعى الهزيمة فيه حُسنَ منسَحب

لم يَدرِ قائدهم لما أحطت به هبطتَ من صَعَدٍ أم جئت من صبب

أخذَته وهو في تدبير خطته فلم تتمّ وكانت خطة الهرَب

تلك الفراسخ من سهلٍ ومن جبل قرّبتَ ما كان منها غير مقترب

خيل الرسول من الفولاذ معدنها وسائر الخيل من لحم ومن عصب

---

(١) دُسُر جمع دِسار وهو المسمار أو الخيط من ليف تشدّ به ألواح السفينة .

أفي ليالٍ تجوب الراسيات بهــا   وتقطع الأرض من قطب الى قُطب

ومن مثل هذا النفس القصيدة التي رفعها صاحب ملحمة عيد الرياض الى جلالة الملك فيصل في مدينة الرياض في العشرين من تشرين الثاني سنة ١٩٦٥ ومنها :

خلّفتُ لبنان في دربي الى الشُهُب   فما تغرّب وجــداني ولا أدبي
جئتُ الرياض فهزّتني مَفَاخِرها   وجَلْجَلَتْ عظماتُ الأمس تهتف بي
تقول : مجدُ أبي تركي وسدّتُهُ   يحميها في الرزايا فيصــل العرب
القائد الخيل في (أبْها) مُسوّمة   مختالةَ الهامِ والأعراف والعُسب [1]
نجديّةً من جياد (الَخرْج) ضامرةً   حُمرَ السنابك من خوض الدم السرِب [2]
في (بيشةالنخل) ماألْقَتْ حوافرها   إلاّ على ضَرَمٍ أو أحمرٍ لَزِب [3]
القائد الفذّ يُذكيهــا فيُرسِلُها   شُعثاً عوابس بين النقع واللهَب
بَنَانُه الغَضّ يُرخي من أعِنّتِهــا   كرّاً فلم تنعطف يوماً إلى هَرَب
يَغْشى الوقيعة نسراً في قوادمه   من حدّة البأس أو من سَوْرَةِ الطرب
لا غروَ أن يَرِدَ الهيجاء منشرحاً   نسرٌ بوكر أبي تركي العظيم ربي
وذاك أنك لم تنشأ على تَرفٍ   مُشتّت البال بين الرغد واللعب
بل فارساً عرف الميدانُ صولتــه   وفيصلاً بين غاب السمر والقُضُب
في معمعان الوغى رَبّى بَسالَتَهُ   لا في الصحائف والأنباء والكُتُب
أنت الذي يستطيع القول هاءنذا   وقد بلغتُ السُهى عزّاً وكان أبي

• • •

---

(١) أبها : قاعدة عسير .
(٢) الخرج ؛ مكان في نجد اشتهر بتربية الخيول العراب .
(٣) بيشة النخل : اسم مكان .

يا يومَ (نَجْرانَ) والأبطالُ ساهمةٌ ... وقلبكَ الليثُ لم يدهش ولمْ يَجِبِ[1]
وجيشُ (يحيَ) سِباعُ (التُركِ) قادَتُه ... يطغى وينذر بالدهياء والعَطَبِ[2]
أرض (الحُدَيْدة) مَادت من عَتادِهم ... وشمسُها لألأتْ في البَيْضِ واليلَبِ[3]
فيمَ العتادُ وما يجدي وقد بَرزتْ ... أبطال نجد كُماةُ الحرب والرهب
لا مثلُ قلبك في جمع القلوب ولا ... عديلُ جيشك في الإقدام والغلب
قلُّوا عديداً، وجلُّوا همّةً ومضوا ... كالنار تُمعن في هَشٍّ من الحطب
سائِلْ (تُهامةَ) بالأبطال هادرةً ... وَساحِلَ الأحمر الهدّار ذي العُبب
كيف استفاقت على الهيجى جوانِبُه ... فالشَطُّ في جَلَبٍ واليمُّ في صَخب
النصرُ هَاج كمينَ البحر فانطلقت ... أثباجُه هِضَباً يبزغن من هِضب
وهلَّلَتْ (يَمَنٌ) من بعد (حَرملةٍ) ... للفيصل الوائليِّ السيف والحسب[4]

* * *

يا صاحب التاج أولاكَ الإله سنىً ... فازددتَ شأواً على آبائك النُجُب
أبوك غُرَّةُ هـذا العصر مرتبةً ... وزين أبطـاله في المشرق العربي
لولاهُ مـا بزغت في نجـد مملكـةٌ ... ولا توَحّد قطرٌ جدُّ مُنشعب
حُسامه ألَّف الأعضاء في جَسدٍ ... لم يستفق مــرّة إلا على شغب
أجلى الطواغيت عن نجد وَصَدَّهُمُ ... بكلِّ زندٍ مرير الفتل والعصب
وكلِّ سابحةٍ جرداء صافنــةٍ ... وكلِّ ملتهب الحدّين ذي شُطب

* * *

---

(١) ولم يجب : اي لم يخفق القلب جزعاً .
(٢) كان الترك قادة جيش الإمام يحي .
(٣) الحديدة : حاضرة على ساحل البحر الأحمر .
(٤) حرملة : اسم بلد في عسير .

ومنها :

يا فيصل الحرمين الأشرفين وما من رتبة فوق ذاك التاج واللقب
في ظلّ بيتكُم اعتزّ الحجاز وقد باتت قرابينكم قدسيّة القرب
عن الحجاز قبسنا الضاد حاليةً إلى قريش سمت في الحسن والنسب
تبارك الله مـــا أسمى عجائبهُ في مهبط الذكر شعّت دولة الأدب
حسبُ الحجاز فخاراً أنه بـلدٌ أهدى الى الكون طه كوكب العرب

* * *

ومنها :

آمنت بالشعر علويّ المدى شمماً يختـار زُهْرَ قوافيه من الشهب
آثرته ملحميّ السبك لا غنجـاً مهلهـلا دَنِسَ الديبـاج والأرب
عيدُ الرياض سبقت الأولين بهـا فمن أتى لاحقاً يجري على عقبي
سيهرمُ العصر بعد العصر منصرماً وهْيَ الفتيّة لم تكـهل ولم تشب
إن الملاحم لم تبرح مَناط يدي فكلّما انتسبَتْ فاءَتْ الى نسبي

* * *

يا صاحب التاج ، اني جئت من جبلٍ بالأفق مكتحلٍ بالنور معتصب
تفتّح الأرز وافـترّت ذوائبـه لمّا تفلّتَ من أغـلال مُنتَدَب
فبيضُ أطواده في الصبح ضاحيةً جزائر العاج في بحر من الذهب
لبنان للضيف سهلٌ أفيحٌ وأخٌ للعُرب عند حُلول الخانق الحَزِب
شعاره الحب إيمانـــاً ومعرفةً وأصدق الودّ ودٌّ غير مُجتلَب
إذ يقرأ الشيخ في الإنجيل مُبتهجـاً وينعم الحبرُ في قرآنـه الذهبي

ويدخل في صميم الشعر الملحمي مقدار غير يسير من شعر ابي الطيب المتنبي

مثال ذلك قصيدته التي يخاطب فيها سيف الدولة ويذكر بناءه ثغر الحدث ومنها :

هل الحدثُ الحمراء تعرف لونها وتعرف أيّ الساقيين الغمائم
سقتها الغمام الغرّ قبل نزوله فلما دنا منها سقتها الجماجم
بناها فأعلى والقنا يقرع القنا وموج المنايا حولها متلاطم
وكان بها مثل الجنون فأصبحت ومن جُثث القتلى عليها تمائم
طريدة دهر ساقها فرددتها على الدين بالخطيّ والدهر راغم

ومنها :

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمةً ووجهك وضاحٌ وثغرك باسم
تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى الى قول قوم أنت بالغيب عالم
ضممت جناحيهم على القلب ضمّةً تموت الخوافي تحتها والقوادم
بضرب أتى الهامات والنصر غائب وصار الى اللبّات والنصر قادم
حقرت الردينيات حتى طرحتها وحتى كأنّ السيف للرمح شاتم

الى آخر هذه القصيدة الملحمية الرائعة .

وفي صميم الشعر الملحمي أيضاً ، لصاحب العيدين الغدير والرياض ، قصيدة عنوانها (عليٌّ) لم تنشر بعد ومنها :

سيّدُ البيض والرماح اللهاذم فوق هام الأيام سيفك قائم
كلّما الشمس لوّحت لبزوغ شعّ فيها من مجدك المتراكم
مثلها ذو الفقار جلّ سناءً عن عديلٍ ، وعزّةً عن مُزاحم[1]

---

(١) ذو الفقار : سيف النبي دفعه الى علي في غزوة الخندق فقتل به عمرو بن ود العامري . وفيه قيل : لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي .

عُلّق النصر في حمائله الحمر ، وهبّت من الفرند الملاحم
رَبُّه آدمُ الفوارس في الكَرّ ، وذاك الحسامُ ربُّ الصوارم
فيصلُ الحقّ حدُّه في المواضي بين خير بانٍ وجَور هادم
في الطواغيت ما نجا منه إلاّ من لهُ الله من عليٍّ عاصم
سَلْ به خيبراً ، وقد عصف الموت فجفّتْ من الزفير البلاعم [1]
كيف دكّ الحصنَ العصيَّ بزَندٍ فيه من عزمة الصخور الصّلادم
سَلْ بذاك البتّار عمرو بن وِدٍّ عاتياً أكثر البكى والأيائم
بِصَدى صوته يروعُ الضواري فيدوس العرينَ والليثُ آجم
يا لَها ضربةً أَطاحَتْ مريداً فهوى الطودُ قانِيَ الرأس راغم
فروتها الأجيال مدّ صليلٍ وعصوفاً هَدّارةً وزمازم

* * *

سَلْ (حُنَيناً) يوم الصناديدُ وَلَّتْ والمنايا على الرؤوس حوائم [2]
إذ تنادَتْ (هَوازِنٌ) و (ثقيفٌ) لِوَطيسٍ تُشدُّ فيه الحيازم
فرعيلٌ يكرُّ خلفَ رعيلٍ في عجاج كلُجّة الليل قاتم
أجفلَ القاعُ من رُغاء الهوادي واشتباك القنا ، ورجع الحَماحم
فتَهاوتْ من الزئير الأعالي وتشظّتْ من الصهيل الشكائم
في ضمير التنزيلِ غارةُ وادي الرمل ، والخيلُ كالرجال سَوَاهِم [3]

---

(١) وفي غزوة خيبر سقط الترس من يد علي فتترّس بباب الحصن وضرب بطل اليهود (مرحب) بذي الفقار فتترس (مرحب) فوقع السيف على الترس فقده وشق المغفر والحجر الذي تحته والعمامتين وفلق هامته حتى أخذ في الأضراس .

(٢) وفي حنين انهزم المسلمون في اول الوقيعة ولم يبق حول النبي سوى علي وحفنة من بني هاشم .

(٣) وفي غزوة وادي الرمل نزلت سورة العاديات وهي « والعاديات ضبحاً » والضبح هو صوت أجوافها عند الركض « فالموريات قدحاً » لأن حوافرها تقدح في الأرض ذات الحجارة .

المغــيراتُ موريــاتٍ زنــاداً عــادياتٍ على الصعيــد الجــاحم
ناصبات الآذان خلفَ عليٍّ قــائداً عزَّ نِدُّهُ في الأوادم
منذُ ما جرَّد الكماةُ جُرازاً والقنــا الهيفُ طوَّقتها المعاصم
منذ ما نصّتِ العِرابُ المطــايا واستحرّتْ سنابــكٌ ومنَاسم
لم يرَ الشرقُ فــارساً كعليٍّ فالمنــايا لذي الفقــار خوادم
طيّبيــهِ بنت النبيِّ بمــاء الورد ، بالآس نافحــاً بالنّياسم
فلــقّ الهامَ يوم بدرٍ وذرّاها ، فخاض الجيادُ عبرَ الجمــاجم
غرّةً كان في مُحجَّلةَ الفتح ، وفي نُصرة النبيِّ الخــاتم
وشجّيهِ بالغار فاطمةُ الزهراء ، بنتَ العُلى وقدسَ الفواطم
ومنَــاطَ السهَا ، وأمَّ شهيد الطفِّ والسُجّدِ الأُباة الأكارم
باسمك الفخم سوف تسمو عروشٌ والحضــاراتُ تزدهي والعواصم

ومن هذا الباب أيضاً قصيدة شاعر الملحمة في (الحسين ثائراً) ولم ترد في (عيد الغدير) .

ومنها :

أيهــا المُطرِقون عند مزاره لا تردّوا العيون عن أنواره
سرّحوهــا بكلِّ أفق بهيج بثَّ فيــه الحسين من أسراره
ظلّل الشرقَ بندُهُ فتآخى دونــه الخيّرون من أحراره
كلّما الجور حاقَهم بظــلام صدعوه بمــارج من شراره
فابن بنت النبيِّ أسنى منارٍ كان دفءُ العراة من وهج ناره
دمُهُ السمح في رؤى كل شهم يشتري بالمنون إكليل غاره
يستحبُّ الكريمُ عيشاً كريمــاً فاذا فاتــه مشى لاختصاره
يردُ المهمهان غير جزوعٍ ويحثّ الشراع في تيّــاره

يا ذبيحاً بكربلاءَ تجلّى المشرق الحرُّ من غروب نهاره

أيقظ الخاملين في كل قطر غاب حقُّ الحياة عن أبصاره

قبَس الضوء عن رسالة جدٍّ شرفُ العُرب أنهم في شعاره

أمّةُ الضاد حسبها في المعالي أن تحلّى بحبكةٍ من دثاره

والذي أيّدَ الجنود ببدرٍ ضمَّ ذا مِرّةٍ إلى أنصاره

والذؤابات من لؤيٍّ وفِهرٍ والسّرايا من يعرُبٍ ونزاره

حسبهم نجدةً وبسطةَ عزٍّ بعليٍّ ليث الوغى ومداره

بكميٍّ نهدِ الترائب عبلٍ حيدرٍ سلهبِ القنا خطّاره

هبَّ نفحُ التنزيل في صدره الواعي ، ومجد الإسلام في بتّاره

كلّما أخلق الزمان جديداً مدَّ في شأو صيته وانتشاره

* * *

يا صريعاً في الطفِّ ، صديانَ كاد النهر يهفو لغوثه في حصاره

عرفَ الماءُ نجلَ فاطمة الزهراء من جمٍّ حسنه ووقاره

عربيٌّ ماءُ الفرات سخيٌّ هالَه أن يرى فجيعة جاره

أن يرى في الحفيد سبعين جرحاً كل جرح يقصُّ من أخباره

راوياً للعصور أنّ حسيناً كان ما شاءه رفيع نجاره

قدوةٌ واستجابةٌ ومضاءٌ تخشع الراسيات قبل انكساره

جلجلَ الحق في مهنّدِه الفرد ، ولاحَ الخلود عبر غراره

شهد الطفُّ كيف يهدرُ ليثٌ صاعقاتُ الرعود في تزآره

ثاكلاً موحداً لهيفاً غريباً بين أشلاء صحبه وصغاره

ذلك النسر ضرّجته العوادي ورماه الباغي بزرق شفاره

ومنها :

يا صراعاً مضّ الحسين فأدمى صدره الحرّ مؤذناً بانفجاره

كان ينجيه أن يفرّ ولكن لمح الموت كلّه في فراره

كان صنو الرئبال في القفص الضنكِ يسلُّ النِبالَ من أظفاره

خاضها وقعةً مع الموت حتى قيل يمشي لحتفه باختياره

فوفى القسط للبطولة والمجد وحقّ الحياة قبل انهياره

ومن الشعر الملحمي (نيرونية) الشاعر خليل مطران

ومنها :

ذلك الشعب الذي آتاه نصراً هو بالسُبَّة من (نيرون) أحرى

أيّ شيء كان نيرون الذي عبدوه ؟ كان فظّ الطبع غِرّا

بارز الصدغين رهلاً بادناً ليس بالأتلع يمشي مُسبطرّا [1]

خائب الهمة خوّار الحشا إن يُواقفْ لحظه باللحظ فرّا [2]

قَزمةً هم نصبوه عالياً وجَثَوا بين يديه فاشمخرّا

ضَخّموه وأطالوا فيئَهُ فترامى يملأ الآفاق مُفجرا

منحوه من قواهم ما به صار طاغوتاً عليهم أو أضرّا

يكثُرُ الإعصار هَدماً وردّى إن يُكاثِرْه وما أوهاه صدرا [3]

مدّ في الآفاق ظلاّ جائلا هو ظلُّ الموت أو أعدى وأضرى

إن رسا في موضع طمّ الأسى أو مضى فاظنُنْ بسيف الله بترا

متلفاً للزرع والضرع معاً تاركاً في إثره المعمور قفرا

إنما يبطشُ ذو الأمر إذا لم يخف بطشَ الألى ولّوه أمرا

---

(١) الأتلع : الطويل العنق والمسبطر من يمشي في اعتزاز .

(٢) الخوّار الحشا هو الجبان الضعيف .

(٣) يكاثر الإعصار : يغلبه في الشدة والقوة .

إلى ان يقول في حريق (روما) :

شبّت النار بها ليلاً وقد | رقدتْ أمتها وَسْنى وسكرى
شعلةٌ من كل صوبٍ نهضت | وَمَشَتْ دَفّاً وإحضاراً وعبرا[1]
زحفتْ رابيةٌ مُضرمةٌ | تلتقيها في عناق الوهج أخرى
جمعت أقسامَ (روما) كلها | في جحيم تصهر الأجسام صهرا
فالمباني تتهاوى والجذى | تترامى والدُمَى تنقضُ جمرا[2]
والأناسيُّ حيارى ذهّلٌ | غامرو هولاً ، وساء الهولُ غمرا
خوّضٌ في الوقد ، إلاّ نفراً | تخذوا الأشلاء فوق الوَقْد جسرا
والضواري انطلقت لا تأتلي | ما التقتْ عضّاً وتمزيقاً وكسرا[3]
هجمت للفتك ثم انهزمت | فزعاتٍ سارياتٍ كلَّ مسرى
كثر اللحمُ شِواءً حولها | وتأبّتْ بعد جهد الصوم فطرا
تتهادى مُهَراقاً دمُها | وبها ضعضعة النازف خمرا[4]
مخرجاً أشجى سماع للورى | من لهيب يسدرُ الأبصار سدرا[5]
مُغرباً حسناً وفي مذهبه | أنّ خير الحسن ما يُفعم شرّاً
دفقَ (التِبْرُ) ضياءً ودماً | مستفيض اللُجّ ياقوتاً وتبرا[6]

وأظن ان الشعر الملحمي بلغ ذروته أو كاد ، في وصف موقعة (عنجر) وبطلها الأمير فخر الدين المعنيّ ، واليك مُعظمها يا بهزاد وهي خاتمة النماذج

---

(١) الدف : المشي الخفيف . الإحضار الجري السريع . العبر الوثوب من ناحية الى ناحية .
(٢) الجذى : القطعة الكبيرة من الجمر .
(٣) لا تأتلي : لا تقصر في عض ما تلتقيه وفي تمزيقه وكسره .
(٤) النازف الجاري دمه فهو يمشي مضعضعاً أشبه بالسكران .
(٥) السدر : تحيرٌ البصر من شدة الحر .
(٦) التبر الأول نهر روما والثاني الذهب .

على الشعر البطلي في حديثنا هذا . قـال صاحب الملحمتين في كتابه (عيد الستين) ما هذا نصه :

ناديتُ فخرَ الدين فارتكضَ الصدى لمّـا أهبْتُ بسيّد الهيجاء

يا راكبَ الشهباء باسِطَ بَندهِ من قفر سيناءٍ الى الشهبـاء

عزّتْ بكَ الفرَسُ الوَقاحُ فخدّدَتْ في الصخر فالصوّانُ ذرٌّ هباء (١)

وتَشِبُّ حتى لا يقرُّ حِزامُها وتتيهُ من شرفٍ ومن خُيلاء

ودوى (بِزَحْلَةَ) عبرَ(بِرْدَونيِّها) تَصهالُ تلك السَلْهب العنقاء (٢)

فَـهَدتْ الى الميدان كلَّ سميذعٍ يوم الكريهة مُقدمٍ فـدّاء

وأعادت الأذهانُ ذكرى داحِسٍ في عِشيرٍ يمشي الى الغبراء (٣)

وأبو الفوارس عنـترٌ متحدّرًا كالسيل فوق الصخرة الملساء

هضباتُ(عنجرَ)يا ابن(معنٍ)لم تَزَلْ تروي حديثَ الفخر للحفداء

فَتَحتَ صدرك للرصاص وبُسَّلا رَبّاهُم لبنانُ أُسْدَ فداء

شُهلَ العيون ، صبيحةً قسَماتُهم لُفَّ الزنود ، نواضِرِ الأزياء

شُمَّ الجبـاه ، نبيلةً أحسابهم فِيحَ الصدور ، ذوائبَ الكرماء

سِيّان في القِمم العُلى أعراضُهم وثُلُوجُهم صوناً ورمزَ نقاء

غُلْبُ الرجال جدودُهم ومُهودهم حُفَّتْ بكلِّ نجيبةٍ غلبـاء

ورثوا الإباء عن الكرام سجيّـةً رضعوا الشجاعة من صدور لُبـاء

لو آنسوا بصدورهنَّ جبانـةً لَنَبَتْ ثغورهُم عن الاثـداء

حَرَمٌ على الأبصار شُمُّ جبالِهم وتُرابهم حَرَمٌ على الدخلاء

***

(١) الفرس الوقاح : الصلب الحافر .

(٢) السلهب العنقاء : الفرس الطويلة ذات العنق الطويل .

(٣) إشارة الى الحرب التي خاضها عنترة بسبب داحس والغبراء .

كان الأشاوسُ دون بندكَ قلّةً والتركُ ملءَ النجـد والأوداء
قيدُومُهُم بطلُ الخليفة مصطفى يزهـو بإسطنبول والطغراء
حشدَ الصوافنَ والركائبَ واللظى فالمرجُ بين تحمحمٍ ورُغاء
ساق المهارى الحمرَ حيدانيّةً من كلّ بازلةٍ ومن وجنـاء [1]
يحملنَ أعباء العتاد سوابقـاً شُعثاً فما من حاجةٍ لحِداء
جهِلَ الغريرُ بأنّ كل ثنيّةٍ أعصى على الدخلاء من تـيماء [2]
في كلّ أرزيٍّ وفـاءُ سَموألٍ إمّـا دعا لبنانُ للإيفاء
ما الأبلقُ التيّـاه شِيدَ بجندلٍ كالحصنِ من أسـلٍ ومن حوباء

• • •

لمّـا الدروزُ من العجاجة ضحضحوا فرشوا رحـاب السهل بالأشلاء
برزوا بروز النيّرات ثواقباً يفتحن درب النور في الظلمـاء
بقواضب لا يرتوينَ، على الصدى إلاّ من الصُّبابة الأكفـاء
صاحوا: لِعَينكَ يابن معنٍ وارتمَوا كالأُسْد تمعن في قطيـع الشاء
خاضوا الوقيعة بالجيـاد مذاكياً جردَ المتون ضوامر الأحشاء
منصوبة الآذان، والأعراف، والعُسبان، سابحةً بفيض دماء
شقراً ضوابحَ عادياتٍ لُمّعاً يصهلنَ خلفَ غمامـة عمياء [3]
يطلعنَ من خلل القتام عوابساً حيناً وقـد يغرقنَ في الأثناء
لولا الفوارس فوقهنّ توهّمتْ عيناك أنّ الشهْب في إسراء
أحمَى الشكيم حلوقَهنّ ولم يكن إلاّ النجيـعُ المحضُ للإرواء

(١) الحيدانية في النسبة الى مهرة بن حيدان وهي أجود أنواع الإبل والبازلة الناقـة التي انشق نابها والوجناء الشديدة .
(٢) تيماء إشارة الى حصن السموأل .
(٣) ضوابح منضبحت الخيل في عدوها أي أخرجت من خياشيمها صوتاً.

رِيٌّ رَبينَ عليه أمهاراً وقد   بُدِّلْنَهُ من رغوة ولباء
خَرِسَتْ بَنَادِقُ مصطفى ومَدَافعٌ   هَانَتْ على الخيّالة البؤساء [1]
شَرُفوا هوًى وأبوَّةً ومنازلاً   ومروءةً في السِلْم والإبلاء
عَالُون مثل صرودهم فجباهُهم   مرفوعة أبداً الى العلياء
لا يبطشون بهاربٍ فسيوفهم   نَزُهَتْ عن الأنكاس والجُبناء
ولربَّما عطفوا الرعيل فأفسحوا   للمُدبرين مجازةً لِنجاء

* * *

يا سهلَ (عَنْجَر) والوقيعة أفصحت   عن فوز فخر السيف والأمراء
رِفقاً بطاغية الفيالقِ مصطفى   عن عزّه يهوي مع الأُسراء
لولا الحياءُ بكى بمقلة جازع   في كربلاءَ بيوم عاشوراء

* * *

للنصر هلَّت بعلبكُّ وزَغردتْ   خِرَبٌ ضمنَ الفنَّ في الأثناء
عَمَداً وأنصاباً وَفِيْحَ هَيَاكل   حَارَتْ بهنَّ حصافة الحصفاء
جَاوَرْنَ (عشتاروت) في ريعَانها   والمشتري والكاهنات اللائي
أيقظنَ في سهل البقاع كُرُومَه   وَمَهَدْنَه لبحيرةٍ خضراء
أيكاً وأباً مَائجاً وأزاهراً   وحدائقاً غُلباً وسلسل ماء [2]

* * *

وَسَمَتْ بفخر الدين هِمَّةُ أروع   يأبى الهوانَ ولو على الأعداء
ذكر السماحة في مَهَزَّةِ ظافرٍ   مُتمثِّلاً بذؤابة السُمحاء

---

(١) البؤساء : الأبطال ذوو البأس .

(٢) الأب : العشب .

بوَداعة الوَحَد الذي هزَّ الورى بالضوء شعشع من ظلام حراء[1]
بمحمّدٍ في فتـــح مكة باسطاً بالعفو راحـــته الى الطـُلـَقاء
قم مصطفي ، أنت النزيل مُكـَرَّماً لبنانُ أرض الرفق بالضعفاء
للغـاصبين سيوفـه رَعَـــافةٌ وَسِمَاطُـه وقفٌ على النُزلاء

فقلت بورك فيك يا عباس ، فلقد أطلت الوقفـــة على الشعر الملحمي وأعلمتنا من أمره ما قد كنا جهلنا . إنك عرّفت فأوضحت ، وأدرت الأمثال فأسهبت ، ولكن هل يستطيع الشاعر الملحمي الإبداع في ضروب الشعر الأُخَر كالغزل مثلاً ؟

فقال عباس ان الذي يستطيع الأكثر يستطيع الأقل ، والملحمة ، كما تعلم ، أبعد مدّى وأكثر شمولاً من كل ما عداها من ضروب الشعر ، ولا يمتنع على المنفعل بالبطولة الانفعال بالحب ، فليس الشاعر آلة ذات أجزاء، بل، خضم تضطرب فيه الأهواء والميول وإن تغلـّب أحدها على الآخر ، ألا ترى ان الشاعر الذي وصف وقيعة (عنجر) فتخيّر لها اللفظ الفخم وأودعها القوة يتغزّل فـَيَرِقّ حتى يقول . في قصيدته (وردة الغاب) :

يا وردة الحبّ المصون ورسالة الشفق المبين
أكمامهـا منسوجـةٌ من مدمع البكر الضنين
فكأنهـا من رِقـَّةٍ وَهْمٌ يموّج في الظنون
لا لمس يجرحهـا فقـد حَرُمت على غير العيون
بيني وبينك وهدةٌ حمراء من ألم كمـين
فِلذ الجحيم لهيبها أو بعض أنفاس الحزين

• • •

(١) حراء : غار بقرب مكة كان النبي يختلي فيه للصلاة والصوم .

يا ليت كنت فراشة خضراء من لون الغصون
فألُفَّ نفسي بالطيوب ولا أبينُ لمُستبين
يا طيب هذا الحبس لو يفنى به عمر السجين
وأظلُّ رهنَ السحر لا يصحو الزمان ويفتديني
لا الشمس تفضحني ولا الأوراق يُوقظها أنيني
أحميكِ من عين الردى وأكون منك ولا تعيني

. . .

أخت الندى والفجر في حلل المهَابة والسكون
لولاك ما ابتسم الربيع ، ولا تفتّح للعيون
ولظلَّ معنى الحسن والأطياب في الغيب الدفين
يا زهرةً قدّستُها أحببت ألاَّ تسمعيني
من حرقة الرمضاء في صوتي ومن نَغَم المنون

. . .

ألقاكِ في رفّ الخيال وعبقة النسَم الحنون
في كل صبح أشقرٍ أو في ضمير الصبح كوني
هذا السبيل اليك من خلل الغياهب والحصون
حسبي من الشوق المُدلّه أن لثمتك بالجفون
فإذا تمشّتْ خلجةٌ بين البراعم فاذكريني

ولقد كان له في الغزل ديوان طويل فُقِدَ مخطوطاً بينما كان هو في المستشفى يصارع الموت . ولقد أشار الى ذلك في مقدمة ملحمة الرياض وكتابه حكاية عمر . ولم يكن في وسعه ان يعود فيتغزل وهو فريسة مباضع الجراحين ،

وقد ولـّى الشباب ، وأصبح الغزل افتعالاً وكذباً ، وصاحبنا شاعر الطبع فإنما قـَصِيدُه خلجات صدره، وخياله صدى فؤاده، فما ينطق إلا عن إخلاص .

فقلت : يا عباس لقد ألمعت في سياق الحديث الى التسمية التي يطلقها العوام خطأً على البطل والأستاذ والشاعر والعبقري والقديس فهل لك ان تحدثنا بل ان تعرّف البطل والعبقري والقديس .

البطل

قال عباس، البطل هو الذي يقف حياته على جلائل الأعمال والقيم الروحانية، لا الشؤون المادية ولو آلت الى اكتشاف مجهول أو اختراع ما يجلب الرفاهية للبشر . ومن خصائصه نبل المقاصد وقوة الارادة في كبح الشهوات الجامحة ، ولا يشترط فيه صلابة العضل بل الحيوية الدافقة، ولا يتعذّر على نفسه الكبيرة ان تستقر في جسد واهن كجسد باسكال أو إسبينوزا ، أو أبيكتت أو أيوب أو صاحبنا الذي شآه صبراً وبؤساً ، فلم يكن البادي للناس من ألمه إلاّ نزراً يسيراً ، إذا قيس بما كتمه وطوى عليه جوانحه ، كما انطوت الأرض على نارها الجوفيّة ، ويكاد الناس يجهلون وجودها لولا البراكين القذّافة باللظى والانهيار الباطن ، إذ يخسفُ الله الغبراء بهم ، فتلتئم عليهم صُدوعها ، أو تميد فتزلزل زلزالها وترى المذعورين سائبين على ظهرها ، تحسبهم سكارى وما هم بسكارى.

وبقدر ما يكون المرء قوياً في صراع الأهواء ، والصبر على المكاره ، والمعاناة والتسامي على الألم ، ترتفع درجته في سلـّم البطولة لأن مدارها ضبط النفس والتحكم بها ، إذ أنّ من يعجز عن حكم ذاته فهو عن حكم غيره أعجز. وإنما القوة من أركان البطولة الرئيسية اذا اتخذت الخير عماداً وغايةً ، شرط ألا تُحمل على محمل العنف ، فالله سبحانه قويّ غير عنيف . وما أبعد

معنى القوة ، في هذا المقام ، عن الغرض الذي يرمي اليـه نيتشه ، فان ذاك الضرب من الأثرة وحب السلطان ، قد جرّ على البشر عامةً ، وألمانيا التي دانت بمذهبه ، ما لا يحصى من الكوارث .

البطل هو الذي يقحم في واقع الحياة القيم التي يقتصر المفكّر على تأمّلها. ولا بدّ له من أن يكون عميق الثقافة ، رفيعاً في الروحانيات ، فان ازدان بإرادة القوة لزم أن يرافقه شعور بالتبعة عميق ، وإن الشجاعة ، والمبادرة ، واليقظة ، والحزم ، والاستخفاف بالمخـــاطر ، وبُعد النظر في الأمور أظهر الصفات التي يتحلّى بها البطل. ومن جوهره أن يكون مترفّعاً عن الصغائر ، أنوفاً يغتبط بالعطاء والتضحية باسلاً مقداماً ، فاذا كان قائداً أو رئيس دولة ، وحُمّت الأقدار ، ودقّت الساعة فخارت العزائم وطارت القلوب شَعَاعاً ، كان هو رجل الساعة . ويتحتّم عليه أن يتمتع بثقة الشعب وحبه ، بل بما هو أكثر من الحب ، كما وقع للاسكندر وبونابرت وقيصر . كل ذلك بدون أن يصانع الغوغاء ويجاري أهواءها ، لان الجماهير سريعة الانفعال والتقلّب ، فاذا هو جرى في تيّارها جرفه ، وعاد آلةً أو مِسْخاً لا بطـــلاً ، والويل لأيّ زعيم تقوده الجماهير فيصبح قيد رحمتها .

العبقري

أما العبقري فيشابه البطل من جهة اضطلاعه بالقيم الروحانية والنهوض بالمهمّات الجسام ، ولكنه يختلف عنه من جهات أخرى ، فما هو بالقـــائد العسكري ولا برجل الدولة. ولقد أخطأ الذين توّهموه في المخترعين والمكتشفين ، ورجال المال العصاميين ، أو رجال العلم ، لأن العالم يجري الى غايته على قاعدة مُقرّرة ، والعبقري النابغة يتخطّى القاعدة فلا يسير في سمت معبّد ، فالخلق

والإبداع هما الجناحان اللذان بهما يطير . يطبع بطابعه الروائع فتبدو أجمل مما هي في الطبيعة ، إذ يضيف إليها من روحه التي تجاوز حدود المكان والزمان . ألا ترى اننا نعيش مع رافايل وليوناردي ڤنشي وشكسبير ودانتي وسقراط والمتنبي والمعرّي فوق ما نعايش معاصرينا ، بل جيراننا في المنزل والمصنع والمدرسة . ذلك أن القيم الروحانية تلازم رائعة صاحبها ، فنجد ليوناردى ڤنشي في الجوكنده ، وميكال انج في تمثال موسى ، ودانتي في المهزلة الإلهية . ولو ان رائعة قديمة ، مجهولة النسب يتيمة ، وقعت مصادفة بين ايدينا ، لاستطاع الراسخون في العلم ردّها الى أبيها الذي وَسمها بسِمَته ، يوم أبدعها بالريشة أو الإزميل والقلم ، فكأنه مَهَرها بتوقيعه ، أو ألصق عليها رسمه ، أو نفخ فيها من روحه فجعلها كائناً حياً ينطق باسمه ، ويهتف بمجده . ولا يتأتى ذلك للعبقري ما لم يكن قد ابتدع لنفسه عالماً خاصاً مستقلاً عن بيئته وشؤون عصره ، وتلك هي ميزة الأصولية والكلاسيكية ، التي توافق كل الأذواق ، في كل العصور ، وفي مختلف أقطار الارض ، فان روائع الأغريق ما برحت ماثلة فينا ، كما ان موسيقى بتهوڤن ما تنفك ترنّح أسماعنا بلغة لا تحاكى ، لأنها مخلوق بِكر اللسان والتعبير ، ولا يصحّ اعتبارها مرحلة من مراحل التطور ، ولو اعتراها بعض النقص ، فإنها كلٌّ مفرد ، وإنما يكون التطور في ما يتجزأ ، وفي الآلات المُعدّة للمنافع كالسيارات والطائرات وأواني الطبخ والغسيل .

وقد تبقى عجائب الفن مغمورة الى حين ، حتى يقيّض الله للنوابغ القُدامَى عمالقة من مثل معدنهم ، ينفضون عن آثارهم غبار العصور فتنجلي عن أجمل من سبائك الذهب. ذلك ما وقع في عصر النهضة فانفرجت الدياميس عن آثار الأغريق ونفائسهم ، بعد إذ هجعت قروناً طوالاً . ولا يخفى ان النهضة لا تشمل سوى القيم الروحانية لأنها نبش للماضي الذي يزدهر في الحاضر والمستقبل . ولا يمكن إثارة الغابر على صعيد الآليّات ، فلا يخطر ببال أحد الرجوع الى السيّارة الأولى التي أنتجتها معامل فورد ، او الى

الفونوغراف الذي ابتدعه أديسون ، ذلك أن رقيّ المدنيات يجري مع الزمان صاعداً ، أما الحضارات فليس هذا شأنها ، فربما كانت فلسفة هيراكليت ، وهو في القرن السادس ق.م. إحدى مَناهِل برغسون في القرن العشرين .

ومن خصائص آثار النوابغ أنها لا تنفد ، لفرط خصبها وعمقها وغناها ، فمجال الكلام عليها يظلّ مفتوحاً للأقلام والأذهان ، وقد تُجاوز الغاية التي وضعت من أجلها ، فإن بيدبا الفيلسوف وضع كتاب كليلة ودمنة عظةً ومنهج حكمة للملك دبشليم ، ولقد بيّض الرمس عظام بيدبا ودبشليم وابن المقفع ، وما زالت المراقم تدور حول كليلة ودمنة .

وامتدح أبو الطيب المتنبي سيف الدولة ابتغاء ولاية لم ينلها ، وتناولته الأقلام بما يعادل ألف سيف دولة على ألف عرش .

وقد يفهم شرّاح العبقري ويدركون من آفاقه ما لا يُدركُهُ من نفسه ، مما يُذكّر بالنبوآت التي تُفَسَّر بعد مرور الأجيال ، فان داود لم يعلم انه يتكلم عن المسيح في قوله: قال الرب لربي اجلس من عن يميني فسأضع اعداءك موطئاً لقدميك ، وفي قوله اقتسموا ثيابي في ما بينهم وعلى قميصي اقترعوا ، وفي قوله : ولن تدع قدوسك يرى فساداً .

الفارق بين الآثار العلمية والصناعية والفنية عظيم . أما العلمية فتجري على قاعدة وتوضع على نمط وغرار معلوم أو تكون نتيجة لمباحث . أما الروائع فتولد على غير انتظار كما تنكشف جزيرة في المحيط ، أو تبزغ نجمة لم يحسب لها الفلكيون حساباً مما يشبه الخوارق ، فالعلماء يجري بعضهم على آثار بعض، ويتلاقون على الغايات وعلى مفارق الطرق ، فيصحّ القول في مكتشف البنسلين انه لو لم يوفّق الى اكتشافه لاهتدى اليه عالم آخر . ولا يصح القول : إنه لو لم يبتدع ليوناردى ڤنشي الجوكندة لرسمها سواه . وبهذا السبب كثيراً ما نرى العلماء يتجادلون في السبق الى اكتشاف علاج طبي او ابتكار طريقة جديدة في الجراحة ، أو اختراع آلة حاسبة . أمّا رواية فوست لغوته ،

والإخوان كارامازوف لدوستويفسكي،أو دون كيشوت لسرفنتس ، فلا سابق لها ولا مجادل فيها .

وإن الكلام عن العبقرية ليشمل الفلسفة أيضاً لأنها تنطبع بطابع الفيلسوف . فالعلم لا يقدّم فيه ولا يؤخّر شخص العالم ، أما في الفلسفة فالشخص مقدّم على فلسفته . لذلك فان العبقرية التي تشمل نواحي الفن والفلسفة لا يصحّ فيها القول بالتطور والمراحل ، فما من فلسفة تمحو سابقتها ، ولا من رائعة تخنق أختها ، كما هي الحال في التطوّر الصناعي . فالعبقرية امتداد الى السماء يسبح في الفضاء ، منشعب الألوان والأضواء .

بيد أن ذلك لا يعني استقلال فيلسوف عن مدارك من سبقه ، ولا شاعر عن شعر من تقدّمه ، ولا نحّات عن استيحاء مَن بعث الحياة قبله في المرمر . بل يعني ان المستوحي لم ينقل نقلاً بل استبقى شخصيته .

ألا وإن في بصيرة العبقري وقلبه ما يسع الكون بأسره منظوراً اليه من جهة المحبة . وبينما تظل العامة سجينة في إطار مجتمعيّ ضيق الحدود ، ينطلق النابغة في الأجواء مرنّح الفؤاد بين الماء والغمام ، والسهل والغاب، وصياصي الجبال ، وملاعب الأمواج ، ومطالع الأضواء ، كل ذلك يُحَرّكُهُ للحب والفرح ، ويحرره من أشباح الخوف وليدة المدنية المتسابقة الى اللذائذ والترف المشدودة بالقيود الأرضية الى التراب ومشتقاته ، وما يقتضيه الربُّ الثاني المال من كفاح وجزع دائم ، وبهذا السبب أصبح شعار المدنية الحذر ، وشعار الحضارة الثقة والفرح . المسيح أحب البشر ونهى عن عبادة الرب الثاني ، والمتقاتلون على المادة أبغضوا الله والبشر،غير ان المادة التي يتعذّر بل يستحيل إهمالها يمكن رَوْحَنَتُها اذا نظرنا اليها من خلال الله وسعينا الى تطويرها ، فأحببنا الطبيعة وما فيها كما أحبّها القديس العظيم فرنسيس الأسيزي ، بدون الالتجاء الى الحلولية والاعتقاد بوحدة الوجود .

القدّيس

وكفّ عباس عن الكلام فقلت ، لله درك فانك حين تحدثنا بالغايات الشوامخ ترفعنا الى الأجواء الفكرية المشرقة ، وحين تقصّ علينا مثالب القرويين لا تدع مزيداً لهجاء ، قال أما مثالب القرويين ومحاسنهم فلم اقصد أشخاصاً معيّنين ، بل اخترت أمثالاً للقبح ونماذج للجمال ، على أنها لا تعدو الواقع او المحتمل الوقوع ، تجدها في معظم القرى اللبنانية ، وانما هي صور لطبائع الناس ، ومن هذه الجهة يصح قول سليمان ان لا جديد تحت الشمس . أما في الهجاء فهل نسيت ان القائل :

بناها فأعلى والقنا يقرع القنا وموج المنايا حولها متلاطم

هو نفسه القائل :

ما أنصف القوم ضبّه وأمّه الطُرطُبّه

قلت : بقي ان تحدثنا عن القديس وخصائص القداسة . قال إن ابراهيم بذلك أولى ، فهو أعرف مني باللاهوت ، ألا تذكر انه كان في مدرسة اكليريكية ، ودرس الفلسفة التومائية ، وأوشك ان يصبح كاهناً لولا معارضة والدته لأنه وحيدها ولأنها تريد ان تفرح بحفدائها فتحضنهم وتراهم دارجين لاعبين ، ولو نثروا بين يديها الدمى وقلبوا المتاع ظهراً لبطن ، مردّدةً قول القائل ليس أحب من الولد إلاّ ولد الولد . بذلك يلتقي الطرفان ، الشيخوخة والطفولة . فما أطيبه لقاءً قلت بلى تذكرت الآن كل ذلك فهات يا ابراهيم . فاعتدل ابراهيم في كرسيه وقال : من جوهر القديس ان يتّجه بقلبه وتأمله الى الله لا الى العالم . والذين يتبعونه يعتقدون انه يدرك ما يستعصي عليهم إدراكه ، إذ يرى ما لا يرون . وإنهم لا يقيسون مناقبه بمقياس مقرر ، أو بنظام سابق يجري عليه ، بل يؤمنون بشخصه وفيض قداسته ، لذلك يصدّقون

بقوله ، ويرون الخير في أعماله . وليست المعجزات التي يأتيها ، والمبادىء السامية التي يبشّر بها برهاناً على قداسته ، ولكنها آيات توضح اتحاده بالله ، وليس أدلّ على ذلك من المسيح القدوس إذ يقول : أنا الطريق والحق والحياة فهو لا ينطق بالحق فحسب بل انه الحق بالذات .

ومن خصائص القديس أن يظلّ ماثلاً للأذهان عبر العصور ، سواء أكان ذلك بتلاميذه وصحابته الذين عايشوه ، أم بالأتباع الذين اتخذوه مثالاً أعلى فنهجوا نهجه ، يتقفّى منهم الخلف أثر السلف ، أو بالتقليد الذي يتداوله المُريدون فيستمر تُراثاً حياً ، ويمتد ظلّه في الشعوب على مختلف أوطانهم وألوانهم ولهجاتهم ، وبهذا يفترق القديس عن البطل الذي يتحيّز مجده في أُمته ، أو النابغة الذي يخلد برائعة ، فالقداسة تنبض بها الأفئدة أبداً ، والقديس موجود ، فحياته ووجوده وعمله وحدة لا تنفصم ، سواء أكان على وجه الارض أم واراه الثرى . وليس من قبيل المصادفة ألاّ يتحيّز عمل القديس في أثر مادي فتنحصر فضائله بما كتب ، لئلا تكون تَرِكَتهُ للأجيال حَبيسَةً بين دفّتي كتاب . كلاّ إنه يورث الأجيال مجده ، فيكون في العالم وفوق العالم ، وانه لفوق المجد إذ يبقى المجد دونه ، وكيف لا يكون ذلك وهو الوسيلة لخلاص الفرد وخلاص العالم .

ومن أعجب العجب ان القديس القدوة يعيش في الصالحين من أتباعه حاضراً لا ماضياً كما يستمرّ أبطال التاريخ ونوابغه ، ولا تذكاراً كما نذكر بعض الأحداث والمواسم أو الأعياد التي توقظ فينا مَشاعر شتى وتنشر غابراً ، بل يعيشون معه ، وبعد أن يتوارى عنهم يحيون من أجله وبه ، لا سائرين في أثره كما يقتفي الجنود أثر البطل ، أو الانصار عقِب الزعيم ، إن الامر لأعمق من هذا كله ، وأبرز الادلة على ذلك قول القديس بولس : « لست انا الذي يحيا بل المسيح هو الذي يحيا فيّ » ولا يمكن ان يعيش القُدّوس إلاّ في الاشخاص ، لان العبقري خالد بآثاره في الرخام ، أو الصحيفة ، أو في

الخشب ، او في الورق . أما القديس فمادته الإنسان الذي تشعّ فيه أضواء القديس القدوة ، فيعاني المعاناة نفسها ، ويكون المرآة الحية التي تستمر فيها الفضيلة ساطعة . ومن شأن القديس العظيم ان يطبع المجتمع بطابع خاص ، ويؤثر في عصره بل في نفوس مضطهديه ، ويَسِم الاجيال بميسمه ، على غير قصد منه ، فتكون قداسته بما فيها من حنان وهدوء واجتناب للعنف نوراً ينفذ الى البصائر موجِّهاً هادياً .

المسيح وبوذا

فلما فرغ ابراهيم من كلامه قلت حقاً انك لم تضيّع وقتك في المدرسة الاكليريكية ، فلقد أجملت فأجدت ، قال ربما أحسنتُ القول لأني كنت مولعاً بسير القديسين ، وبخاصة المفكرين أمثال توما الاكويني وأغوسطين ، قلت فأيهما أحبّ اليك ؟ قال اني أجلُّ القديس توما ، وهو أحد الاساطين القلائل النظراء في عالم الفكر ، ولكني الى اغوسطين أمْيَل ، وبتعليمه أشغف . قلت لا غروى أن يقع صداه في نفسك اكثر من سواه لانك تؤثر المهتدين بنور القلب لا بمنطق العقل . ومن هنا كان إيثارك لحجّة الإسلام ابي حامد الغزالي وتقديمه على سواه من المناطقة وعلماء الكلام . قال ربما كان ذلك أحد الاسباب ، ولكن ثمة عوامل اخرى قرّبتني الى أغوسطين أهمّها نظرته الى الحب والمعرفة .

قال عباس : يبدو لي اني دونكما اطّلاعاً في هذه الشؤون فهل لك يا ابراهيم ان توضح نظرة صاحبك أغوسطين ؟

قال ابراهيم : يجدر بي – تمهيداً للشرح – الإشارة الى تيّارين عظيمين

كان لهما الاثر الاكبر في مذاهب المفكرين . اما الاول فملخصه ان الحب هو السبيل الى المعرفة ، فمن أحب شيئاً عرفه ، وبقدر ما يكون الحب عميقاً تزداد المعرفة . اما الثاني فموجزه ان المعرفة هي الطريق الى الحب . ومن هنا قيل ، ان الانسان عدوٌ لما جهل . وعلى هذا الرأي الثاني اعتمد الأغارقة والهنود ، وبهذا الشعار اتّسمت الاخلاق والدين في موطن بوذا ، فكل مظهر للحب هناك متفرّع على العقل ، وكذلك القول في مذهب القطبين الأغريقيين أفلاطون وأريسطو إذ يعتمدان المعرفة طريقاً للخلاص ، فما أبعدهما عن المسيحية القائلة بمحبة فائقة الطبيعة ينزلها الله على عباده بطريق الوحي، متقدمة على عمل الانسان وهادية الى الصراط المستقيم . لذلك ارتكز التعليم الهندي على المعلم الحكيم ، لا على المخلّص العظيم .

ولا يخفى ان حكمة المعلم تنطوي على كثير من الفراغ وهو القائل : أفرغوا قلوبكم وأحشاءكم ورؤوسكم وفي ذلك فصل بين الجسد والروح وخنق للطبيعة وانصراف الى التجريد الروحاني المعلّق في الهواء، مثل ذلك مثل من يستطيب عبير التفاح ويأمر بقطع الشجرة وإقصائها عن التربة ، ولا يساوي بوذا في هذا التجويف إلا القائلون بالشعر المحض والنغم الصرف نقياً كماء المزن، بيد ان من يشرب ماء المزن الذي لم يمر في تربة ينهل ماء خالياً من الجراثيم ولكنه بدون طعم. ألا وان الانسان عالم اصغر يضطرب فيه الف تيّار وتيار لما فيه من بعد مدى وسحيق أغوار .

وما الخلاص الذي علّم به بوذا إلا الفرار من الميول والشهوات وابتعاد المرء عن ذاته ، لا حبّاً بالله ولا بالقريب . ولقد زيّن لتابعيه الكفر بالذات وحبّ الأشياء والحيوان والنبات ، واجتناب دوس الحشرات أو إزعاجها عن مساربها ومساحبها ، فوضع القريب والحيوان الأعجم في منزلة من المحبة واحدة .

فتبّاً لهذا الضرب من المحبة الذي يأمر المرء بكره نفسه والفرار منها لا

الى الله ، ولا الى القريب ، بـــل الى كل شيء عداها ، فيجردها من الميول جميعاً ، بقصد الفناء في المجهول. فمن شاء ان يتصوّر العدم فليضع نصب عينيه ذلك التعليم ، فيجده انطلاقاً من العدم الى العدم ، الى التلاشي في النرڤانا .

فقلت أليست النرڤانا سماء الهنود يا ابراهيم ، يدخلهـا الأبرار خالدين في نعيمها ثواب ما قدّمت أيديهم في الحياة الدنيا ؟

فقال ابراهيم كلا يا بهزاد ، وان هذا الوهم الذي اعتراك في تحديد النرڤانا قد ساور نفوس الغربيين والشرقيين على السواء ، لما يعلمون من ثواب الصالحين عند الله .

فالقرآن الكريم ذكر الجنات التي تجري من تحتها الأنهار ، غير مرة ، ومنها قوله « لكن الذين اتـّقوا ربّهم لهم غُرف من فوقهـــا غُرف مبنيّة تجري من تحتها الأنهـــار ، وَعْدَ الله لا يُخلف الله الميعاد » « وسيق الذين اتـّقوا ربهم الى الجنة زُمَراً ، حتى اذا جاءوها وفُتحت أبوابها وقال لهم خزَنـَتُها سلام عليكم طِبتم فادخلوها خالدين » « جنّات عدْن يدخلونهـــا يُحلـّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ، ولباسهم فيها حرير » .

والإنجيل الطاهر قد أشار الى خلود الأبرار في النعيم ، وقد أورد القديس بولس في هذا الصدد ما موجزه ان الله قد أعدّ لمحبيه من السعادة مـا لم تره عين ، ولم تسمع به أذن ، ولا خطر على قلب بشر .

وانما الهنود الذين يعملون الصالحات يأتونهـا فراراً من التناسخ ، لأن الولادة والعودة الى الحياة الدنيا في رأيهم عقوبة ، ولا وسيلة للخلاص منهـا إلا بنبذ الشهوات وبلوغ الكمال ، ابتغاء النرڤانا التي تساوي العـــدم . ولئن تهرّب غوتاما بوذا من تعريفهـــا تعريفاً واضحاً فهي في رأي الباحثين فناء المرء نهائياً .

أما الأغريق فلقد آمنوا بان الحب خلاّق ولكن هذه القدرة على الإبداع تابعة للعقلانية ، فالحب تطوّر صاعد في طريق المعرفة ، وهو ، بخاصة عند

أفلاطون ، جهد وسمو من معرفة ناقصة الى معرفة أوفر كمالاً . وكان في المفهوم الأغريقي ان على الإنسان محبة الله بدون ان تأتي نعمة المحبة من الله الى الإنسان . فالله عندهم يحب ذاته فقط . ولقد تسرّبت هذه الفكرة الفلسفية الوثنية الى كبار الرؤوس المسيحية في القرون الوسطى . فلم يكن ثمة نجوى بين النفس وخالقها . وظل المسيحيون الأولون اسرى القوالب الوثنية ، وكان اغوسطين واتباعه طليعة الألى اسبغوا على المسيحية رداءً فلسفياً . فبينما كان تعريف الحب اتجاهاً من النقص الى الكمال ، من الادنى الى الاعلى ، من الإنسان الى الله الذي يتحتم على العبد حبّه ، تبدّلت النظرة فأصبح الله يتنزّل لمحبة الإنسان فيوليه النعمة التي تمكنه من فعل الخير ، ولقد تجلّت محبة الله بتجسد المخلص ابنه يسوع الذي علّمنا ان الحب هو الطريق الى المعرفة ، فالحب هو الذي فتح عيني المجدلية ، فكانت اول من رآه بعد القيامة .

ولا يخفى على مستنير ، ان القديس توما ، مع طهر نفسه ، وجلالة قدره ، تابع ارسطو وافلاطون ، فأدرج المسيحية في قوالب معظمها وثنيّ ، فرأى ان الله خلق العالم لتمجيده ، ونظرة التمجيد المشؤومة الوثنية المصدر ، شوّهت بهاء المسيحية كما يشوّه الجدري وجه الحسناء ، فتجرح دمامتُها عيون المبصرين ، لانها نفخت في صدور الكثيرين روح الكبرياء ، فأصبح لله وزراء ، واستتبعت الوزارة ما استتبعت من ابهّة وعبيد وخول . ولو آمنوا ان الله خلق العالم بفعل محبة منه لكانوا خدماً لله سبحانه ولهم في ذلك منتهى الشرف – ولكانت وداعة المولود في المذود ابهج الحلى التي تزدان بها المسيحية .

وموجز القول ان الله محبة ، وان المسيحية محبة ، وان أغوسطين العظيم هو فاتح الابصار على هذه الكنوز التي لا يطولها العقل المتجبّر ، ويبقى المنطق دونها كليلاً ، من اجل ذلك تراني يا بهزاد الى اغوسطين أميل مني الى الاكويني .

قلت يا ابراهيم لقد حببت إليّ اغوسطين ونبهتني الى بوذا ، ولقد سمعت

فريقاً من الذين شادوا أدبهم او اشتقوه من المطالعات الرخيصة ، يزعمون أن إنجيل يسوع مقتبس من إنجيل بوذا ، وان بين المسيح والمعلم الهندي مشابه .

قال ابراهيم لا بدّ للجواب عن هذا السؤال من عرض مشكلة الألم ومـــا يتشعب عنها . وليس لبوذا انجيل بل مجموعة آراء وتعاليم نشرها أتباعه عقب دخول المسيحية الى الهند ، على يد توما الرسول ، الطيّب القلب ، الذي لم يؤمن بقيامة يسوع حتى وضع إصبعه في الجرح ، وعلى يد خلفائه من الشهداء والمبشرين الألى انتشروا في اقطار المسكونة . وكان ان البوذيين هم الذين اقحموا بعض الامثال الإنجيلية في مذهب المعـــلم الهندي الكبير فتوهّم السطحيون من الناس ان العكس هو الصحيح . بلى ان بوذا تقدم يسوع في الزمن ولكن انجيل يسوع انتشر في الهند قبل ان تجمع تعاليم غوتاما . بيد ان الملاحدة والذين في قلوبهم مرض رأوا باب الهرب واسعاً ، فشاءوا النفاذ من هذه الكوة الى فضاء الانفلاتية والتحرر من الانجيـــل والقرآن ، اللذين يعظـّمان المسيح فتاهوا في قفر اي قفر . ولقد تقدم للبرهمية في الهند ان علـّمت بهجرة الارواح وانتقالها من جسد الى جسد ، عقابـــاً لها على آثام اجترحتها في حياة سالفة باعتبار الوجود نفسه — او بتعبير آخر — الحيـاة نفسها مصدراً للألم ، وان هذا الالم تكفير عن المعاصي الغابرة . ومن هـذه النظرة التشاؤمية الى الوجـــود انطلق بوذا مبشراً بالتقشف والعزوف عن الشهوات ، وإخماد الميول والصبر على الالم ، مهما كان مصدره ، والإذعان له ، وخنق الغرائز وصدّهـــا عن مقاومة الشر . ولا يخفى أن في كبت الغرائز جميعاً ، على الوجه المتقدم ، إبادة للحياة وإتلافاً للكرمة الجيدة والعلّيق الذي اعترش عليها .

ولربّ معترض يقول إن يسوع أيضاً نهى عن مقاومة الشرّ إذ قال لبطرس في بستان الزيتون « أغمد سيفك فمن أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ » ويردّ على هذا الاعتراض : بأن المسيح لم يجعل من هذه الآية مذهباً ، على حين ان

الإستسلام البوذيّ والتجلّد بل التبلّد المأخوذ عن اليوغا هو أبعد شيء عن تعليم يسوع وحياته وموته. فمن ينسى غضبته المقدسة حين أهوى بالسوط على باعة الحمام والصيارف، وقلب موائدهم في الهيكل، وحملته المكررة على الكتبة والفريسيين، وقوله قبيل موته: يا أبتاه أجزعني هذه الكأس، وعذابه على الصليب من أجل البشريه الخاطئة وهول معاصيها. ثم سفك دمه. وعلى آثاره جرى الشهداء، فخفقت على مقابرهم أعلام التضحية الحمر، ونبت وردُ الطهارة قانياً، فامتدّ عبيره الى أقاصي الأرَضين والدهور..

المسيح ديناميكية وحُبّ وحياة وبطولة عاملة، وبوذا إذعان وجمود، وانما يفترق عن الرواقيين، أمثال مرقس أوريلوس وابيكتت، باحتماله الالم وديعاً، واولئك يتلقّونه مستكبرين. ويتساءل العارفون عن مصدر المذهب البوذيّ واعتباره العذاب ملازماً للوجود، أفكان ذلك من تأثير المناخ الحارّ الذي يهدّ النفوس هدّاً تبعاً لهدّ المفاصل؟ وهل السلام والراحة، وإطفاء العطش الماديّ والمعنويّ، سوى توق الى السكون في ظل الأشجار وأكناف الغاب؟ وهل نجم ذلك عن اختبار غوتاما وانفعالاته الشخصية أم كان ذاك صدى الشعب الشائخ؟ ويُستبعد ان يكون ذلك تجريباً شخصياً، لان غوتاما كان أميراً ذا قصور وضياع، وخَول وأشياع، فهجر الدنيا لما رأى من الفواجع التي تنزل بالبشر من مرض وشيخوخة، وفقد أحبّة، وحروب وحرائق وطوفان. وكان الرجل رئيفاً شفيقاً، وهو لايحرّم اللذة باعتبارها شرّاً، ولا يعظم الالم باعتباره خيراً، ولكن العذاب يفتح البصائر على الحقيقة ويصرف المرء عن السطحية ويحدوه الى المعرفة. ومشكلة الألم المتفرعة عن مشكلة الشر طالما شغلت العقول، فعمد الرواقيون الى مذهب التصلّب والثبات، كما فعل سقراط قبل ان يجرع السم. ولكن البطولة المصطنعة في مقاومة الألم تفضي الى تحجّر القلب، وتقتل الشعور بالحزن والفرح، فتقتلع الحنطة والزؤان معاً، وتقضي على مباهج الحياة، فينظر الإنسان الى نفسه وكأنه ينظر الى شخص آخر قلما تعنيه أفراحه وشجونه، فيتحرك تحرك الآلة ويحيا حياتها.

ومن المفكـّرين فئة أفرطت في التفاؤل ، امثال اسبينوزا وليبنتز زاعمة ان الأثرة هي التي ترينا بشاعة النقاط السود في خريطة الحياة ، ولكنهـــا نقاط لا بد منها لتتمة الانسجام وحسن النسق ، ومنهم القائلون بان الألم وهمٌ يمكن استئصاله بوهم مثله اي بالايحاء الذاتي .

ولا يخفى أنها حلول ناقصة، فالألم حق واللذة حق . ولقد قضت المسيحية على المباهاة بالألم أو محاولة إخفائه ، او اعتباره عقوبة على خطيئة ، بـــل اعتبرته افتقاداً إلهياً ورحمة منه تعالى ، ووسيلة لتطهير النفوس وتوجيهها الى الخلاص ، كل ذلك مقروناً بالوداعة والصبر الجميل والمحبـــة ، حينئذ تأتي الابتسامة من خلال الدمعة ، تلك هي الغبطة التي تغلغل في أعماق النفس ، فتطلعها على آفاق أبكار ، ولذّات عذارى ، وتنقذها من قيود الحواس بما تضفي عليها من النعمة الإلهية .

الارملة

وكانت الساعة قد نيّفت على الواحدة فنهض ابراهيم وقـــال هيّا بنا الى البيت ، فلقد أُعِدّ الغداء والوالدة في انتظارنا . وشهدنا في مدخـــل القرية رجلين نقيضين أولهما قصير القامة هزيلها، شديد سمرة الوجه ، منقبض المحيّا. وثانيهما مستقيم القامة ، عريض الكتفين ، متناسب القوام ، فقلت ما أبشع هذا القزم بجانب هذا المارد ، فقال عباس انك لغريب عن هذا البلد يا بهزاد، ولو عرفتهما لما أعجبتك خضرة الدمن ، فان هذا القصير حمله مركب الدونية على العمل والدأب ، فعاد بالنفع الجزيل على عائلته . أما هذا الكبير الوسيم فلقد اكتفى بضخامة جثته ، فهو بطيء الهمة ، خوّار العزيمة ، يحسد الناس

على ما في أيديهم ولو رغيفاً يابساً . فلقد صغر قلبه حتى يكاد لا يرى ولو بالمجهر ، وخسّت نفسه حتى لتدفعه الى بسط كفه للاستجداء ، فلو عرفته لأخذتك به الرأفة ، وأشفقت على نفسه المجدبـــة جدب الربع الخالي أو كثبان الدهناء .

وبلغنا بيت ابراهيم فرحبت بنا والدته أيّ ترحيب، ولم نكن قد رأيناها في الصباح ، اذ كانت مشغولة عنا بالصلاة في الكنيسة ، وهي من المتعبدات اللبنانيات اللائي أطللن على الدنيا ، في اعقاب القرن التاسع عشر ، ومعهن حشمة الأزياء ، وبساطة المعاش ، ومناعة الإيمان . ولقد أصبحت أُم ابراهيم أيّما في الثالثة والثلاثين من عمرها ، وكان ابنها في السابعة من سنه ، فوقفت حياتها على تربيته وتأديبه أحسن تأديب ، منفقة من ريع أملاك ريفية تلقتها إرثاً عن أبيها . وما إن خلعت ثياب إرمالها حتى توالى ُطلاّبها ، فردّتهم جميعاً ، وقطعت على نفسها عهداً بأن تمكث أيّما مدى حياتها، وهكذا بقيت زينة المحصنات مهيبة ، ذات طلعة ملائكية ، تصدّ عنها الذين في قلوبهـــم مرض . وبحسبك حجة على عفافها ان نساء قرية (الغابة) ، حتى العوانس منهن لم يذكرنها بريبة . ولا يخفى ان معظم العوانس سليطات الألسن ، وافرات الكيد ، ينضَحْنَ بالغيرة والبغضاء ، وأن التنكيل بالناس ولا سيا بالنساء ، وتسويد صفحاتهن يقوم لديهن مقام اللذة الجنسية التي ُحرِمنَ منها .

ومما زاد إعجابي بأمّ ابراهيم أنها ، على احتشامها في الزيّ ، وحفاظهاعلى التليد من العُرف الريفي تنزه لسانها عن الطعن في النساء العصريات ، رقَصنَ الى مطلع الفجر ، أم ابتردنَ على شاطىء البحر فانتثرنَ على رماله َبدَداً ، أم استرسلنَ في التقليد وتنافسنَ في الإسراف حتى َمصَصْنَ دم الرجـــال علَقاً ، وبسطنَ لهم الدلالَ وهَقاً ، بل كانت ناظرة اليهن من خلال نفسهـا البريئة ترى جانب العذر ، فإن استحال التمست لهنّ من الله الهداية .

على أن مثيلاتها من الأرامل يغرنَ غيرة قاتلة من العصريات ، بـــل يمقتن

الناشآت والناشئين ، فيتناولن الجيل الجديد بكل فرية ، فلا يدّخرنَ تهمة ولا سباباً فكأنهن يندبن شباباً فاتهنّ منه اللباب فما أدركن سوى القشور .
ولقد عرفت واحدة من الارامل الناقمات التي تشيح بوجهها عن الزنود والمعاصم والأجياد العواري ، تحرّجاً وفراراً من التجربة . ولقد كنت موقناً انها ترتاد السينما مرتين كل يوم بعيدة عن أعين الرقباء فأحببت ان أطلع دخيلتها ، فحدثتها عن الزواج بأرمل أبتر مُوسِر ، غير شحيح الكف ولا كليل القوى ، تهافت عليه العذارى فيمتنع منهنّ ويؤثر عليهن أيّماً شفّها الحرمان فافتقدت نعمة الزواج . وتكلفتُ الجد ، فضربت لها موعداً للتعارف عندي ، فما تخلفت عن الموعد لحظة واحدة ، وكان الباب مفتوحاً فبشرتني بمقدمها رائحة العطر ، لان الزاهدة القانتة ، كانت قد ازّينت وادّهنت وضفرت شعرها ، وطمرت أخاديد وجهها بالابيض والاحمر ، وذنّبت الكحل في عينيها ، ووصلت أهدابها بأهداب مشتراة بمال الربا الفاحش تنتزعه من صغار الموظفين ، ولكنها قد حرصت على ستر الترقوة وما يليها من الصدر ، لا حياءً ولا احتشاماً ، بل إخفاءً لعاديات الزمن في ذلك الخريف من عمرها ، اذ كانت صبيّة في إبان الحرب الكونية الاولى ، فأغوت نفراً من قادة الأتراك ، فانفرجت أمامها سبل العيش ، على ضيقها يومئذ ، وحفلت خزائنها بالقمح والناس جياع يلتقطونه من القمامات ، وشربت بالكأس الرويّة فأتت على ثمالتها . ولشدّ ما كانت خيبتها اذ عرفتني مازحاً ، فسألتُها ان تكفّ لسانها عن الجيل الجديد .

النقائض

ولمّا قمنا إلى المائدة طرق الباب ثلاثـة نفر قدموا من قرية مُتاخِمة (للغابة) ، وقد عودّهم ابراهيم غشيان مائدته في كل يوم أحد ، بدون ما حاجة الى دعوة، شأن الكرماء من وجهاء الريف، سِماطهم وَقـْفٌ على النزلاء وكان الشبان الثلاثة أشقّاء متشابهي الملامح ، متنافري الأمزجة والطباع . فكان كبيرهم ماجد ممعناً في الرصانة ينهج في الحياة نهجـاً لا يُبدّل ، فهو حرب على كل جديد ، قد ألف العيش الراتب والخط المستقيم ، جاهلا انه ليس في الحياة أخصر الطرق كما هو في الهندسة . وان سنّة العيش تختلف عن الرياضيات ، فهو شاب بطيء الحركة ، بليد الفهم ، عدو المفاجآت ، متزمت في زيّه وحديثه ، فكأنه ينصب نفسه قدوة لسواه ، تجده منقبض السيماء ، جامد النظرات ، فمحيّاه سواء في العرس والمناحة، إنه لـعبدُ العرف والعادة، يسير كالقطار في خط سويّ ، هارباً من إنسانيته ليصبح شيئـاً مُحنـّطاً لا حرية له ، تلك فِرّيسيّةٌ ما أنزل الله بها من سلطان ، إن هي إلا مسخٌ للذات ، فإن تكلم فبلسان الجمهور إذ يتلقى حياته من الجماعـة ، ويأتمر بأمر الغوغاء ، ويخاف الرأي الأصيل فراراً من التبعات ، ويأخذ على النابهين أصالتهم كأنه يستخفّ حلومَهم ، ويرميهم بالطيش ، لأنه منقبضٌ حَذُور ، فيَسِمُه الناس بسمة الحكمـة ، وما هو إلا آبِقٌ من نفسه استرقـّه الشكل والصيغ البالية ، صنم عابد أوثان ، ينقد النابغين حسداً ورياء ، ويريد بهم الهبوط الى مستواه ليزيد في عدد العقماء . وقد يكون هذا الرجل وأضرابه ، من ذوي النية الحسنة ، ولو غلوا في جدّهم ، بيد ان الكمال يستعصي عليهم فلا يتأتى لهم حفظ النظـام بدون نقصان فتراهم يحاسبون أنفسهم حساباً عسيراً ،

ويضطهدون أجسادهم ندماً وتكفيراً ، والله أرحم وأرفق بعبـــاده مما يتوهمّون .

ولقد عرفت لصاحبنا ماجِد نظيراً من رجال الدين فاحترمت قنوتَه ، على انه لا يخلو من الوسواس ، او من العُصاب في رأي العلمـاء النفسانيين ، فلقد أيقنت ان ذلك الكاهن الورع يضطهد جسده ، فاذا نزل ضيفاً على قرية يؤدي فيها رسالة الواعظ أعرض عن الفراش الوثير ، واستلقى على الحصير ، غير مبالٍ برد الليل وصقيع السَحَر . وأخبرني احد الثقات أنه شهـده في ساحة الكنيسة يدمدم ويطارد أطفـــالاً ذكوراً قد روّعهم فأطلقوا سوقهم للريح مذعورين ، فسأله احدهم في ذلك ، فاستنزل غضب الله وملائكته على أهلهم لأنهم يلبسونهم (البنطلون) القصير ويُعرّون زنودهم للشمس والهواء ، فقال له الرجل : ما أراك يا أبانا المحترم إلا مغالياً ، فانك لتجد الخلاعة في كل شيء ، ويرجـــح عندي انك في طفولتك فاجأت احد أهلك عارياً ، فأصبت بنكسةٍ عصبية ما تزال تريك الخطيئة حيث ترى جسداً ، فلو أخذ الناس برأيك لجلّلوا جسومهم بالسواد وساروا في الشوارع قبوراً فاحمة تتعثر بأذيالها . ثم انك تطيل عظاتك حتى يأخذ الكرى بأجفـــان الصابرين على مضض . وتحاول الصلح بين خصوم ولست كفؤاً للإقناع فإن أبوا رشقتهم بالحرم . وتأخـــذ على رؤسائك المآخذ فتريدهم ان يدعوا السيارات الفخمة ويسيروا على أقدامهم ، او يركبوا الحمير ، مقتصرين على الخَشِن من الملابس، والجَشِب من المطاعم ، ولسان حالك يقول : فليَقتدِ بي اولئك الأحبار ، وهذا لعمري منتهى الكبرياء ، وانت أعلم الناس بأنها رأس الرذائل ، فاعلم يا أبَتِ انه لو جاء المسيح العـالم اليوم لساير الناس في ما عدا الخطيئة . ألا ترى انه شهد العرس في قـــانا الجليل ، حيث أتى معجزته الأولى ، فحوّل الماء خمراً ليسرّ المتكئين ، وكان يجالس العَشّارين والخطاة ويؤاكلهم ، فلمـا عوتب في ذلك أجاب : إن المرضى لفي حاجة الى طبيب لا الأصحّاء . ولقد غفر للزانية وأنقذها من الرجم ، وطهّر المجدلية بعـــدَ إذ كانت بغيّ

إسرائيل الأولى ، فرفعهـــا الى أعلى مراتب القداسة ، وأنت يا أبانا المحترم تنفر من الناس فتنفّرهم ، وتؤنبهم وتكفّـرهم ، وتخشى على نفسك الفتنة اذا لمحت صبياً سراويله لا تكنس الغبـــار ، ولا أراك إلا لوّاماً عابساً مهدداً بجهنم النـــار ، تُحدر اليها من تشاء حين تشاء ، كأنها في قبضة يدك ، فأين أنت من بشاشة القديسة تريزيا التي أصيبت بداء السلّ وهي في ميعة الصبا ، فما تجهّمت ولا تذمّرت ، بل استمرت في عمل المطبخ الشاق وغَسْل الآنية وكَنْس الغبار لعوبةً ضاحكة ، مرتّلةً كالقبّرة ، حتى انقطع آخر وتر في لُهاتها ، فلفظت أنفاسها مع فِلَذ رئتيها .

واعلم يا أبانا الذي يحاول صيد النفوس للمسيح ، تمثّلاً بالقديس بطرس ، أن الطعم الذي تضعه في الشصّ ينفرُ السمك لشدة مرارتـه ، فلو ألقيته في ساحل بيروت لهرب السمك الى قبرص أو الى مضيق الدردنيل ، فاذا طاردته استمر في الفرار حتى يبلغ القطب الشمالي مؤثراً صقيع الجليـــد وجوار الأسكيمو على جوارك . ولقـــد أجاب المحترم على نصيحة الرجل بغضبة الوداع وانصرف مزمجراً .

ومن هذا الطراز كان ماجد وسواد أهل قريته ، على ان الكاهن كان تقيّاً متقشّفاً زميتاً ، أما هم فكانوا نظائر أهالي الغابة عبيد المظاهر ، يعملون في السر ما يجزعون من فعله في العلانية . يعيشون في ازدواجيـــة الفريسيين ثعالب وقبوراً مكلّسة ، تُرى من الخارج بيضاء وداخلها عظام ونتن ، يغرقون في التوافه اليومية ويتهرّبون من كل تبعة ، فاذا حاول أحدهم إبداء رأي خاف مَغبّته ، فاستهلّ الكلام بعبارة يقولون في القرية كذا ، أو يزعمون ما هو كيت وكيت ، فهو يأبى الخروج من الطفولة الى الرجولة ولو شاخ ، فما يفتأ يذكر بالخير عهد الصّبوة اذ كان يغطّي رأسه باللحاف جزعاً من الغول تخوّفه به جدته العجوز .

بيد ان هذه المآخذ على مَاجِد وأضرابه ليست من قبيـــل الطعن على

الرصانة في نفسها ، اذ لا بدّ من الجدّ في شؤون الحياة فان الخفة تفسد القيم، وتذهب بالحرمات والمقدّسات ، وتزعزع الضمائر ، فلا تقيم وزنا لحقيقة ، ولا ترعى ذمة ، ولا تبرم عهداً .

أما الرصانة البغيضة فهي البلادة والتحجر والانغلاق ، بدلاً من الانفتاح ، اذ تحلّ القسوة محل الرحمة، كما وقع للسيد المسيح إذ شفى المخلّع يوم سبت، فتذمر الكتبة والفريسيون عبيد الناموس ، فزجرهم قائلاً : ان السبت وُجد للإنسان ولم يخلق الإنسان للسبت ، فالرحمة فوق النظام ، وقيمة المرء تتعدّى هذه الأقنعة المزيفة ، وأن مـا يدخل فم الإنسان لا ينجّسه بل العكس هو الصحيـح .

الحياة الصحيحة تقتضي الخلق والجدة والمرونة فمن أبى إلاّ ان يكون جلفاً غليظاً صحّ فيه قول القائل :

يا جبلاً من جبـل في جبل فوق جبل

أما زهير شقيق ماجد فأولى خصائصه انـه لم يعاشر مدى عمره إلاّ الساقطين والساقطات ، فكان يفرّ من الطبقة النخبة فرار الخنزير من النظافة ، ترى الأوباش السفلة يحيطون به احاطة البحر بالجزيرة وكان لأخيه ماجدنقيضاً مُتفلّتاً من النظـام والعرف ، معتبراً ان المرء هو نظام نفسه ، غير آبـهٍ لماضيه ولا شاخصاً الى مستقبله ، يعيش في حاضره ، فهو ابن الساعة مستقلّةً عن أخواتها ، ينتهبها انتهاباً ويُترعها باللذات كأنها آخر ساعة من عمره ، فلا يقرُّ على امر ولا يخلد الى راحة لأنه متفتح لاستقبال كل جديد ، شأنه شأن العابر في حقل ربيعي ينشق من كل زهرة أريجها ، وسرعان ما يتركهـا الى سواها ، يعاف غداً ما يشتهيه اليوم ، نظرته الى الحياة كنظرته الى مسرح هزليّ ، او الى بيادق الشطرنج يبدّلها على هواه ، فهو مغامر لاعِب أبداً ، غزير الحيوية، وثـّاب رجراج . وقد أخذ عليه عارفوه إسرافه وتكليفنفسه فوق طاقتها سعياً وراء الغواني ، أحبهنّ اليه أقربهنّ مَنالاً ، مذهبه مذهب

ابن ابي ربيعة ، فاذا عاتبه الندامى في معاقرة الصهباء والعزوف عن التفكير في الغد استشهد بقول امرىء القيس : اليوم خمر وغداً أمر . يغرق نفسه في الملذات لئلا يواجه ضميره ، فهو يفزع الى خارج وجدانه صادقاً لا متكلفاً كما قال المتنبي :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر   فزعت منه بآمالي الى الكذب

وليس أقدر منه على هضم البشاعات ، ولا أضعف منه حيال الفواجر ، تجتذبه أية أنثى تبتسم له ولو نزّ خدّاها صديداً فاسودّ وجهها واكفهرّ جيدها كعمود المدخنة ، وانها لتستعبده فتفرغ جيبه وتمتص دمه وشبابه ، وتقصيه عن الزواج الحلال ، كما أقصت أُختها الحية آدم عن جنة عدن ، ولقد عذّب أباه فأفقره ، ونكس رأسه ، وقصّر حياته ،ومات أبوه صامِتاً لئلا يفضحه، وهـــو يخشى الانطواء على نفسه لئلا يعتدل او ينتهي . لذلك تراه يفرّ من الوجود الحق متوهماً انه يبلغ الحرية وإن هي إلا الفوضى والانفلاتية التي تبدّل الأقنعة،وما يزداد مرتادُها إلا عَمَهاً وضلالاً،فمن كان في ريب من ذلك فليسأل أتباع سارتر ومن جرى مجراهم في العالم . ومما يؤسف له ان العدوى قد استشرت وكان زهير واضرابه من رماياها . ولقد ثارت الأقلام في الأمس البعيد للرجولة فازدرت المخنثين ، ولا سيما غلمان وادي العقيق ، ولتجدّن في الحانات او القاعات الهُوَى ، في بيروت ، ألف وادٍ ووادٍ للعقيق .

وما كان ثالث الاخوة شرّهم ، فلقد طابق اسمه فعله ، فهو جميل وجهـاً وخلقاً ، وبحسبه من الاستقلال الذاتي انه لم يتأثر بأخويه . وما أكثر الإخوة، بل التوائم الذين يعيشون متقاربين في المسكن والمطعم والمدرسة ، ويظلّون متباينين في السلوك والصفات ، فبينا نرى أحـد التوأمين سمحاً شجاعاً أبياً نجد الآخر جلفاً دنيئاً وحسوداً لئيماً ، يحسد الناس على حبة خردل ، صغير النفس ، كثيف الوجدان لا همة له ولا ذمة .

وكان جميل قد نكّب عن طريق أخويـه ، فصدف عن بلادة ماجد ،

وتنزّه عن فحش زهير ، فسلك سبيلاً بعيداً عن الجمود والخفّة معاً ، وهكذا كان في خلق نفسه عصامياً لا غريقاً في الزمن كسولاً كأخيــه ماجد ، ولا مبدّداً حياته في الساعة الحاضرة كزهير ، بل ملتفتاً الى الماضي على انــه نقطة انطلاق مثلما يعتمد الطائر على الغصن ، قبل ان يسلم جناحيه للهواء . يلبي نداء المستقبل غير متنكـّر للحاضر ، جاعلاً من وجوده وجوداً موصولاً منسجماً مع نفسه ، غير مشتت في الملذات ، ولا هارب من ذاته، ولا مختبىء وراء القوالب الجاهزة والـ (يقولون كذا) . يحترم النظام ويجاوزه الى ما هو أسمى غايةً فتبقى شخصيته قائمة بخصائصها ، فلا خوف عليه من الذوبان لأنه ينطلق من داخله غير مرتهن بالظروف الخارجة ، إنــه ادّرع بالروح فما يأبهُ للحرف ، وفتّح صدره للمغامرة الخيّرة فطوى حناياه على الشجاعــة ناذراً للحق نفسه . ألم يقل السيد المسيح من أراد ان يحيي نفسه يهلكها ومن يهلكها من اجلي يحييها .

من مثل هذه الفئة السامية كان (السوبرمن) لا سوبرمن فريدريك نيتشه الذي أعلن موت الله ، بل قوافل الأبطال من الشهداء والقديسين ، على تباين الملل والنِحَل وفي مختلف العصور .أولئك الميامين الذين أدركوا أن في الإنسان ما يجاوز الإنسان ، وأن في طبيعته ما يفوق الطبيعة ، وأن في الكائن الحيّ سرّاً يتعدّى حدود المنطق الجامد الذي يصحّ في المعادلات الرياضية ، فأين تعليم سقراط من موت سقراط شهيداً للحقيقة . قال السيد المسيح أنا الطريق والحق والحياة ، ولم يقل تعالوا أدلـّكم على السبل المفضية الى القيم لأنــه هو القيم ، فمن التمس المثل الأعلى في مذاهب الأنبياء والفلاسفة وعظماء البشر كان نصيبه من الحقيقـــة دون حظ الناظرين الى القيم العظمى منبثقة من هؤلاء الأبطال ، سواء أ كان العظيم بولس الطرسوسي أم علياً بن أبي طالب ، أم المهاتما غندي .

الحرية

وجلسنا الى المائدة وكان الجوع قد فعل فعله فسكتنا عن الكلام المباح وغير المباح ، ملبّين غريزة الجسد الأولى ، فتوالت الأيدي على الصحاف ريثما خمد الجوع وقطع الصمت كناريٌّ في قفص مُذهّب معلّق على الشرفة لم تكفّ لهاته عن التغريد لحظة ، فقال ابراهيم هـذا نشيد الترحيب فهنيئاً مريئاً ، فقال عباس بل هو نشيد الاستغاثة ، فهذا الشاعر العسجديُّ الريش والمنقار ثائر على السجن ، اذ يرى الحمام طليقاً ينقلْنَ على السطوح أزواجاً وفرادى ، فيُصبنَ مما بسطه الفلاّحون في الشمس من البُرِّ والعدس وانواع القطاني جميعاً ، ويهدلْنَ حيثما يطيب لهنّ الهديل ، ساجعاتٍ زاجلات متمرّغاتٍ في الرمل حيناً ، واردات أصفى الجداول أحياناً ، وربما حسد الحسّونَ المرجانيّ المنقاد مترجّحاً على سنابل القمح شادياً ، أو غار من القبّرة واقعةً على الكلأ بعد رفّ الجناحين وأنشودة الصباح الطرير ، أو من الشاهين وقد ضمّ جناحيه وانقضّ صاعقـاً ، أو من الطاووس مُنَضَّد القصب ، تيّاه الذنب ، مخمليّ الصدر والخوافي ، تلبّس من مَبَاهج الربيع سربالاً وهّاجاً ، ودرج في ساح الملوك ينشر عقياناً وعاجاً وديباجاً . ولكني لا أحسبه غابطاً دجاجك يا ابراهيم لأنه يلتقط النفايات ثم يأوي الى القنّ ، ولا هذا الديك الأزهر ، لأن فحولته تبرز في الدجاج لا في العقبان ، فاذا صاح فهو مضرب المثل بأن كل ديك على مزبلته صيّاح فلا جرأة له في الصياح على سواها . ولكن حبيسك ربما غار من هذا الحجل الأليف الذي يدرج على الشرفة ، أتراه ذكراً ام سُلَكة تصيد عليها الحجلان يا ابراهيم .

فقال ابراهيم بل هو ذكر ، وإني لأكره الغدر واتخاذ الأنثى قوّادة تجتلب

الذكور الى الكمين ، وانما الصيد كالخمر ، يُبرز ما في باطن الصيّاد من دناءة ونبل ، وسخاء وبخل ، وأنفة وطمع ، وصدق وكذب ، ووداعة وعنجهية. وأين براعة الصيّاد في قنص خلا من لذة المغامرة وعزّة المهارة ، فاقتصر على الختل والقرم الى اللحم ، ألا لا أشبع الله بطون الصيّادين الذين ترين الشراهة على بصائرهم، يعدلون عن الرياضة الى الأكل .

فاعترض ماجد على هذا الحكم الذي يخالف منطقه لأنه كان بطيناً ، بل كان معمل هضم على حد تعبير أخيه جميل ، فما إن تناول القهوة بعد الغداء حتى ارتمى على المقعد يغطّ غطيطاً هو بالخوار أشبه منه بالشخير والنخير ، فقلت لأخيه جميل : اذا كان هذا فعل أخيك في النهار فكيف شأنه في الليل، وهنيئاً لزوجته بهذه الموسيقى الفريدة . فقال انه يرقد وحده في غرفته ، وبرغم إحكام قفلها أُضطرُ لإقفال غرفتي وسدّ أذنيّ بالقطن ، إذ يسمع له أطيط وغطيط ، وهمهمة وغمغمة ، ولو اطّرَد النغم لهانت البليّة فألِفها السمع واسترخت الاجفان للكرى . ولكنه النغم الحافل بالمفاجآت من صعود وهبوط ، ونشوز وانحراف إذ يختلط البيات بالصبا ، والرصد بالنهوند والنكريز بينهما الحجاز كار . اما زوجته فقد هجرته منذ ستة اشهر ، فسألته عن سبب الهجر فقال زهير : لا يخفى عليك ان المرأة تهوى الشجاعة في الرجل ، وماجد أجبن من الأرنب ، وتحب فيه الكرم وأخي شحيح يتهمها بالإسراف اذا قدمت له القهوة حلوة . ولقد زلّت بها القدم فأفلت الفنجان من يدها مرة فانكسر ، فغضب وشتم وتفجّع ، واستفاضت قريحته في تأبين الفنجان الفقيد حتى تجمّع الجيران على السطوح وظنّوا بامرأته الظنون ، كل ذلك ، مضافاً الى كسله وانزوائه في بيته ، أقصى عنه زوجته وما أحسبها تعود اليه أبداً .

أم الضابط

وبينما نحن في صدد مَناقب ماجد اقتحمت علينا الباب امرأة في العقد الخامس من العمر ، قد تكاثف عليها اللحم وتراكم فتهدّل خدّاها وعنقها ، وتراخى معصمها ، على قصر في الهامة ، وحَوَص في العينين ، ونتوء فـاضح في الأنف مما يذكر بسيرانو دي برجراك ، فنهضنا بحكم المجاملة ، فأبت إلاّ مصافحتنا والإطالة في الاستعلام عن الصحة والعيال ، متّبعة نهج ابنها الرقيب في الدرك حين يقوم بتحقيق جريمة .

واستهلّت كلامها بالثناء على ولدها وهي تسميه (الظابط) وتنسب اليه استقرار الأمن في المنطقة التي يتولاّها ، وتحدّث بنباهة حفيدها وهو بعد في الرابعة من العمر ، فتسهب في وصف ذكائه الخارق ، وصولته على أترابـه لاعباً ، وتفوّقه عليهم في روضة الأطفال دارساً أدهش المعلمة والناظر فاستحق من الأوسمة ما ناء به صدره الصغير ، فكافأته بحذاءٍ لمّاع وقبعة من حرير . ولم تلبث في (البهو) إلا قليلاً حتى دخلت المطبخ ، وأعدّت لنفسها(نرجيلة) زانت صينيتها بالورد والسوسن ، ثم اقتعدت كرسيّاً حيالي ولفّت ساقاً على ساق ، أو ركزت هرماً على هرم ، وطفقت تعدّ العقارات التي اشتراهـا (الزابط) النزيه في القرية ، زاعمة أنها أربت على تركة لقمان ، وجيه القرية بالأمس . وكان لقمان مضيافاً نبيلاً ، يقوم بيتـه مقام الفندق ، وقد يغصّ منزله بالزائرين فينزل هو واهل بيته عن أسِرّتهم للضيوف ، ويفترشون الأرض او المقاعد إكراماً للوافدين . فضاق عباس بهذر أم (الزابط) وقال : بلي يا عبله ، لئن كانت قيمة المرء تابعة لما قد أحرز من التراب فإنك أوفر تراباً من لقمان ، وأوسع كروماً ، ولكن ستمرّ السنون ، بل الحقب ، قبل

أن يحمد صيت لقمان لتزدهر سمعتك وصيت ولدك . وان الفرق بينكم وبينه، عند المقارنة ، انكم أيسرتم بعد إملاق ، فكثرت أموالكم ، وكبر بيتكم بيد ان نفوسكم كشأنها بالأمس ما برحت صغيرة ، وإنه لشرف عظيم لك ولابنك أن تشاركا في خدمة ضيوف الرجل ، واعلمي ان الوجاهة لا ترتجل فلا بدّ لرسوخها من عامل الزمن حتى تصبح طبيعة ثانية بل طبيعة أولى .

فقالت عبلة ، ولكن صاحبك فلان سيُدلّ علينا بأنه اشترى بيتاً جديداً في المدينة ، وها نحن نتغدّاه في الجبل قبل ان يتعشّانا في العاصمة ، ونقضي على زعامته المحلية في الانتخاب إذ لا يخفى عليك ان النفوذ الانتخابي أصبح ميزان القوة في لبنان، فقيمة المرشح مختاراً كان أم رئيس بلدية أم نائباً تعادل ما يتوفر لديه من مال يبذل ، أو دعاة من حملة الخيزران والعصيّ المعقوفة والخناجر وآلات الدمار كأقلام المهوّشين والمرتزقة والمتفيّشين من كل ملة وجنس .

فقال عباس ، لقد صدق، يا عبلة، المثل القائل ظني بغيري كظني بنفسي، فاطمئني بالاّ ان لقمان لكبير تستوي لديه المادة والعدم ، فلا يتنزّل الى الحضيض المُوحِل الذي تغرقين فيه انت وابنك ، فاذا باهى فبأخلاقه ونبوغه وصيته الحميد الذائع . ولكن أنفسكم أنتم ايها الأوادم (الطازجون) تنعكس في مرآة حقارتكم فتنسبون الى لقمان ما هو بريء منه ، وما ذلك بمستغرب على الترابيّين الذين يستقوون بالمادة لأنهم ذاهبون بذهابها ، فدعوا الخالدين يسبحون في الأجواء العلى ، ولكم أنتم ان تستحمّوا في اي مستنقع شئتم .

فثار ثائر عبلة ، وقالت ولكن صاحبك لقمان لم يبلغ المنصب الذي بلغه ابن عمي المتوفّى لأربع سنين خلت ، فلقد أوشك أن يصبح اكبر موظفي هذه البلاد .

فقال عباس : ولقد صدق المثل ايضاً هذه المرة : تباهي القرعاء بشعر خالتها . على ان الفقيد وهو ابن عم والدتك كان من الغباوة على جانب عظيم.

ولم يكن من الرفعــة والخطر بحيث يتنبَّه اليه المنافسون فيتصدّون له ويعترضون سبيله ، شأنه شأن القزم يندسُّ في الجمهور فلا يفطن لدخوله احد، ثم يقفز الى الأريكة قفزاً ، حينئذ ترمقه العيون استغراباً لا إعظـاماً ولا إعجـاباً ؛ ويضحك منه الضاحكون ثم يمضي فلا يدوّن له التاريخ إلا ما حفر على ضريحه من تاريخ الولادة والموت . لأن الخلود يا عبلة ، وقف على العباقرة . اما التافهون والمقـلّدون فشأنهم شأن التنك يعلوه الصدأ ويُطرح في النفايات .

فغضبت عبلة وقالت : أنت ترمينا بالبخل وبيتنا مفتوح للطارقين فضيفنا كثير ، وقد اصبح ولدي زعيمـاً يوفـّق بين الخصوم ، ويلوذ به العمّال العـاطلون فيدخلهم في مرافق الدولة ، مقتدياً بالنائب فلان الذي انتمى اليه المرحوم زوجي .

بلى قال عباس، ولقد كان ذلك البيت يجزل لكم العطاء ، ويا طالما فاخرتم أهل القرية بأن (الباشا) دعاكم للغداء ، أما أن ولدك يقلـّد النائب ، فما في ذلك داعٍ للغرابة ، إذ المرء مطبوع على التقليد شعورياً او عفوياً . وطوبى لمن يحسن اختيار مَثَلَـه الأعلى ، فقد يتمثل بقديس او برئيس عصابة تبعـاً لنظرته الى القيم . وربمـا كان المثل الأعلى غائباً او بطلاً دخل في التاريخ ، او فارساً أسطورياً يلهب الخيال كعلي الزيبق المصري ، والزير سالم ، وحمزه البهلوان، وفيروز شاه الى آخر العصبة . وربما جاوز الاقتداء الفرد الى الجمهور فتحفل حقبـة من الزمن بصيت عظيم يقلـّده الناس ، كما وقع للورد بيرون فقلـّده الألوف من معاصريه بالعَرَج وهم أسبق من الغزلان طفوراً وعَدْواً . وربَّ قديس ملأ عبير طهارته بقعة من الارض فشدَّ اليه الألوف متمثلين به كما وقع للقديس فرنسيس الأسيزي وخوري آرس .

ومن سوء طالع الناشئين اللبنانيين أن مُثُلَـهم العليا يختارونها في التلفزيون من بين لصوص شيكاغو وأشباههم ، وأنَّ النساء يخترنَ أمثلتهن من العاريات

جسداً وروحاً . وليت المرء الذي يتعمد الاقتداء بعظيم يسبر غور نفسه ، ويتفحّص مزاجه ليسير في الطريق المجـدي ، فلا يتمثّل الجبان بعنترة بن شداد ، ولا استاذ الرياضيات بالمتنبي ، ولا تاجر السلع بأبي حامد الغزالي .

الخوري بطرس

ورأى ابراهيم ان نقيل ساعة بعد الغداء ففعلنا ، وصحونا في الساعة الرابعة ، فاذا على الشرفة خمسة نفر بينهم كاهن حسن الهندام، نظيف الثوب، فقال ابراهيم : يا بهزاد تعال أعرّفك بالخوري بطرس الذي طالما حدثتك به، فسررت لهذه المصادفة ايما سرور . وكانت شهرة الرجل قد ملأت سمعي وبصيرتي ، فتقدمت فاستقبلني وجه هو البشاشة كلها ، وبسط يده للمصافحة الحـارة لا للتقبيل ، كُرْهاً منه لتلك العادة الذميمة لما فيها من خشوع وامتهان لكرامة الانسان واحتمال الخطأ بين يد جديرة بالاحترام ويد يهزأ صاحبها من المقبّل ويزدريه لغفلته وحسن ظنه به، فضلاً عما في ذلك من اخلال بقواعد الصحة اذ تقع مئات الشفاه على مكان واحد يتوالى عليه المسلول والمجدور ، والمزكوم والأبخر، والقذر الشفتين الذي لم تدركه نعمة الغسل الا يوم عماده .

ولم يرد في الإنجيل المقدس ما يؤيد هذه العادة ، فلقد ذُكر التقبيل في معرض غسل الأرجل إذ أكبّ المسيح يغسل اقدام تلاميذه ويقبّلها ، وشتان ما يوم المسيح الوديع ويوم الراغبين في التقبيل ، فلئن كان من قبل الرعية التماساً للبركة فللبركة سبيل غير هذا . أما إشارة الاحترام فتقوم بإحناء الرأس قليلاً مصحوبة بتحية الإجلال على نحو ما يجري بين المتحضّرين . وانما الأعمال بالنيات .

وسئل الخوري بطرس في هـذا الشأن فقال ان الذي ولد في مذود البقر وغسل أقدام التلاميذ لا حاجة له بالوزراء على الارض بل حاجته في الخدمة ، وأنا أحقر خدمه بل أنا عبده ، ويد العبد لا تقبل لئـلا يستكبر فيطغى فيهوي الى حيث هوى الذي كان رئيساً للملائكة ومعه رهطه المقربون .

وكان ذلك الكاهن الجليل ، على علمه الواسـع ، وديعاً يجتنب تصدر المجالس ، هادئاً غير أمّار ولا صخّاب. نظيفاً غير مضمّخ بالعبير ولا مُلمّع أظافر اليد طرّاها بالأفاويه فصارت أنعم من الدمقس ، فاذا كلّم سيدة غضّ من طرفه ، او رجلاً خفض من صوته ، بدون تجهّم ولا تصنّع ، وإذا دُعي الى وليمة اكتفى بما تيسّر غير مقبل على القصاع بكلكله ، ولا باسطاً يديه كالعقـاب زفّ جناحيه على فريسته ، ولا يتناول من المال إلا القدر الكافي للقيام بالمعاش البسيط ، عاملاً بقول الكتاب : خادم المذبح من المذبح يعيش ، غير متوسع ولا متأوّل في التفسير ، موفّقاً بين مبدأ المعاش وقول المسيـح لا تعبدوا ربين : الله والمال .

ولقد آلم الخوري بطرس ان يكون بعض زملائه قد عدلوا عن الرب الاول الى الرب الثاني حتى تربت جباههم واخشوشنت رُكَبهم لفرط السجود . وكانت السياسة المحلية الرخيصة أبغض الدنيويّات اليه ، لما تنطوي عليه من المزالق ، وما تثير من الضغائن ، تجدّدُ في لبنان بتجدد الانتخابات العامة ، وما تستتبع من حزازات في النفوس تفرّق بين أبناء الدسكرة الواحدة ، بل أبناء البيت الواحد . فكان هذا الكاهن ، فوق الشبهات ، نزِهاً عفيف اليد واللسان ، يجمع الأولاد المشردين من الأزقة ، ويدرّبهم على التهذيب والكف عن الشتائم وبذيء اللفظ الذي لقّنهم إياه أهلهم الجهلة ، أول مـا همّوا بالنطق ابتهاجاً بانطلاق ألسنة أطفالهم ، مُتباشرين بهذا الضرب من الفصاحة السفلية ، حتى ليندر ان ترى في القصبة التي يرعاها صاحبنا ولداً يسبّ او يسرق او يعذب حيواناً ، فكان يردعهم عن الدنايا ، لا ضارباً ولا زاجراً ، بل مبشّراً بالكلم الطيب والقدوة الحسنة .

وكان علمه وصدره في الرحابة يستويان ، فلقد أنهى الخوري بطرس دروسه الفلسفية واللاهوتية بتفوّق ، وبرغم كونه تومائياً كلاسيكياً فانه لم يتنكر للفسلفات الأُخر ، فصدره يتسع لجاك ماريتان كما يتسع لأميل دركايم ، او مارتان هيدجر ، او جان پول سارتر ، ويسأل الله تعالى هداية الملاحدة .
وإنه مع تقواه وبشاشته الدائمة ، وخفـّة روحه لأبعد النـــاس عن التحجّر والتعصب الديني البغيض ، فكان اذا نفقت سوق الطائفية ونهض الدعـــاة الكذبة للإفساد والفتن ، تصدّى لهم قائلاً : ان المسيح افتدى بدمه الكريم جميع الناس ، وتعالى الله علوّاً كبيراً عن ان يهلك ألوف الملايين من البشر في نار الأبد ، لأنهم ولدوا على هذا المذهب او ذاك فالله غفور رحيم ، وهو الذي يفصل بينهم يوم القيامة في ما كانوا فيه يختصمون .

والأب بطرس متضلـّع من العلوم الإسلامية والبوذية وسواهما ، فضلاً عن ثقافته العريقـة ومعرفته باللغات الأوربية والسامية ، ويا طالما سمعه عارفوه لدى الحوار مع العلماء المسلمين مستشهداً بالآيات التالية من الذكر الحكيم :

« ان الذين آمنوا والذين هـادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (البقرة ٦٢) .

« لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيّ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها » (البقرة ٢٥٦) .

« ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة . ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً » وعلى مثـل الخوري بطرس تنطبق الآية « ولتجدنّ أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدنّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنـّا نصارى ،ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لايستكبرون »

فأبديت ارتياحي لهذا اللقاء المفاجىء فأجابني الخوري بطرس بالمثل فعرفت أن ابراهيم حدثه عني كما حدثني عنه ، فقلت : يا أبانا لقد سمعت الكثير عن مناقبك وعلمك فعلا وجهه الحياء ، وخفض هامته وصوته ، شيمة كبار العلماء ، وقال ، بدون تصنع ، ولا افتعال وداعة قد تخفي أحط أنواع الكبرياء ، « أنا أحد جنود المسيح فأرجو ان يوفقني الى نفع البشر ويعصمني من الزلل » .

قلت أنسمعك هذا المساء واعظاً قال : إن راعي الأسقفية ، انتدبني لرياضة روحية تبدأ هذه العشية ، ان شاء الله ، في الساعة السابعة . وسأضع السكين على المفصل فلا أماري ، ولا أداري ، ولا أحابي الوجوه ، هكذا علمنا الانجيل الطاهر منذ يوحنا المعمدان الذي حبسه هيرودس ثم قطع رأسه وقدمه على صينية هدية لزانية حتى يوم الناس هذا .

وكان الأب قبل أن يتولى خدمة الرعية في سربين ، قصبة القضاء القريبة من قرية الغابة ، أمين سر الأسقف ، وشعر الحبر بتفوق كاتب السر فخاف من البهاء الطالع أن يكسف مصباحه الشحيح ، اذا قارن الناس بين عنجهية الأسقف الغبي ووداعة الخوري العلامة ، فطفق المطران يضطهده ويؤنبه في حضرة الزائرين حطاً من مكانته ليرتفع الرئيس ويتدنى المرؤوس . وكأين من مرة جاءت النتائج معكوسة ، فبرزت الفضيلة وافتضح الجور . ولم يشفع بالأسقف الكاديلاك الفخم والنظر من علُ الى الأتباع ، والنفوذ لدى الوجهاء ، فرأى إقصاء الخوري بطرس الى قصبة نائية قل خيارها ، وكثرت أشرارها ، وتنافرت أحزابها ، متوقعاً ان يتشيع الكاهن لاحدى الفئات فترتفع الأصوات بالشكوى ، وتضيق الأرض بالغريب المبعد ، وهكذا ينطفىء السراج .

بيد ان الأمر جاء على ما يكره الرئيس فلقد سرت قداسة الكاهن الى النفوس كما يسري العبير الى الأفئدة فيفل من قسوتها إذ لا خفي إلا ويظهر ،

ولا مكتوم إلا ويعلن ، والنصر للفضيلة وإن تأخّر ،وبمثل هذه القوة السحرية استطاع القديس فرنسيس الأسيزي أن يروض الذئاب فتبصبص بأذنابها وتلحس قدميه ، فِعْلَ الكلاب الأليفة ، ولعلّ طهارة دانيال النبي هي التي كمّت أفواه الأسود يوم ألقي في البئر بوشاية الواشين ، فلما خرج سليماً وُطرِح اعداؤه في الجبّ وثَبَتْ عليهم الضواري فنهشت لحومهم وتمششت عظامهم.

وكان الخوري بطرس يلتزم في الوعظ والخطابة طريقة بكراً ، إذ يحيد عن الصعيد المشترك ، فلا يهوّل على السامعين بعذابات جهنم حتى لترتعد فرائص الأحداث فرقاً كأنهم يسمعون زفير النار وشهيقها ، ويخيّل إليهم أنه تعالى شوّاء لحوم ، لا همّ له سوى طرح الجماجم في الجحيم لا ربّ المحبة الرحيم ، فكان الخوري يتجه في عظاته الى القلوب والعقول معاً . ولئن تعوّد أن يخاطب الناس على قدر أفهامهم ، فانه كان يجهد لرفع تلك الأفهام الى المستوى الإنسانيّ ، منزّهاً كرامتــه عن الانحدار الى درك الغوغاء ، فتراه بسيط الصياغة ، عميق الغور ، تنزل منه على الينبوع الصافي دونه اليواقيت لمّاحَةً في عين الشمس. وأعجب من ذلك تأثيره في السامعين فكما ان المروءات تعدي فكذلك التقوى .

وقرع الجرس فنهض الخوري بطرس ونهضنا جميعاً الى الكنيسة ،وكان قد تقدمنا رتلٌ من السيارات تقلُّ جمعاً غير يسير من القرى المجاورة ، ومن قصبة القضاء سرعين ، إذ كانوا على سالف علم بالرياضة التي يحييهــا الكاهن الجليل ، وما إن بلغنا باحة الكنيسة حتى شهدنا الناس يتسابقون ويتدافعون بالمناكب لاحتلال المقاعد ، وأومــأ اليهم المحترم أن يكفّوا عن الضوضاء فكفّوا ، ولزم كل واحد المكان الذي تيسّر له . ثم اعتلى المنبر وتناول من جيبه صُحُفاً قد كان دوّن فيها خطبته ، إذ لم يكن من مؤيدي الارتجال ، فكأين من مرّة شهد الخزي الذي تردّى فيه الأدعياء من زملائه ، إذ يُرْتَج عليهم أحيانــاً فيرتبكون ، ارتباك الطائر تلجلج في حبالة الصيّاد ، او يتنحنحون ، أو يتكلفون السعال ريثما يهبط عليهم الوحي ، وهو لا يهبط

على غير الأنبياء ، أو تأخذهم اللُكنة فيحتبس اللسان وأنفاس المستمعين لئلا يتفجّروا ضحكاً فينتهكوا حرمة المعبد . وأغلظ من ذاك وأدهى عثارُهم بقواعد الإعراب إذ يهفو أحدهم هفوتين في اللفظة الواحدة مسيئاً الى الكسائي في الصرف وسيبويه في النحو، ولكن أجسم الأخطاء هو التدهور الى حضيض السياسة ، ما لم يكن الكلام ذياداً عن الإيمان ، أو دحضاً لزندقة صاحب السلطان ، أو تفنيداً لبدعة ، أو ثورةً على نظام جائر يطيح بالأخلاق ويؤازر الفساد ، او يدكّ القيم ليوّطد الإلحاد ، او دفعاً لأمواج الفساد الطاغية على المجتمع التي تذكّر بشرور سدوم وعمورة ، ففي مثل هذه المواقف يكون السكوت إزراءً بالقيم وخوراً في العزائم .

ومما كان يؤلم الخوري بطرس حفلة الصلاة عن نفس الميت ، وطريقة الدفع الجهريّ الى الكهنة ولو في غُلُف مطبقة ، ممّا يذكر بتوزيع الإعاشة في عهد التقنين ، وفي ذلك من ابتهار أهل الفقيد ومذلّة من يجب احترامهم ما فيه ، وفي القول المأثور طريقة العطاء أفضل من المعطى . وكثيراً مايُهمل الخوارنة الفقراء ، ومنهم عائل الأطفال واليتامى والعجزة والمرضى وذوي العاهات ، مع أن جدوى الصلاة وذبيحة القداس التي تقام لراحة نفس الفقيد واحدة ، في العرف اللاهوتي ، سواء أكان مصدرها اميراً من امراء الكنيسة، أم كاهناً قروياً بسيطاً تمجّلت يداه من حَرْث الأرض وعَزْقِها ، وتقضيب الدوالي ، واحتطاب الهشيم .

المآتم

ولقد أصبحت المناحات في لبنان في الآونة الأخيرة مواسم سانحة للغطرسة والتفيّش أكثر من مناسبات الأعراس ، مع أن الفاجعة مَدْعاة للتواضع

والانكسار . ومن الكذب أو الرياء الادعاء بأن الحفاوة يقصد بهـــا إكرام الفقيد ، فإنما إكرام الميت دفنه بعد الصلاة بقلوب خاشعة. أما الأبـّهة فيقصد بها الأحياء ، وتكون في الغالب تظاهرة سياسية يلـّوح من ورائها أهل الميت أو مظاهروهم إلى صولتهم الانتخابية ، يوم تحتك الركاب بالركاب ، فكأن لسان حالهم يقول : هذا حشدنا وآية وجاهتنا في بني قومنا ، وهذا الجمهور عدتنا لليوم العصيب .

ومن شروط المأتم أن يشهده نواب المنطقـــة وان تخلـّفوا ثارت عليهم ثائرة الحزانى فهدّدوهم بالقطيعة والعدوان ، كأنما النواب لم يتسنموا الأرائك للتشريع والنظر في مصالح اللبنانيين ، بل انتـُخِبوا لمسح الدموع في المآتم ، ومشاركة المزغردين في الأعراس وحفلات الختان والتنصير ، وتلبية الدعوات الى الولائم التي تقام نكاية بحزب المغلوبين ، والسعي الدائم لتوظيف العاطلين من الأنصار ، والانتقام من سواهم بمختلف الطرق إذ الغاية تـسوّغ الواسطة . ولا يخفى ان في هذا الرأي الخاطىء الذي يعتمده سواد اللبنانيين ، في نظرتهم الى النواب ، إزراءً بممثلي الأمـــة الذين انتدبهم الشعب للمهمّات الجسام لا للتوافه اليومية .

واني اذكر لك حادثة تؤيد قولي بأن المآتم أصبحت مَثـَابَةً للمظـاهر الفارغة . قلت ما هي قال :

في الأسبوع الماضي رنّ في غرفة منامي جرس التلفون في الساعة الخامسة صباحاً ، فاستفقت مذعوراً لهـذه المكالمة الفجرية ، وتوهّمت في لمحة خاطر عشرات الكوارث المحتملة الوقوع ، فاعترتني قشعريرة ، إذ مرّ ببالي ان ولدي سهيلاً باكـَرَ الأرز مع رفاق له للتزلـّج على الثلج ، وأن أخاه يوسف غدا الى الصيد . وكنت في تلك الساعة مهدّم الاعصاب لمـا انتابني من الأرق بسبب حصاة في الكلى ، فلم أنم إلا في الساعة الثالثة بعـد منتصف الليل ، فمددت الى المهتاف يداً مرتعشة وقلت مَنْ ؟ فقال أنا جهشان . قلت ماذا تريد ؟ قال : العوض بسلامتكم لقد أصبنا بمصيبة كبرى وبملء الأسف أنعى

اليكم المرحومة ورده أم ميمونة ، وموعد الدفن الساعة الرابعة بعد الظهر .
فقلت قبّح الله وجهك أيها الغليظ وألحقك بها في القطار السريع ، ولا أكثر المولى من أمثال ميمونة وزوجها وأولادها الثقلاء الذين كلّفوك إزعاج الناس وترويعهم في مثل هذه الساعة ، كأنك أشفقت أن تفوتنا البشرى فعاجلتنا بمثل فرحة العيد ، او خشيت ألاّ نشهد الجنـــازة فينقص موكب المشيّعين ونحرم التبرّك بوداع الفقيدة الفاضلة فيعتب علينا لفيفها الكريم .

وكانت الوردة التي أذبلتها المنية قد ذرّفت على المئة من الاعوام لانها ولدت في سنة ١٨٦٠ في برج العقرب ، أو بحسب تعبـــير ابي معشر الفلكي ولدت والعقرب شائلة بذنبها . وتلك السنة كانت أشأم السنين على النصارى والدروز بسبب الحرب الأهلية ، التي أضرمها الدخلاء باسم الدين البريء ، والإلحـــاد أفضل من أيّ دين يأمر بالمنكر ، واللبناني ضنين بدم أخيه اللبنـــاني ، ولكن الأيدي الغريبة ، قطعها الله ، أذكت الفتنة وكان شبان لبنان وقوداً لها .

وقد كان دعيبس والد ورده أحد ضحاياها ، وبرحمـــة من الله لم يشهد سحنة ابنته التي جاءت الدنيا ، بعد ذهابه منها بشهر واحد ، فأطلّت على العالم في شهر شباط ، وربما كان عدد أيامه في ذلك العام تسعة وعشرين يوماً ، واللبنانيون يتشاءمون بالسنة الكبيسة ، كما يجزعون لظهور مُذَنّب هـــالي فيعتبرونه نذير سوء ، تقوم فيه أُمّة على أمّة ، ومملكة على مملكة ، وتكثر الزلازل والحرائق والطوفان ، وربما ظهر المسيح الدجّال أو الأنبياء الكذبة أشباه مسيلمة وسجاح والأسود العنسي .

فقال عباس : لماذا غبطت دعيبس والد ورده على موته قبل ان يشهد سحنة ورده أفكانت دميمة ؟

قلت : يزعم الذين أدركوها في صباها انها كانت خنساء وقصاء ، رسحاء مسحاء[1] جاحظة العينين غليظة الشفتين ، مترهّلة الأذنين ، مندحقة البطن ،

---

(١) الخنساء : المرأة التي تأخر أنفها عن وجهها مع ارتفاع في الأرنبة ، والوقصاء : القصيرة العنق ، والرسحاء : الهزيلة المؤخرة ، والمسحاء : الهزيلة الصدر .

ولقد أصيبت بالجُدَريّ فحفر في وجهها الأخاديد، حتى لو كُلِّف الرسام أن يمثل القبح في أنثى لما أتى بأبشع منها ولو ظاهره في الرسم (بيكاسو) وسَدَنَة هيكل البشاعة من جميع اقطار الارض . وقال احد الظرفاء من معاصريها إن هذه الوردة لو طُليت بالعسل لما وقع الذباب عليها إلا مكرهاً، فهي لا نفع منها إلا ان تكون دواء للعفّة ، ولو كثرت مثيلاتها لازداد عدد الرهبان وناذري البتولية أضعافاً .

وكانت العداوة لدّاء بينها وبين الصابون والماء ، فلقد بلغت من القذارة ما لا تبلغه مزابل الربيع ، ولا يعادلها في زَنَخ الريح إلاّ ضريح تكشّف عن جثة بادنة . وكانت الى بشاعة الجسد تجمع شناعة النفس لحقدها على البشر استجابة لمركّب النقص . ويا طالما نعت على الأنيقات حسن هندامهن ، فاذا اغتسلنَ وتعطّرنَ زعمت أنهنّ يتأهبنَ لفاحشة ، كأن النظافة والتجمُّل حرام على المحصنات . وما اكثر نظائر هذه الوردة التي تعرّت من اللون والعبير فبرزت أشواكها حسكاً رهيفاً يدمي الأنامل والعيون .

وبعد عُنُوسةٍ تمادت الى الأربعين ساق القدر الى ورده قزماً وُلد مزكوماً أعشى يدعى كعفوش ، أقعده الكسل عن طلب المعاش ، فنشأ طفيلياً يقتحم الأعراس والجنائز والأندية، فيدير القهوة والماء على النادين ، ويتسقّط فتات الموائد . فزيّنت له إحدى العجائز ان يقترن بالعانس البائرة ، التي أحرزت بقرة حلوباً وأربع نعاج وعنزاً يرعاها وينتفع بألبانها ، فأقدم على الأنثى غير هيّاب ، يحدوه جوع قديم توارثته الأسرة أباً عن جدّ ، ويزعم بعضهم ان نسبه يتصل (بالنَوَر) الشحّاذين الرُحّل ، صُنّاع المناخل والغرابيل ، المسخّرين اولادهم للرقص والضرب بالطنبور والبُزُق والرباب ، ونساءهم لكشف البخت وسرقة الدجاج وماتطول أيديهم من مال ومقتنى .

وكان دعيبس إذا وجد مشقّة في الحلب يرتضع البقرة ويدفع عنها عجلها، ولا يخطر له ببال ان يمسح ضرعها ، فقد ألف السناخة في الأنثى . ولم يَحُل الحول حتى رُزق ابنة أسماها ميمونة تيتّمت في العاشرة من عمرها ، إذ مات

دعيبس بسكتة دماغية عقبت أكلةً ضخمة . ولم ترث إلا اليسير من دمامة أمها وبلاهة أبيها ، بيد أنها ورثت مقداراً جماً من بلادة عمة لها كانت أثقل من الدين مع الربا الفاحش ، وقد تباعد اليُمن عن ميمونة كما نأى العطر عن أمها الوردة .

وغالباً ما يكون الاسم نقيض المسمى ، فيدعون جميلة بشعة يجفل منها القطار إذا باغتته في منعطف ، ورشيدة مأفونةً رعناء ، ولطيفة غليظة جافية ، وأسداً من هو أجبن من الأرنب ، ويسمون العبد جوهراً ، والغبي لبيباً ، والبخيل كريماً ، ويسمون أنيساً من لا يسمو عن الوحش إلا قليلا . الى آخر هذه المتناقضات . فقال عباس أتظن ذلك مقصوراً على اللبنانيين ؟ فقلت بل يتعدّاهم فيستحلي الأجانب اسم كلود ومعناه الاعرج ، وقد يكون حامله شاباً وسيماً ، والارمن يسمون أرشلوز ومعناه الفجر وقد تكون المسماة به غراباً آدمياً . ثم إن من الاسماء ما لا ينسجم مع اسم الاب فيسمون في لبنان مرغريت شليطا ، وڤكتورين قزحيا ، وأولغا شخاخيري ، وأدهى من كل ذلك الأسماء الفنية التي يختارها المغنون والراقصات والممثلات، فيغيرون على اسماء الكواكب وأزاهير الحقل والعنادل ، ولو نطقت هذه الاشياء والعجماوات لتبرأت منهم براءةً صارخة .

وتزوجت ميمونة بأكّار فرُزقا اثني عشر ولداً جرياً على عادة الفقراء الذين يكثرون الاولاد ليطرحوهم في الازقّة عيالاً على المحسنين. وانضمت وردةالى الاسرة بعد إذ نيّفت على الثمانين فكانت عالة على صهرها بل وقراً ينوء به الطود الراسخ ويئنُّ منه الصخر الجلمود فكيف بالقُعْدُد الهزيل .

ولئن كانت (الوردة) في صباها قذرة ، فلقد أصبحت وهي في أرذل العمر جيفةً زحّافة تدنس البيت والدار وساحةالجيران يشيحون عنها بأبصارهم، ويفرّون منها فرارهم من الهواء الاصفر . ولما بلغت السن العالية انهدّ حيلُها ولكن لسانها استمرّ فتياً يدور دوران الرحى يطحن من يطحن ، ويهتر من الأعراض ما يهتر . وكان يطيب لها ان تجلس على أُسكُفّة الباب ، مقابل

الطريق السابلة ، فتقطع السبيل على الداخلين وتصفّح وجوه العابرين ، فتفدحهم بالاسئلة عن أخبار القرية ، وهي لا تفقه شيئاً ولا تعي جواباً ، فيتبرّم بها الرجال ويهزأ بها النساء. ولقد عانى منها صهرها وبنتها وحفداؤها ما تهون عنده الرزايا وإن عظمت ودامت هذه الجحيم سحابة ربع قرن ، فاقترح أحد الماجنين على صهرها إقامة يوبيل فضيّ تذكاراً لشقائه ، وكان عيد البيت الاكبر يوم قبضها الله فسخّر عزريل مصحوباً بكوكبة من شجعان الملائكة ، وسجّيت الفقيدة على النعش ، فتباكى أهل بيتها ، وأرادوا إتماماً للتمثيلية تعميم النعي فأصابني منه ما قد ذكرت لك .

قال عباس : كنت أحسبني أسلط منك لساناً في الهجو فاذا بك تكفّن الراحلة وردة بكفن يشق على الجاحظ أن يأتي بأبدع منه .

قلت ما جاوزت الواقع في وردة ، فان كنتَ قد تقذّرتَ لما ذكرت من سناخة جسدها فأظن أنها – على غير علم منها – سجّلت للبنان سبقاً على الوجوديات اللائي في سان جرمان دي بري .

قال عباس لو أنني كنت مكانك لعزّيت الناعي بمثل ما عزّى به الطبيب الظريف صديقاً له. وموجز الخبر أن الدكتور ش.ي.خ. كان معروفاً بحضور البديهة وخفة الظل ، وكان له في بيروت صديق حميم يسمر عنده مع صفوة من الاصحاب ، ممن يحبون مجالس الفكاهة ويستخفهم الطرب . فتوفيت أمُّ صديقه عن تسعين عاماً أفعمتها بالإحسان والمبرات والقدوة الحسنة . ولقد ابتلاها الله بمرض أقعدها في السنتين الأخيرتين من حياتها فجفتها صديقاتها ، ولا سيما الصواحب اللائي دقّت عندهنّ حاسة الشم ، فكنّ اذا عدنها مرة في الشهر تباعدنَ عن سريرها . وكانت لسوء طالعها محرومة من البنات فليس أكثر منهن حناناً وحدباً على الوالدين العاجزين حين يتنحّى الذكور ، وتشمئز الكنائن ، وينسلان انسلالاً بعد تمثيلية قصيرة يجدن فيها الرياء . ولقد بكاها ولدها وشاطره إخوانه الحزن ، او تكلّفوه يوم المناحة ، وأحجموا عن حلق لحاهم

عشرة ايام ، مسايرة لصديقهم ، على عادة ذلك الزمان . ولكن الصديق المحزون تمادى به الأسى فضاقت صدور أصحابه إذ تعطل مجلسهم ، فلا نكتة ، ولا سمر ، ولا شراب ما دام صاحبهم عابساً دائم العبرات ، كأنما تقمصت فيه روح إرميا ، النبي الاختصاصي في العويل والمراثي . وحاول الطبيب إضحاكه بوسائل شتى ، واستنفد ما عنده من النوادر ، ولكن المفجوع لم يحلّ عقدة جبينه . فاجتمعت العصبة الطروبة الى الطبيب ذات ليلة ، ورموه بالتقصير فاستفزّوه ، فوعدهم ان تكون تلك العشية ختاماً للمأساة ، وانطلقوا جميعاً الى دار الصديق فلما جلسوا قال الطبيب: يا صاحبي من حقك أن تحزن لموت أمك ، فالوالدة لا يقوم مقامها أحد ، ولقد أدّبتك فأحسنت تأديبك وأورثتك مالها وخلقها الرضيّ ، وكنت أنت بَرّاً بها فأنفقت في علاجها ما أنفقت ، وكانت وجاهتك عزاءً لها في آخر حياتها ، ولقد عاشت والدتك عيشة الصالحات ، وماتت ميتة القديسات ، فانتقلت الى السماء ، حيث تلقاها ابراهيم أبو الآباء ، على حد تعبيرنا نحن معشر النصارى ، بلى ان الفقيدة انتقلت مباشرة الى حضن ابراهيم ، ولكن الله يساعد ابراهيم على تلك الليلة .

حينئذ لم يتمالك المحزون من الابتسام ، ثم انفجر ضاحكاً ودعا بالكؤوس والشراب ، وعاود الصحب سيرتهم الأولى .

التأبين المضحك

قال عباس صدقت يا بهزاد ، فكثير من المآتم ادنى الى المسرحيات الهزلية منه الى المناحة . ولقد اتفق لي ان زرت ابن عمي في احدى القرى الجبلية ، حيث مكثت بضعة أيام ، واستفقت ذات صباح على النحيب

والعويل ، فسألت فقيل لي مات فلان وله من العمر خمسة وسبعون عاماً ، بعد مرض لم يمهله سوى أسبوع واحد ، قلت هل جاؤوه بطبيب فقالوا لا ، إن اولاده الثلاثة لأحرص على المال من ان يبذلوه في علاج أب أورثهم كثيراً من المال الحرام ، باغياً على الأرامل والأيتام . قلت هل أتوه بكاهن يزوّده بالأسرار المقدسة ؟ قالوا لا لئلا يجزع المريض من رؤية الكاهن .

وحاولت - على عادتي - أن أقيلَ بعد الغداء فتعذّر علي النوم لفرط عويل النوادب ، والضوضاء الموصول ، وأنّات الموسيقى الكئيبة ، وأبواق السيارات الجمّة تمزّق الآذان وتهدّ الأعصاب هدّاً . فأشرفت من النافذة ، فسألت نسيبي عن مكانة الميت ومقدار نفعه في المجتمع فقال كان لصّاً منافقاً رقيق الدين مثل اولاده . ولكن حب الظهور حملهم على ما رأيت . وهذا يدلّك على حقارتهم ومركّب النقص في طبعهم ، وانما افتعلوا هذه الأبّهة ستراً للدونية ، وقد نعوا نواب المنطقة وثلاثة أحبار للصلاة على ميت لم يدخل الكنيسة إلا يوم عماده ، ويوم إكليله ، وسيدخلها الآن محمولاً على الراح ، ليكون موضوع تأبين ، وقيل انه دخلها مرة في ليلة داجية ليسرق الكأس الذهبية فصادف جرذاً وطىء ذيله فارتدّ عليه فهرب فتقطّر ، وتركت الصرعة في جبينه ندوباً عزاها الى معركة وهمية (دونكيشوتية) خرج منها ظافراً ، فدفعني حب الاطّلاع لأن أشهد الجنازة . ولشدّ ما كانت دهشتي حين اعتلى المنبر أكبر الاساقفة الثلاثة سنّاً . وأخذ يشيد بآثر الفقيد حتى خيّل إليّ انه سيرفعه الى صفوف الطوباويين ، فآلمني هذا الكذب العلني ، بل التجديف على الحقيقة فالتفتُّ الى نسيبي فهمس في أذني ان التبعة لا تقع على الأسقف الذي يجهل كل شيء عن الفقيد ، فالمختار هو الذي اختلق للميت سيرة مزيّفة إرضاء لأولاده ، لأنهم أيّدوه في الانتخاب .

وفي رأيي أن ذلك الاسقف وأمثاله من رجال الدين المصابين بمرض الكلام كثيرون ، وكان أولى بهم ان يقتصروا في مثل هذه المواقف على عظة مدارها آية أو بضع آيات من العهد الجديد ، فيها الحَضّ على الصبر والتقوى ومكارم

الأخلاق، وسوى ذلك من الجمان الذي لا ينفد، ثم يختمونها بتعزية آل الفقيد، وهكذا يظلـّون مطمئني الضمائر فلا يرهقون وجدانهم بالتجديف على الحقّ ، ولا يسخـّرون ألسنتهم للزور ، ولا يتملـّقون أحداً بغية الشكر أو مضاعفة الأجر ، فلا تنتهك حرمة المعابد ، وتجلّ ان تمسي أسواقاً للمزايدة ، بـل بيوت الصلاة والخشوع تدعى ، لا منابر اللغو والباطل ومثار التذمّر والبلبلة وازدراء القيم ، فاذا هم وصفوا اللص بالأمانـــة ، والزانية بالطهارة ، فماذا يدّخرون لتأبين الناسك المتعبّد حين يموت ، وكيف يمجّدون العفة في المرأة القديسة ، وما الفارق بين اختلاق النوادب الأميّات وهذا الضرب من التأبين ينطق به عن الهوى أحبارٌ وكهنة سلخوا سنيّ شبابهم في جامعات أوربا فأعرقوا في الفلسفة واللاهوت ، وأحاطوا بالتيارات الفكرية العالميـة بعد إذ توفـّروا على درس الادب ، فما أكثر ما زرعوا ، وما أتفــه ما حصدوا . ولما رأى ابن عمي نقمتي البادية تأبط يدي وخرجنا من الكنيسة فراراً من سماع شهادة الزور .

وفي طريقنا الى البيت رأيت ابن عمي هارون يبتسم فقلت ماذا يضحكك؟ فقال : ذكرتني العظة التي سمعنا بنكتة وقعت في مزرعة من جنوبي لبنان ، فقلت هاتها ، فقال :

زعموا أن أحد الفلاّحين غدا الى حقله حارثاً، فأدركه المطر غيثاً هتّاناً، ثم عقبه الزمهرير ، ولم يكن ثمـــة غار يأوي اليه ، فابتلّت أسماله فبهظه وقـرُّها ، فجرّ نفسه الى البيت فبلغه وهو على آخر رمق، فلما رأته زوجته اخذتها به الرأفة فتداركته بطبيخ حارّ يكثر فيه الزيت والعجين والعدس والسمّاق، فأصاب منه مقداراً فادحاً أفضى الى سكتة دماغية ذهبت بحياته، فتوافدت النادبات اللائي يبتهجنَ بالمآتم ويتباشرنَ بها ، وابتدأت احداهن فقالت .

فرشتو مخمل مزركش	والمساند من حرير
يا أبو زيد الهـــلالي	ما بقى مثلك يصير

وكان المسكين عائلاً يرقد على الحصير ، فلا مخمـــل ولا حرير ، فانبرت للندب واحـدة من صاحبات الذوق ودفعت النادبة الكاذبة واحتلّت هي مكان الصدارة وأنشدت :

وين عودك وين نيرك وين جرابك للبـذار
وين معولك بينكش سمعناه بكعب الكسار
وما خانتو إلا يمينو بلكن من هلكبار[1]

ثم التفتت الى النادبة الاولى وزجرتها ، وأعلمتها أن مثل هـذه القحة في الكذب تثير الضحك ، والمقام مقام حزن ودموع . ذاك هو شأن سواد المؤبّنين في المبالغة ، حاشا واحداً فعل فعل النادبة الصادقـة، قلت من هو ، قـــال هو كاهن جليل دعي الى مناحة نسيب له ، وكان المتوفّى جلفـاً زُعروراً ، شريراً مشاكساً بغيضاً ، يرتاد قاعة المحكمة كل يوم ، فهو من اولئك المرضى النفسيين المبتلين بحب الانتقام واختـلاق الدعاوى وتعذيب الناس ، لا ينامون إلاّ على مكيدة ولا يستفيقون إلا على فِرية . يومئذ وقف الكاهن الجليل ونطق بما هذا بعض نصه :

أيها الاخوة الأعزاء : لقـد مات فلان فأنا أدعوكم للصلاة عن نفسه ، فاستمطروا له الرحمة لعلّ الله يغفر لنا وله . وانكم لتعلمون عن الفقيـد ما أعلمه من سوء السيرة والدأب في الشر والأذى ، والشغف بالدعاوى ، فلقـد ارتحل عن الدنيا وجيوبه ملأى بمذكرات الجلب والإحضار ، فضلاً عن لوائح شهود الزور ، ومفكرته التي دوّن فيهـا الهدايا والرُشى وسائر المعايب التي ينخفض لها الجبين وتجفّ الحلوق وتنكسر الجفون خجـلا ، فاتعظوا أيها الاخوة وتزوّدوا لآخرتكم غير ما تزوّده نسيبنا الراحل من المآثم وأوراق المحاكم ، وأرجو ألاّ ينهج أولاده نهجه فيكفّروا عن سيئآته ، فلا يطولهم

---

(١) اللكن : هو عند العامة القصعة الكبيرة او الجفنة من النحاس ، وقد أشارت النادبة الى الأكلة القاتلة .

قول الانجيل الطاهر : الآباء يأكلون الحصرم والابناء يضرسون ، وأستغفر الله لي ولكم .

قلت يا هارون لقد أعلمتني ما كنت أجهل من هـذه الشؤون ، فيا ليت الواعظين يدّخرون فصاحتهم لغير مواقف التأبين : فيؤدوا الرسالة الروحية على وجهها السامي ، ويتّقوا العثرات اللسانية التي تبلبل الضمائر أحياناً ، او تثير الهزء في نفوس المستمعين ، قال : هزءٌ وأي هزء ، وأذكر انه لسنوات خلت مات أحد الوجهاء المعروفين بالتقوى وإغاثة المساكين سراً ، لا متفيشاً ولا مستكبراً ، ولا متبرعاً مستجدياً الإطراء وثناء الصحف واعلان التلفزيون ، فانبرى لتأبينه أحد رجال الدين ، وكان مشهوراً بالغباوة واللفظ السقيم ، إذ تستوي على لسانه الزاي والذال والظـاء ، والسين والثاء ، فضلا عن انه كان لحّانة من الطراز الاول ، وقد نصح له أحد زملائه أن يسكّن أواخر الكلمات عند قراءة الانجيل ، لما بينه وبين قواعـد الإعراب من عداوة لا يرجى معها صلح أبداً . وبرغم هذه العقاب التي تثنيه عن الخطـابة ، وقف وأشار الى الفقيد المسجّى في تابوته وقال :

ايها الاخوة أتمنى لكم من صميم قلبي كباراً او صغاراً ، رجالاً ونساءً ، ان تكونوا كلكم مثل هذه الجثة (وهو يريد ان يقتدي السامعون بالفقيد الصالح) . ولما انتهى من هذا التعبير السخيف كَبَت بعض السامعين ضحكهم وضحك سائرهم .

العظة الخالدة

واشرأبّت الأعناق وشخصت العيون الى الأب بطرس فألقى عظتـه الفريدة ، فأوجزها في ساعة ثم وَزّعها كاملة مطبوعة وهذا هو نصها الحرفي :

منذ حوالي عشرين قرناً سمع الرعاة في مشارف بيت لحم ، في الهزيع الأخير من الليل ، هَواتف سماوية يسبحون الله قائلين : المجد لله في العلى ، وعلى الأرض السلام ، وفي الناس المَسرّة . ولطالما سمعت المتذمرين الألى يأخذون بالظاهر ، ناظرين الى الكون من خلال غمامة سوداء يقولون اين السلام والحرب ما تنفك تحتدم نارها ، وملايين البشر وَقودٌ لها في مشارق الأرض ومغاربها . وأين المسرّة والدنيا ما برحت وادياً للدمع ومسرحاً للألم، فلا يكاد يصيب المرء من عسلها مقدار لعقة لاعق حتى يناله من حنظلها ما يُمِرُّ عيشه فلا يهنأ أبداً .

ويزعم الزاعمون ، انطلاقاً من هذا الحكم ، أن مجيء السيد المسيح ، له المجد ، لم يبدّل من الأمر كثيراً ما دام الشر قائماً ، ولكن قبل الردّ على هذا الرأي الخاطىء لا بدّ من التمييز بين أربعة معانٍ تتقارب في الذهن وتتباعد في الجوهر ، وهي السعادة واللّذة والمسرة والغبطة .

فالسعادة ، أو ما يتوهمه الناس إياها ، تقوم بنيل الرغائب . وقد يكون صاحبها معتدلاً يفاضل بينها فيختار ما كان أقلّ خطراً وأجزل نفعاً، وأقرب الى الحكمة . وربما كانت حكمته خُلوداً الى السكون كأن يبتعد عن الضوضاء فيستدفىء في زاوية حميمة شتاءً ، ويقيل في الكنف الظليل صيفاً، وينكبّ عن الطريق العام فلا يزاحم أحداً ، انه جزوع هلوع، ناضب الحيوية، بطيئةٌ عن مَعَارِج المجد قدمه ، قصيرةٌ عن المروآت يده ، فهو أشبه شيء بالآلة ، لا تتحرك إلاّ بمقدار . ذاك هو الإنسان التافه الخامل ، البعيد عن المغامرة والبطولة ، فلا طعم له ولا لون ولا ظلّ . ألا وإن السعادة لا تنزل على المرء من السماء ولا هي كنز يصادفه في الطريق ، بل هي خلق وحزم وخوض صعاب ، فمن خاف شوك الوردة فخليق به أن يحرم العبير .

أما اللّذة فموجز القول فيها انها شهوة الجسد ، ومتعة الحواس ، تلك اللذائذ العابرة لا تشبع النهم ، فكل غواية تفسح الدرب لأختها ، وكثيراً ما تجلب الندم وتفضي بصاحبها الى التقشف، كما وقع لأغوسطين والمجدلية وسواهما

من الذين أطاعوا الهوى فشربوا بالكأس الروّية . أمـا الفرح او المسرّه فمن غير هذا القبيل لانها تتعدّى العالم الخارجي الى أعماق الانسان ، وان لذة الحواس لتستعبد الإنسان فيتمجّن ويتعهّر ويسكر ، فهو قلق أبداً مشتت في الزمن ، تتقاذفه الأهواء فلا يجري الى غاية ، ولا يقرّ على قرار ، ومـا ذلك شأن المسّره ، فإنها الفرح الداخلي الذي يتخطـّى الزمن الى الأبديـة ، فهو الملء الذي لا فراغ معه ، والهنيهة التي يصفها سورين كيركغورد بمـا هذا بعض نصه :

« لهـذا تهللتُ وارتفع صوتي جذلان أقوى من صوت المرأة التي تعطي الحياة للوليد ، وأقوى من ترتيل الملائكة اغتباطاً بتوبة خاطىء ، وأنعم من تغريد البلابل في السحر ، ذلك اني نشدته فوجدته (يعني الله) فما همـني لو سلبني الناس كل شيء ، فنبذني المجتمع ، إنهم لن يجردوني من الفرح فكل ما سواه يهون ، ولقد احتفظت منه بالنصيب الأوفر » .

ومن هنا يظهر بُعْد الفرق بين المسرّة والسعادة الموهومة الـتي يقابلها الشقاء ، وبحسب الانسان ان يتعثر قليلاً في الحياة ليزول كل أثر للسعادة ، كأن يفقد عزيزاً ، او يدركه الإفلاس ، او يذهب المرض بصحته وشبابه . أما الفرح فلا تطوله العوادي لأنه في أعماق الكائن ، فاذا ابتلي المرء بالأرزاء كانت النكبات امتحاناً لصبره وإيمانه ، يخرج منها كما يخرج الذهب من النار صافياً ، ويستعلي على الظروف والاحداث الخارجة ، فتكون البلايا بمثـابة الشمس تُنمي الحياة في الشجرة فاذا لذعت القشور بقي اللباب سليماً .

إذن فالمسرة تخطـّى حدود الطبيعة الى ما وراء الطبيعة ، فاذا تلاقت السعادة والمسرة ، وكثيراً ما تلتقيان ، كانت الغبطة وليـدة لهما . بيد أنهما اذا اجتمعتا لإنسان فذلك لا يعني الاطمئنان الدائم والركون الى الراحة ، فالمرء في نضال مستمر ما دام حياً ، لا ينفك بين مدٍّ وجزر ، فبينما هو من حياته في عرس ، إذ يمسي في مناحة . وإنّ الزهّاد والنّساك والمتصوفين قد

مرّت بهم أزمات نفسية تبعث على القنوط ، لو لم يتداركهم الله برحمة منه ثواباً لما قدّموا من خير وصبر على الحرمان .

ثم ان للفرح وجهاً آخر هو المعرفة التي لا يُراد بها العلم الشائع بل معرفة الانسان لنفسه ، تلك هي الدرع المنيعة التي ترتدّ عنها الدواهي . وأرجّح ان الإمام الأكبر صاحب نهج البلاغة قصد الى هذا الضرب من المعرفة حيث يقول من عرف نفسه عرف ربّه .

بلى إن المعرفة التي ترادف الحقيقة في هذا الصدد لها مقام الصدارة في القيم العظمى : الحق والخير والجمال ، ويقيناً ان ذلك هو الحق الذي عناه السيد المسيح له المجد بقوله : تعرفون الحق والحق يحرركم . بلى انه الحق المحرر من التوافه الدنيويّة ومختلف العبوديات ، وناشر السلام في النفوس مهما اعتراها في خضمّ الدنيـــا ، فتناوبت الرياح واضطرب الشراع . ومن ذلك الفرح الذي يُشيع السلام في المرء فلا بدّ للنور من البزوغ ، وللمحبة من التـــألّق . والمحبة هي ركن الإنجيل وعماد المسيحية ، فلئن رانت عليها المادة في عصر الناس هذا ، وتنكّر لها سواد المسيحيين ، الذين إنما هُم كذلك في سجلاّت الإحصاء فحسب ، فإن المسيحية الأصيلة لم تنقطـــع بعد عن وجه الأرض ، وإن في العالم ملايين من الناس المؤمنين بالمحبة .

وأرى قبل ان أحدثكم عن هذه الفضيلة الركن ، أن أُنبّهَ خواطركم الى نقائض المحبة التي تغطّي عليها فتخنقها في الصدور ، كما يطمسُ العلّيق التربة الجيدة إذ يلتفّ على الغِراس اللدان فيئِدُها وأداً . وإن ألدّ أعداء المحبـة الكبرياء ، والزهو الباطل أو الخيلاء والفراغ ، أو الغرور ، والغرور ضرب من جنون العظمة يأخذ المبتلى به شيء من الدوار ، فيعتدّ بنفسه فلا يسترشد برأي نصوح بل يصم عن الهدى أذنيه ، ويتمرد على أبويـــه فيقرّب أجلهما ضارباً بالوصية الرابعة : أكرم أباك وامك عرض البحر وسأحدثكم بهـــذه لوصية عما قليل، وكلها معايب تصدر عن بؤرة واحدة ولنسمّها كلها السرطان،

فإن فيه منها مَشابه ، وهو مثلها مُتعدّد المظاهر ، فتارة يظهر في الدم ، وحيناً في الجلد ، وأحياناً في الكبد أبعده الله عنكم .

ألا وان المبتلى بسرطان الكبرياء يستميت ليسدّ فراغ نفسه ، فيتكلف القوة ، ويصرف همّه الى ما يقول الناس فيه فيصطنع القيود لنفسه ويعيش مزيّفاً بعيداً عن واقع الحياة ، فلا غروى ان يتعذّر عليه الانسجام مع الآخرين ، فضلاً عن الاتحاد بهم ، لأنه غريب عن ذاته وعنهم . يبدَؤُهم بالعدوان لأنه وضعهم لسهام كبريائه أغراضاً – على غير علم منهم – فاذا أصاب مَقاتِلهم فأرداهم توهم انه أحرز الفوز الاكبر . فتراه يسلق الآخرين بلسانه ولا يتورّع عن هتك الأعراض والمباهاة حيث لا مواهب، او المفاخرة باجداده ، وكان الأجدر به ان ينكس رأسه خجلاً ويستغفر الله من أجلهم ، لأنهم أكلوا السحت وسلبوا أموال الأرامل واليتامى وغصبوا أملاك القاصرين. ومــا يجديهم ان يتستر آباؤهم وراء لقب شيخ ، أو مقدم ، أو خوري ، فعقاب الخوري أشد لأن من أعطي كثيراً يُطلب منه كثيراً ولأن خطيئة رجل الدين تثير الشكوك ، والانجيل يقول ، ويل لمن يأتي الشك عن يده ، فخير له ان يعلـّق في عنقه حجر الرحى ويطرح في النار . كما يقول انتم ملح الأرض فاذا فسد الملح فبماذا يُملَّح ، ولقــد كان الإسخريوطي تلميذ المسيح وشهد معجزاته جميعاً ولكن ذلك لم يعصمه من الهلاك ، بل هو الشقي الوحيد الذي تجزم الكنيسة بهلاكه وبخلاص اللص اليمين .

فان أصاب السرطان امرأة كان لسانها للفتك أرهف وأمضى ، فلو رأت في مُنافستها جمالاً في النفس والجسد لحشدت قواها جميعاً لترى منها مقتلاً ، فاتهمتها بالغباوة مثلاً ، أو بالتقصير في خدمة البيت ، أو تربية الاطفال فاذا كانت صريعة السرطـان عانساً فهناك يجتمع فراغ الكبرياء والحسد والنميمة والخطايا السبـع الرئيسة ، فلا بدّ من نعمة إلهية خارقة للشفاء .

حقاً إن هؤلاء المرضى لأجدر الناس بالرحمة، إذ لا راحة لهم أبداً. وأنـّى

يكون لهم ذلك وهم لم يستطيعوا استعباد الناس جميعاً ، فلئن ظفروا ببعض أمانيهم فهو انتصار الى حين ربما زال بطارىء مُفاجىء .

فهؤلاء المقاتلون (الدونكيشوتيون) قد غرّروا بأنفسهم وألقوا بها في معترك مُختلقٍ مُفترى ، فأنّى لهم السلام . إن مُريد السلام هو الشهم الذي يروقه العطاء ، لا الأخذ ، والتضحية لا الأنانية . أما هؤلاء المرضى فإنّ عيدهم الأكبر أن تنزل البلايا بسواهم ، وأن يموت الناس إلا نفراً يسيراً يحرثون أملاكهم أو يستعبدونهم في مآرب أخرى ، منها السياسية كالانتخابات والتهويش والتهويل والنفاق وإشاعة الكذب ، ومنها القضائية كشهادة الزور ولكنهم في الغالب يُبطنون غير ما يظهرون ، فيتوددون الى ضحاياهم ، ويلقونهم بثغور باسمة ، ويتملقونهم بأساليب من المداهنة شتى ، ولا يفتأون يروغون منهم ، حتى اذا سدّوا عليهم منافذ الفطنة والحذر ، أطبقوا عليهم فأنشبوا فيهم النيوب والمخالب .

وفي جملة الأسباب التي يسوّغ بها المتكبرون عنجهيتهم فيتألهون ، الآية الانجيلية القائلة : انكم كلكم آلهة ، فيا للغباوة ، ويا للشطط ، وبئس ما يتأوّلون . ألا وان قائلها وُلدِ في مذود البقر ، وغسل أرجل التلاميذ ، ودعا الصغار ليأتوا اليه ، وآخى المساكين والمنبوذين البائسين ، ولم يكن يملك مكاناً يُسند إليه رأسه . وهو الذي قال طوبى للودعاء وما رافقها من الطوباويات ، فقلب موازين القيم ، التي سادت العالم رأساً على عقب ، وما الغنى والحرص بغية الاستعلاء على الآخرين سوى مظهر من مظاهر السرطان المشؤوم . أما العدو الثاني للمحبة فهو الحسد . ومن مظاهره الحذر والتجريح والغدر بالآخرين ، والكيد لهم ، وبسط النير على الأتباع ، وخنق حريتهم ، كأن يحرم عليهم ان يكلموا من خصومهم أحداً .

وعلى الغالب يكون الحسود مبتلى بمركب الدونيّة ، إذ ينظر من أسفل السلّم الى الصاعدين ، فيمضّه نجاحهم ، وتتأكل صدره سعادتهم . ولو انه تمنّى مشاركتهم في السعادة لما أتى أمراً إدّاً ، إذ إن في طبيعة المرء المنافسة ،

شرط أن تبقى مشروعة ، وإنه لحرام على الموسرين أن يبتهروا فيجرحوا شعور الضعفاء ، بما يعرضون من زينة ، وما يبدون من أبهة . وقلّما يخفى الحسود على العيون البصيرة ، فان البركان الداخلي المحتدم في حناياه يبدو في نظراته، وقد يظهر في امتقاع وجهه ، ومن هذا القبيل قيل في هذه الفئة التاعسة إنهم صُفر الوجوه بدون علّة ، ومن هذه الزمرة تجد المشاغبين أعداء المجتمع ومقلقي راحته ، يوقعون بالابرياء ويفترون عليهم الفِرى، يغتابونهم في أسمارهم فيشنّعون عليهم ويخوضون في أعراضهم إفكاً واختلاقاً ولو تبيّنوا أقدار أنفسهم لاعتلّت عليهم حَناجِرُهم ، وتأبّت لَهَواتُهم فأحجموا عن ثلب تهون عنده نيوب الافاعي الناهشة ونواجذ الضباع ترضّ العظام رضّاً . وتلقاهم في باحات المحاكم يدّعون باطلا وبهتاناً ، فاذا استطاعوا تدمير البيوت وإحراقها بنار بغضائهم عيّدوا وابتهجوا كأنهم تخففوا من كربة . إنهم لدعاة الكذب ، وخصوم الحق ، وهدّامو القيم والضمائر . هؤلاء وأشباههم من المنافقين يجدّفون على الروح القدس الذي هو الحقيقة والنور ، الحق أقول لكم ان هؤلاء لا يغفر لهم لا في هذا الدهر ولا في الآتي . أما عدو المحبة المباشر فهو البغض ولا أراني في حاجة الى تعريفه لفرط شموله في عصر الناس هذا ، فكل مجرم مبغض للأفراد وللمجتمع، وكل أناني يضحّي بالآخرين من أجل غاياته الحقيرة مبغض ، وكل مَشّاء بنميم ساعٍ للفتن واضطراب الخواطر مبغض .

واستراح الخوري بطرس هنيهة ثم تابع العظة قائلاً :

وثمة قضية عائلية جذرية خطيرة أُنبّه اليها أذهان النشء خاصة ، ولا أدعوه الطالع فقد يكون الى الانحدار أدنى منه الى الصعود ، وعلى الحالين فان الكلام يستهدف الفتيان والفتيات من أبناء هذا الجيل . وانما هو تذكير بالوصية الرابعة ونصها : أكرم أباك وأمك فيطول عمرك . قلت التذكير متعمداً إذ يتراءى لي ان النسيان قد طواها في ضمائر سواد الشبّان فأصبحت في المُحنّطات التي يُحفر عنها لتظهر ، ومثلها أضحى الآباء والأمهات آثاراً

عتيقة في رأي المُجّان الخلعاء المتنمّرين لأهلهم ، ولا غروى فلقد نزح الإيمان بالله والاحترام للآباء والأجداد – إلاّ أقلّه – من قلوب الموسومين بالعصريين، أبعد الله عنكم ، أيها الاخوة ، داء (التعصرن) الوبيل ، لأنه أفتك في النفوس والأجساد من الهواء الاصفر ، فضحـــايا (الكوليرا) مئات وألوف ، ورمايا (التعصرن) عشرات الملايين. ثم إن (للكوليرا) لقاحاً واقياً ، ودواءً شافياً، وليس (للتعصرن) من دواء سوى الإيمان بالله ولو زِنـَة حبة خردلٍ ، ولكن حبة الخردل أندر من الالماس . أستغفر الله فان شيوع الألماس أيضاً داخل في (التعصرن) إذ هو شارة من شارات الثروة والتباهي ، وقذىً في عيون المساكين والجياع الذين قعد بهم الدهر فألصقهم بالتراب .

وبحسب (التعصرن) داءً أنه أنضب الحياء من الوجوه فتمردت الغصون على جذوعها ، وتنكـّرت لجذورها ، فاعتلـّت الدوالي وصوّحت جفناتها ، فوقف الكرّام ذاهلاً خائباً ، لان تلك الغِراس اللُدْن التي تعهّدها فسقاهـا من عرق جبينه حارثاً، ومن دم قلبه مربّياً كافلاً،تولـّت عنه فعقته أ ّيما عقوق، وما أثمرت إلاّ شوكاً وحسكاً ، فإن جادته بعنقود ظل حصرماً فجّاً ، أو علقميّ المذاق . ذلك أن الفساد في صميمها وأن أدهى الأمراض ما كان داخلياً .

ولن أنسى فاجعة شهدتها لأربع سنين َخلـَت ، ومؤداها اني كنت منتدباً لإقامة رياضة روحية في إحدى قرى لبنان الشمالي ، فجمعتني المصادفة بأرملة فاضلة لقيتها في بيت أخيها مختار القرية ، فآنست منها الحشمة في الملبس ، والرصانة في الحديث ، وكانت في العقد السادس من العمر ، ولكن الهـَرَم باكرها فتغضـّن وجهها ، وضاق صدرها ، فما تتنفس إلا مجهدة كأنما تتخفف من وَقـْر ، فسألتها : أهي أمّ أولاد فأجاب أخوها نعم لها ثلاثة ذكور ، ويا ليتها ظلـّت عقيماً . فهالني الجواب الفظّ فاستوقفته وهممت باللوم ، فالتفت الى شقيقته وقال : تـكلمي تـكلمي فإن الكاهن كالطبيب مؤتمن على أسرار الناس لا يُفشيها، فتنهدت وزفرت زفرة أشفقت أن تذهب بحشاشتها،

ثم قالت لقد مات زوجي شهيداً قتله أولادي وكنت شريكتهم في الجريمة ، لأني أفرطت في الحنان فنوّلتهم رغائبهم ، وأخفيت عن زوجي هفواتهم صغاراً ، فتفاقمت سيئآتهم كباراً ، فقضى والدهم غمّاً . ولقد بعت حلاي لسدّ ثغرات إسرافهم فأثابوني عقوقاً واحتقاراً ، وكنت قد اقتصدت فادّخرت مالاً أنفقت معظمه على أطفال أحدهم، واحتفظت باليسير الباقي فاستلبه صغيرهم واشترى به سيّارة ، والسيارات يا أبانا تكون أحياناً مصايد الشيطان كالنساء الفواجر، وشاء سوء طالعي ان تجاورنا عائلة غريبة ، سيدها زوج ساقط المروءة يغضي عن زوجته الخائنة المحتالة ، فأصبح ولدي الذي أنفق كل كسبه الشهري منذ تقلّد الوظيفة ، وكلما ابتزّه من أبيه بمختلف الوسائل على بنات الهوى وموائد المقامرة والمسكر ، خادماً طيّعاً ذليلا ومورد رزق لهذه الأسرة التي تغطي دناءتها برداء الشرف والأنفة ، وهي أبعد ما تكون عنها . ولا تنفك الزوجة الأفعى اللينة الملمس تفتن ولدي الأحمق بسحرها فيقودها الى الملاهي،فتحول بينه وبين الزواج، وتستدرّ ماله فيبذخ كأصحاب الملايين ويغرق بالديون ، فيستهلك مرتبه الشهري – وهو غير ضئيل – في بضع ليال ، من ذلك المرتب لم ينفق على أبيه وعليّ فلساً واحداً .

ولقد كان في صدره بقية من الإنسان قبل وقوعه في حبائل الماكرة التي اتخذ من عائلتها وحواشيها وضيوفها أهلاً ، وتنكّر لوالديه فغدا جلفاً غليظاً تيّاهاً ، بعد ما نفثت فيه من سمّها فانطفأت في صدره آخر جذوة إنسانية ، وعاد أشبه بالضواري فعجّل موت أبيه الشهم المنقطع النظير ، وأصبح ولدي مخاتلاً كذوباً عنيداً، فصلّ من أجله يا أبانا لعله يرعوي فيغفر الله جرائمه المتمادية ، لأني أخشى عليه سوط عذاب إلهيّ في شيخوخته السوداء ، والهلاك الأبدي في الآخرة ، لا سيا وانه أعدى أخويه فأخذا من عيوبه ما أخذا . ومن العجب انه يداري تلك الأفعى الناعمة فيتحمل رعونة ذويها ، وسماجة أطفالها ، وهو الذي تهرّب من الزواج تبرّماً بالتبعات واستثقالاً للأطفال ، ونفوراً من البنات الشريفات. وانه يهمل وظيفته إهمالاً فاضحاً ليتفرغ للترفيه

عن العائلة الكارثة وأجزع أن يطرد من عمله فيقنط فينتحر .

أما ولدي الثاني فقد استطاع بواسع حيلتـــه أن يستنزف دمي ويكلفني إعالة أطفاله ، وهو أرعن لا إرادة له ولا صبر ولا روح مبادرة . وانـــه يتعمّد ان يحملني همّه كبيراً فما برح طفلاً مسنّاً يتدلـّل على أمه فيرهقهـــا بالمطالب أما ولدي الثالث فأناني ّ يشق عليه أن يعزيني ولو بتضحية تافهة ، وكان أثقل شيء عليه خدمة المرحوم والده إذ لا همـــة له ولا أريحية فهو والضباب سواء . ولا يسوءنـّك أن أخي آثر لو كنت عقيماً فهو عليم بمعايب أولادي الذين يجهلون درب المعبد زاعمين ان الصلاة والإيمان بالله أساطير تقضّى زمانها ، وما كان هذا شأن أبيهم التقي الورع ، فوارحمتاه له ، ولو استطاع من وراء القبر كلاماً لصاح بأولاده : أيها السفّاحون لقد أردت لكم الحياة فأفنيت ذاتي وأنتم أردتم لي الموت ، قالت ذلك وخنقتهـا العبرات ثم أغمي عليها . وعلمت بعدئذ انها قضت بسبب انفجار دماغي فلحقت بزوجها بعد ستة أشهر .

وكأيّن من أبٍ أذاب حشاشته قَلِقاً مُسهّداً ، وتحامل على نفسه موجعاً سقيماً ، ولقي من الحرمان ما لقي ليوفـّر لأبنائه القاصرين عيشاً كريماً ، فما حصد إلا عصياناً وخذلاناً ، وإزراءً وزيغانـــاً ، فتلهّبت حناياه مما يرى ويسمع ، ولئن صرفه إباؤه عن الدمع فإن في كل جارحة منه عيناً تدمـــع وقلباً يتصدّع . فبالإعراض يقابل الحنان ، وبالوقاحة تكافأ رقة الوجدان .

ويتذكر الأب المُزدَرى قول الانجيل : إن أهل بيت الانسان هم أعداء الانسان . ولا يخفى أن أدهى ضروب العدوان هو التفـكك الداخلي إذ يكون بعض أعضاء الجسم حرباً على سائرها فيهلك ربُّ البيت ، ويخرب البيت مِصداقاً لقول الانجيل : كل مملكة تنقسم على ذاتها فهي الى دمار .

وإن الأمراض الاجتماعية التي تودي بأخلاق الشباب لتستعصي على الحصر. فمنها السموم التي تبثهـــا دور السينما في أذهان المشاهدين بما تفشي من خلاعة

وافتتان في الإغراء الجنسي ، وما تبديه الأفلام البوليسية من إبراز المهرّبين والسرّاقين والقتلة بمظهر الأبطال ، فيزداد مع الزمن عدد المجرمين بقلّة عدد المشانق . ويا ليت أُولى الأمر يأخذون بحكمة الفلاّحين في مطاردة الغربان التي تستطيب الصنوبر مزروعاً فتنبشه قبل أن يفتَرّ عنه الثرى وتأكله أكلاً ذريعاً ، فاذا ظفر الناطور بواحد منها علّقه ميتاً على دوحة شامخة او قصبة بحيث يرى جثته رفاقه ، فتراهم ينعبون نعيباً خاصاً ، فينهزمون أسراباً ويسلم الزرع . وانما القتل أنفى للقتل .

ومنها التخنّث أو التمَيُّع ، وهو نقص في الرجولة فاضح لأنه ينطوي على الرخاوة ، والتجرد من الإرادة ، والغرق في الملذات والترف وما يتبع ذلك من إسراف ابتغاء الطيّبات من أسهل الطرق، وخيانة الشرف والأمانة، ولرُبَّ والد أحرز بدم قلبه مقداراً من المال يتقي به عَوَز الشيخوخة ، فخانه ابنه الأحمق ، فأنفق في عشرين ليلة على موائد المقامرة ثروة جمعت في عشرين سنة فطارت بين عشراء السوء وبنات الهوى . ألا وإن يوضاس قد باع المسيح بثلاثين من الفضة وما برح سبّة الأجيال ، والأبناء الفجرة يبيعون أهلهم بلفتة من بغيّ، فما أبخس الثمن يباع به أب شفيق وما أكثر أشباه يوضاس في عصر الناس هذا ، ولقد ندم الإسخريوطي أما نظراؤه اليوم فلقد ماتت ضمائرهم فما يندمون .

ويحضرني في هذا المقام الوصية القرآنية المجيدة « وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلاّ إياه وبالوالدين إحساناً إمّا يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً » « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربّياني صغيراً » فمن تأمّل هذه الوصية بالوالدين وجدها تلي الأمر بعبادة الله ، فما أكرمهما عليه تعالى ، وما أهونهما على السفهاء الأغرار ، فقلّما يلقى الأهل ، في هذا العصر الفاسد ، سوى النهر والزجر ، والتأفف الموصول من نصائح نفيسة ليس أثقل منها على الابناء الذين طغت عليهم الحيوانية ، وران الجهل على قلوبهم فطمس ما تلقّوه في

المدارس من علمٍ ضحل . ولو سلكنا سبيل المفاضلة بين الآباء والأبناء لرأينا الفئة المتعلمة من الغابرين أرسخ في مجـــال المعرفة قدماً ، وأصوب رأياً ، وفي صعيد الاخلاق أوثق عهداً ، وأصفى وداً ، وأبرّ بالوالدين قلبـــاً ، وأصدق قيلاً ، وألين عريكةً ، وأجود كفاً ، وأوفى ذمةً ، وأعزّ جاراً . فبِمَ يتباهى أولئك الجاحدون والإنجيل الطاهر يقول : كل غصنٍ ينفصل عن أمه الشجرة ييبس ، وهم يستخفّون بالشجرة ويحرّقونها جذعاً وجذوراً ، ويذرّونها رماداً .

ويتلاقى القرآن وما أنزل الله على كليمه موسى في الوصايا العشر وهذا نص بعضها :

(١) أنا هو الرب إلهك لا يكن لك إله غيري .
(٢) لا تحلف باسم الله بالباطل .
(٣) احفظ يوم الرب .
(٤) أكرم أباك وأمك فيطول عمرك .

ويظهر ظهور الضحى ان الوصايا الثلاث الأولى مختصة بالله أمّا الرابعـــة فبالوالدين . ولا يحملن أحد كلامي على إطلاقـــه فان لبنان لم يقفر بعد من الأبناء البررة الذين سيطيل الله أعمارهم، لأنهم مدّوا في أعمار آبائهم بما قدّمت أيديهم السخية من غوث وفاءً للأبوّة ، فرفعوا ذوي قرباهم من حضيض المتربة ووفرّوا لهم عيشاً رغداً ، فاغتبط بهم الأهل وعزّوا بعد مذلـّة ، وبارك الله الأولاد فضاعف لهم الثواب ووفـّاهم أجورهم في الحياة الدنيا ، وسيزيدهم من فضله في الدنيا الآخرة .

وانك لترى الأبناء المارقين إذا أُرشدوا زمجروا وعربدوا ، وكان الأجدر بتلك الأصوات أن تتقطع في الحناجر من أن تعلو أصوات الوالدين .

وربّ ولد مخنّث كسول فاتر الهمة يفرّ من الصعوبات الى الأحلام يغطـّي بها العجز عن مُجابهة الواقع ، فلا يقرّ على شأن ولا يدأب في عمل ، فينغصّ

على أبويه عيشهما فما ينامان إلا على قلق ، وما يستفيقان إلا على همٍّ جديد فودّا أنه لم يولد ، ويا طالما أمّلا فيه سنداً وموضوع فخر فصحّ فيه قول الشاعر :

ربّ من ترجو به دفع الأذى راح يأتيك الأذى من قِبَله

وأشباه الرجال هؤلاء تغصّ بهم المقاهي ومنعطفات الشوارع، شأنهم شأن الطفيليات يمتصون الشجرة التي انبثقوا منها فأنضبوا ماءها ، ونخروا لبابها ولحاءها، وخلّفوها خاوية على جذورها، فاذا هوت أحرقوا حطبها ليستدفئوا، فبئس الجناة الأنذال فان كانت لعنة الله قد حقت على قايين الذي قتل أخاه مرة ، فما مصير قتلة أهلهم ألف مرة ومرة بما يسومونهم من ألوان العذاب عقوقاً واحتيالاً وسوء أمانة وابتزاز مال ينفقونه في معصية الله .

وكأن التسابق إلى الإنفاق في هذا العصر المحموم غدا السمت المفضل ، فإن المُجون والخلاعة والنّهم الى اللذائذ المحرمة والذهاب في الانفلاتية شؤون لا حدود لها . بل أصبحت الخطيئة مدعاةً للتباهي فأوجَه الناس أوسعهم في الفجور مدى ، وأعرقهم في الشر قدماً .

فأين رجولة آبائنا ، وعصمة جدودنا وأمّهاتنا ـ نحن مَعاشر اللبنانيين ، وأين نحن من حكمة الشاعر القائل :

والنفس راغبة إذا رغّبتها وإذا تُردُّ الى قليل تقنع

ولست أعني بالقناعة التبلّد والقعود وخنق الطموح المشروع ، وانما أدعو الى التنافس في المكارم وسبل الخير لا في طريق المعايب والشهوات .

ويا ليت الحكومة تعمل على التجنيد الإجباري فتخلق من المخنثين رجالاً تكفيهم عبء الراحة الفادحة ومغبّة الترف ، إذ يألفون المشي فتكتنز سوقهم ، وتلتفّ عضلاتهم ، وتتسع للهواء الطلق صدورهم ، ويتعوّدون الصبر على المشقات من حمل القذائف والبنادق ، فتصلب أعصابهم ويرقدون في الخيام ضيوفاً على الغبراء ، وبذلك يألفون صقيع السحر، وحرّ الهواجر ، فلا تنتابهم

الأسقام اذا نفحهم النسيم البليل ، ويقومون الى حاجاتهم ، ويغسلون أوانيهم فلا يضيرهم المنزل الخشن ، ولا المطعم الجشب ، ولا يؤذيهم الماء الرنق بـــل يرتضون بما تيسّر من أسباب المعاش عملاً بالحديث المأثور : تخوشنوا إنّ النعم لا تدوم ، فاذا عادوا الى بيوتهم حسبوها نعيماً مقيماً ولو كانت أكواخاً ، فلا يعافون طعاماً ، ولا يستنكفون من خدمة ، لأن النظام العسكري علّمهم التقشّف والجَلَد فمـــا يمضّهم الحرمان ، وما يستكبرون بعد أن راضتهم القيادة الحكيمة على التمرّس بالصعاب ، ومجابهة العقاب والإقدام على جلائل الأمور مدّرعين بالشجاعة ، فاذا دعـاهم داعي الوطن هبّوا الى نصرة الحق ذادةً بؤساء ، لا غنماً تفرُّ من الضواري ، بـــل أسوداً تعضّ بالنواجذ على جراحها فلا يشمت بها شامت ، ولا يطمع فيها غاصب .

ومن أمراض هـــذا العصر التمادي في العزوبة ، بل في الزنا الموصول ، والاستمرار في إغاظته تعالى كأنه غائب عن هذا العالم . فأين هم الشباب الذين يقيمون للتهذيب وزناً ، وأين ُهنَّ المحصنات اللائي يستطعنَ الثبات فيَدْرأنَ الكوارث عن هذا البلد ، إذ يَعْترِضْنَ تيّار الأزياء الخليعة الذي لا ينفك هادراً جارفاً يطيح بالأخلاق والمال معاً ، فأصبح سواد النساء ُدمًى تلعب بها مصانـــع التبرّج والتزيين في أوروبا وأميركا ، فتسري العدوى الى جوانب المعمور بمثل سرعة الراديو والتلفزيون ، وتضحي السيدات عارضات أزياء أو معارض متحركة في كل مكان عام تكثر فيه العيون ، حتى لا تكاد تخلو منه الكنائس لولا تشدّد الكهنة ، ذياداً عن الأخلاق ورحمة بالأزواج الأُلى يجرهم بذخ النساء الى الفقر ، وربما قادهم الى السجن اذا اكتسبوا المال حراماً إرضاء للزوجات الفارغات .

المرأة الجريئة المتمردة على الأزياء السافرة أين نجدها فنجعل منها جان دارك لبنان ، فترتدع المسرفات في النفقة والمطالب التي تقصي العُزّاب عنهنَّ ، بما يبدّدن من مال للتبرّج والزينة ، وما يشترطنَ ُمقدّماً من مسكنٍ أنيق ، وسيارة فخمة ، ورحلة الى أوربا وما يلي ذلك من افتنان في التجمّل ، ومن

ليال حمر ، على الموائد الخضر ، فأين العفيفات اللواتي يخشين الله راغبات في بناء العائلة الفاضلة على أرسخ من الصفا .

وانما العائلة العصرية في معظمها سداها الجنس ولحمتها الإباحية التي شاعت في الآونة الاخيرة شيوع الهواء ، حتى ليخيّل إلي أن تخوم سدوم وعمورة امتدت من البحر الميت الى كل بحر ، والى أقاصي الأرض .

ولو كنت من المتشائمين لنطقت بمثل مراثي إرميا في ندبة لبنان الذي كان بالأمس القريب مضرب الأمثال في الخلق المكين ، عهد كانت مناعة جباله ، وحصانة نسائِه ورجاله سواء . وكان اللبنانيون خُلـَّصاً أقحاحاً لا خليطاً متنافراً من دخــــلاء وطارئين ومتعيّشين ومنتحلي هُويّات مكذوبة يعيش معظمهم على الإجرام فيدنسون سمعـــة بلد الأرز ، وينتصبون عناوين قبح ودمامة في وجوه السيّاح، وإنمــا نسبتهم الى لبنان نسبة الغراب الى الحجل وشتّان ما هما . بلى ، شتّان ما بين قواطع الطير وأوابدها ، فهذه تحرِص على أوكارها حرص الأم على ولدهـــا المريض وتلك تعجّل في التهام الحبّ المُدّخر ، ومـــا تبالي بالأعشاش عمرت أم تهدّمت فهشمت البيض والفراخ وأمست الوكون يباباً .

بالأمس كان لبنان حصناً للأخلاق حصيناً ، وعقد الزواج قِراناً مقدساً ثمرته الابناء الصالحون ينمون في عائلة يسودها الفرح ، ويضبطهـــا الاقتصاد مقروناً بالكرم والشجاعة والذياد عن وطن حبيب. في ذلك العهد حقّ القول: هنيئاً لمن له فيه مقدار مرقد العنز . حينئذ كان الزواج ينعقد بعد رويّــة وشورى ونضج مع الزمن ، فلا يُرتجل ارتجـــالاً تلبية لنزوة عابرة كما يجري اليوم عقيب حفلة راقصة،أو لقـــاء في مسبح مختلط ، أو سكرة فاضحة في أندية العار ، تلك القاعات الهُوى ، يتقمّص فيهـــا الشياطين ، باسم الفن ، زُمَر العاريات ، فلئن كان في العصور الخوالي أعياد معلومة للزهرة تُنحر فيها الفضيلة باسم الدين في قلعة بعلبك ، فإن أعياد الزهرة تتجدد في تلك الزوايا

الحَمِئة ، منذ يتصرم الشفق حتى مطلع الفجر ، ولا سيما في تذكار ميلاد المسيح له المجد ، وفي بدء الحول الجديد ، إذ يختتم سالفه بالسكر والمقامرة ويفتتح تاليه بالفجور ، وهكذا يلتقي الطرفان .

ولعمري إن هذه الوثنية الحديثة لأشدُّ خطراً وأدهى على النفوس ، بعد إذ غدا لبنان موئلاً للجوالي من كل ملّة وجنس ، وممرّاً للداعرين والداعرات مما بين القطبين عدا الاسكيمو وهَمَج المَجَاهيل في أفريقيا وأستراليا والبرازيل . وربما كان إحجام الاقزام فراراً من حرّ سواحلنا وتخلُّف الهمج اتقاءً لبرد جبالنا .

في مثل تلك المستنقعات الآسنة يتعاهد الزوجان العبيطان على العيش مدى الحياة . فيا لها معاهدةً أوْهن من بيوت العنكبوت ، وأكذب من برق خُلَّب ، وأسخف من غمامة صيف لا تلبث أن تتبخّر . وما هذا الضرب من الزواج سوى فحش مُعجَّل تلبّس الشرعية ، فاذا انطفأت جذوة الجسد حالت رماداً وطارت الاحلام ، وعادت الزنابق الموهومة شوكاً قتاداً .

ولكم شهدت في حياتي الكهنوتية من الفواجع البيتية ، الناجمة عن زواج منكود ، ما تهون عنده مآسي شكبير ، إذ تستحيل العائلة الى جحيم لا يخمد سعيرها .

فمنها أن شاباً وحيداً كان أمل أهله الوَحَد ، فتظاهر جده وأبوه وأمه على إسعاده ، فادّخروا له ثروة ضخمة فحرموا على أنفسهم اللذائذ النافلة حيناً بل ضروريات المعاش أحياناً ، فشادوا له داراً تليق بالملوك مقاماً ، فنطّقوها بالحدائق الألفاف ، وزيّنوها بعيون ومطافر نضّاخة وأحواض من مرمر مسنون تنصبُّ عليها أضواء الكهرباء من كل لون فَرِح ، وفي يقينهم أن الوحيد المعبود سيعمر هذه الجنة الارضية بحوريَّة يصطفيها من عِلية بني قومه ، تتكلم بلسانهم ، وتدين بعاداتهم ، فلتستقبل ضيوفهم ، وترفع وجوههم فيشيع الأنس وتخفق الحياة في المنزل الأنيق بعد سكونها في صدر الابوين ،

وخمودها في عيني الجد المتهدّم . وتكون اللؤلؤة الكريمة مـــدار إعجاب النساء ، وموضع احترام الرجال بما تنشر من فضائل وما تضفي على المسكن من أُبّهة ، وتكون وأطفالها عنادل البهجة في الفردوس المبتكر الذي ينوء بروعته خيال الشاعر .

ولشدّ ما كانت فجيعتهم يوم باكرهم النجل المرتجى بفتاة نصف عاريـــة نتأت في وجهها البثور كأنها مصابة بالجدري، لونها لون حنش انسلخ من قشرته فالتمع في عين الشمس ، وقد أخذت عن الحية دهاءها ومرونتهـــا في اللفّ والتثنّي توسّلاً لغرز نابها في أعقاب نسل آدم ، بيد أنها بذّت الأفعى الـــتي خدعت أبانا الأول بغنّة في صوتها ، وغنج في لهجتها ، وبأنها لفرط خبثها لا تقتصر على إخراج الرجل من فردوسه ، وتجريده من مقتناه ، وإغراقـــه في الديون ، وتعريته من كسائه ، بل توقع الوقيعة بينه وبين ذويه ، فيخلو لهـــا الجوّ ، ثم تمتص دمه ، قطرة قطرة ، فلا يشعر بألم لأنه مُخَدَّرٌ مسحور ، فاذا قضى ابتلعت لحمانه ، وخلّفته هيكلاً من عظـــام ، كما فعلت بالأغرار الذين تقدموه فملأت منهم المقابر .

ذلك النجل المُرجّى عرف الرقطاء، لثلاثة أيام خلت ، في مرقص مشبوه، فعقد له عليها ارتجالا في اليوم التالي ، ففدح بها أهـــله في اليوم الثالث ، ولم يبق ليونان من بطن الحوت مخرج .

واعترت الجدّ الكلِف بحفيده قشعريرة أوشكت أن تقصف حياته لهول ما رأى في الكنّة الجهنمية التي بصقها البحر أو البرّ في ما يبصقان من النفايات اللائي يتخذنَ من لبنان مسرحاً للأبالسة ، ويجدنَ في أغراره المسرفين من دون بلدان المعمور ، مَعيناً لارتزاق لا ينضب، فإنهن بعد أن ينشرن العـــار والأوزار يَعُدْنَ موقرات بالإثم والليرة والدينـــار . فمن تخلّفت منهنّ تلَبْنَنَتْ فدَقّت مسماراً جديداً في نعش الوطن إذ أضعفت معناه في صدر زوجها الذي لبسه شعاراً فغدا بسببها شبحاً أو تذكاراً .

وكانت العروس النكبة تجمع الى دَرَن روحها، وهي ملحدة عنود، قذراً في جسدها لأنها وجودية تمرّدت أظافرها على التقليم فغدت كهوفاً للأوساخ تتجمع من وَضر اللحم والدسم، لأن الماء والصابون والعطر على جسمها حُرَم، فضلاً عمّا تخبئه تلك الاعشاش من حُكاكة الرأس إذ الغبّية لا تفتأ تحكّ شعرها فلا يمسّه المشط إلاّ في النُدرى .

ولا أفقهُ سبباً لإقبال الشرقيين على تلك الشاردات الغريبات ، حاشا الأجنبيات الغربيات الراقيات علماً وأدبا وخلقاً ، فإن كان شباننا يؤثرون الغريبات العرق واللهجة طلباً لمزيد من المعرفة فإنهن – فيما عدا الخطيئة – أشدّ غباوة من رواعي البقر والمعيز في أنأى مزرعة لبنانية . وإن كان من قبيل الشوق لاكتشاف المجهول والتطلع الى ما وراء الأكمة ، فليس وراءها إلا ما أثاره الوهم والخروج على ما ألفناه من محامد الآباء والأجداد ، وقد أيدته التجارب ورسّخته الحقب .

أما السبب الحقيقي لهذه الضلالة فعَمَهٌ في البصائر يسوق الحمْقى الى الافتتان بالغريب ، متناسين الحكمة العامية القائلة : من تزوج من غير ملته مات بغير علته .

ومهما ينفتح الشرق على الغرب يظلّ الشرق شرقاً والغرب غرباً من جهة الأخلاق والعادات والتقاليد و (الفولكلور) والشيم التي أعرقت في النفوس بحكم الوراثة واللاوعي الجماعيّ L'inconscient Collectif الذي تأصّل في الشعوب فصار هو إياها .

ولا يتوَهّمَنّ أحد ان الغربيين جبلوا من معدن التبر وسائر الناس من تراب . فلئن جلّى الغرب في ميادين المعرفة من فلسفة وعلم واختراع ، فإنّ الشرق ما برح سابقاً في الجود ، والأنفة ، والحفاظ على العهد ، وحسن الضيافة ، حريصاً على طيب الأحدوثة ، غير ممعنٍ في الإلحاد . أمّا الاساطير التي تعزو الى الغرب كل مكرمة فما تعدت كونها أساطير . فاذا كان القوم

قد تقدّمونا في مجال الثقافة والعمران، فلقد تخلّفنا في مجال الإجرام والبطش . فما هبّت حربٌ في القرن العشرين إلاّ كانوا هم دعاتها وزبانيتها وأضحى المعمور وَقُودَها . وإن الامة التي أطلعت غوته وكنط وشلر وهجل أطلعت غليوم وهتلر ، وبين هذا وذاك زهقت أرواح ما يربي على ثلاثين مليوناً من البشر . فأية مدنية هي تلك التي لا تأتلي تبتكر أسباب الدمار ، وترفع بيد قوية راية الاستعمار، فتُسلِّط عبيد شهوات على عبيد الهوان.

ويا طالما استَحْيَت وأبادت تبعاً للمنفعة . وقد تعمد الى الإفناء الجماعي فتمحو الجماهير كما يُلاشى الذباب ، وكما أبيد عشرات الالوف من الهنود الحمر عقيب اكتشاف اميركا ، وما تزال العُنصرية قائمة الى يومنا هذا ، ولا ذنب للمضطهدين إلاّ جلودهم . وأرجّح انه لم تقم ثورة في دولة ، أو فتنة في إقليم إلاّ ويد الغربيين من ورائها ، تارة باسم القومية وطوراً باسم الدين ، والدين أيسر هموم الطغاة والغاصبين. ولقد أخطأ أحمد شوقي حين توهّم اللورد ألنبي فاتحاً على اسم المسيح فخاطبه في قصيدته الرائعة التي منها :

يا فاتح القدس خلّ السيف ناحيةً ليس الصليب حديداً كان بل خشبا

ولا ملامة على أدباء إخواننا المسلمين ، الذين أرضهم أرضنا ، وسماؤهم سماؤنا ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، إذ يحسبون المسيحية ديناً وقومية معاً كما هي الحال في الإسلام ، على حين ان المسيحية دين فحسب، يرتكز على ركنين لا ثالث لهما : الوداعة والمحبة على حد قول أحمد شوقي نفسه :

وُلِد الرفقُ يوم مولد عيسى والمروآت والهدى والوفاء
لا وعيد لا صولة لا انتقام لا حسام لا غزوة لا دماء

فإلى هذا التعايش السلمي الذي بيننا وبين اخواننا المسلمين الذي تفرضه المسيحية فرضاً جوهرياً ، والذي دعا اليه قداسة البابا بولس السادس، أدعوكم أيها الاخوة المباركون فنكون سلماً للوطن وحرباً على الإلحاد .

ألا وإن الغزاة همُّهم في السلطان والفتح ، يفتكون بأهل الصليب كما

يفتكون بأهل الهلال ، يعبدون القوة وحدهـــا ، والغاية في رأيهم تسوّغ الوسيلة مهما تكن فظاعتها .

تلك هي جرائم الدول . أما جنايات الافراد فهناك أسطورة أخرى تشيد بصلاح الغربيين وصدقهم في التجارة ، وكرههم للرشوة ، واجتنابهم للنفاق والاحتيال والتزوير أما الواقع فيكذب هذه الخرافة ، فإن أشرارهم أساتذة مجرمي العالم كله ، وما أشرارنا إذا قيسوا باولئك إلا عبيد بطّالون. فاذا كان جيّدهم يسمو جيّدنا ببضع درجات فإن رديئهم ينحطّ عن رديئنا بألف درجة ودرجة .

وإذن فمن يقترن بغربية لا يعظم شأنه عفويّاً وبالفعل ذاته ، ولا ينبل قدره إلاّ ان يكون شريفاً اقترن بشريفة ، ففي الشرق كما في الغرب حنطة وزؤان ، وطوبى لذوي البصائر المستنيرة .

وبعد فإن الفتاة اللبنانية أحق بالفتى اللبناني إنهما نصفان يكتملان وكلاهما وطن للبنان .

ويغالي الانفلاتيون في اتّهام السلف الصالح بالتزمّت والتضييق على الأبناء في اختيار الزوج ، ولكن مساوىء التشدّد ليست شيئاً مذكوراً إذا قيست بالأرزاء اليومية التي نشهدها في عصر الفوضى هذا ، وقد انتهكت الحرمات فلم يبقَ من قيمة للقيم .

أما وإن الأشياء تتميز بأضدادها فإني أجدني مضطراً للمقارنة بين الامس واليوم فأبدي نماذج من كليهما .

بالأمس كانت القاعدة في الزواج موافقة الوالدين يصدران عن تجربـــة ورويّة فيشترطان التكافؤ ، ويتقصّيان سيرة العروس ، وسلوك والدتهـــا ، وماضي ذويها ، وسلامة الأصول من العاهات الجسمانية والنفسانية ، وصلاح الفتاة لشؤون البيت وتربية الاولاد ، ومبلغ تقواهـــا وحشمتها ، ومقدار

انسجامها مع العائلة التي ستندمج فيها ناظرين الى ديمومة الزواج وما ينجم عنه من هناء مستمر أو نزاع مستعر .

أما أهل الزوجة فكانوا يؤثرون في الصهر الشهامة والسخاء والرجولة، فلا يرتضونه سِكّيراً مقامراً ماجناً، بل يختارونه رصيناً سليل عائلة أثبتت الايام شرف محتدها .

أما اليوم فيتم الزواج في لقاء عابر عاثر ، وعلى الوجه الذي أسلفت الكلام عليه ، فيكون فاتحة لنكبات وقد تفضي الى الانفصال او الى الدمار ، او الى الانتحار .

بالأمس كانت العائلة اللبنانية ، ولا سيما الريفية ، هانئة في عيشة راضية أجمل ما فيها بساطتها الحلوة ، إذ هي متآلفة الاعضاء ، مشدودة الأواصر ، يفترق أفرادها سحابة النهار في طلب المعـــاش، ويؤوبون في العشية الى بيت يلتمع نظافة ورونقاً ، أولته الزوجة كل عنايتها كأنه جزء منها وكأنها بضعة منه ، ثم انتظرت الزوج والأولاد باسمة فكأن اللقـــاء في كل أمسية فرحة جديدة ، إذ يطرّح المتعبون أعباء العمل على العتبة ، فيغتسلون بالماء الساخن ثم يصلون صلاة المساء يعقبها عشاء طيّبته المحبة ، تنطلق فيه الألسنة انطلاق العنادل بالتغريد ، اغتباطاً بما أدّت من واجب تعتبره فرضاً مقدساً فلا تنساق اليه قسراً بل نشيطة النفس ، فينشرح صدر الأبوين كما تزهو الشجرة بغصونها الأماليد أنعشها الطلّ فتظاهر الجذع والغصون على إنمائها ، فأثمرت وأينعت واستفاضت بالخير والبركة .

وغبّ العشاء كان الجيران يتزاورون فيسمرون في الزوايا الحميمـــة سمراً بريئاً يدور فيه الحديث على قضايا الساعة من زرع أو حصاد أو ماشية . ثم ينبري أحدهم لقراءة فصل من الكتاب المقدس ، فاذا كان رخيم الصوت كلّفه الساهرون أن يترنم بقصائد عنـــترة وأمثاله من الابطال الذين جمعوا المآثر من أطرافها .

وكان النقل يدار على الحاضرين قياماً بواجب الضيافة ولا سيما في ليالي الاعياد ، فاذا كان الفصل شتاء ُقدّمت الحلاوى من التين والزبيب والجوز وما شاكل ذلك من غلاّت الريف ، لا من واردات أوربا التي تنهك الجيب والصحة معاً .

أما اليوم فقلما تأوي العائلة الى البيت لانه تحوّل الى فندق خَرِب يعبث فيه الخدم بدون رقيب، وفي المثل العامي: أن المال السائب يعلم الناس الحرام.

وأول من يغادر الفندق ربة العائلة ما لم تكن غرقت في رقادها مهدّمة الأعصاب ، عقيب سهرة تمادت الى الهزيع الاخير من الليل ، فخسرت فيها كثيراً من المال والشرف . و ُتخلّف المنزل مبكّرة إما الى دور الخياطة والتزيّن ، وإما الى (الصبحيّات) النسائية التي تكثر فيها الثرثرة والهذر واللعب بالورق ، فمنهن من ينكبن أزواجهن بخسارة يسيرة . ومنهنّ من يطوّحن بالفندق وأثاثه ورياشه فلا يبقى لصاحبه إلا ما ارتدى من ثياب، أو دسّ من نقود استنقذت من الغرق في الجيوب الفارغة الفاغرة التي تثاءب وتمطّى في انتظار الشبَع ، ولا يسدّ نهمتها خزائن فورد وركفلر ، ولو كان بعضها لبعض َمدداً ، لان الغزو مستمر ، والغارة شعواء ، وحلبة السباق بين الإخوة قائمة ، فما أهابت بهم لذّة إلا خفّوا اليها ، ولا لَوّحت لهم حمأة إلاّ تمرّغوا فيها ، فلا تجدهم إلاّ عطاشاً يَلِغُون في أيّ إناء منها أسِنَ ماؤه، لأن الاذواق تفسد بفساد الضمائر وعَمَه البصائر .

وقلما يلتقي أفراد العائلة إلا مصادفةً . فمن الشبان من يبكر فيأوي الى سريره عند منتصف الليل ، ومنهم من يعود عند صياح الديك ، ومنهم من يرجع بعد انبثاق الفجر وقد تعتعه السكر بعد ما رهن ساعته في المقامرة ، أو وقّع سنداً طامعاً برحمة الوالد ، يحسب حنانه غباوة ورأفته غفلة ً . وربما أمضى سنداً مؤجل الدفع الى ما بعد وفاة أبيه ، وهو على مثل اليقين من قِصَر حياته لما أثار في قلبه من الهموم التي تقضّ عليه مضجعه وتقصم ظهره .

وربما عادت الابنة الوحيدة وقد عسعس الليل مصحوبة بشاب غريب لم تعرفه إلا الساعة وهما يتمايلان ثملا ، فلا تخاف تأنيب الوالدة ، فكلتاهما في الوَحَل غوّاصة ، ولا بدّ لمن يقرأ العزائم على الممسوس ليطرد منه الشيطان أن يكون هو نفسه خِلواً من الشيطان .

وقد تجد في العائلة الواحدة أهواءً تباينت فتنافرت وانتمى كل فرد منها الى حزب هو به فَرِح فانحلّت عرى الأخوّة ، وتباغض الأشقّاء فتناهشوا فعلَ الذئاب الجائعة ، ومردّ ذلك كله الى سبب واحد وهو ان العائلة تخلت عن الله فتخلّى الله عنها .

بالامس كانت العائلة اللبنانية تؤمن بإله واحد ، خالق السماء والارض وما بينهما ، وبوطن واحد هو لبنان .

واليوم أصبح سواد العائلات اللبنانية بابلَ جديدة تضطرب فيها الالسنة والرغائب وتعبد الاوثان من دون الله ، وإن تنكّرت بمختلف الازياء والاقنعة . أما الوطن فقد اختلفت عليه الرياح . فمنها السموم الحرور ، ومنها المتناوحة وهي التي تهبّ من كل النواحي . ومنها الحاصبة وهي محلّية إقليمية تكنس الحصباء وتحذف بها أهل البلد . ومنها النكباء وهي التي تقع بين ريحين إحداهما غربية والاخرى شرقية ، ومنها الزعزاع وهي التي تقتلع الاشجار وتلقي بها الى الغبراء حطباً . اللّهم أبعدها عن الارز الحبيب وبدّلنا من الرياح جميعاً نسيماً بليلاً وأدم لنا صفاء ينابيعنا كوثراً سلسبيلاً .

ولا يشتدنّ عليكم أيها الاخوة المباركون ما قد لمستم في كلامي من قسوة وتأنيب أردت بها التقويم والتهذيب ، فلقد صدفت عن التجريد فأتيت البيوت من أبوابها ، وسمّيت الاشياء بأسمائها ، متخذاً صور القبح والجمال من صميم الواقع . ولئن غضبت لكرامة العائلة ، الوطن الصغير ، فلأنها نواة الوطن الحبيب لبنان وعماده ، وعدّته وعتاده .

ولئن تطرقت الى السياسة تطرّقاً جانبياً خلافاً لعهدكم بي فانما ألجأني الى

ذلك البحث الاجتماعي الذي ركزته على الإيمان والاخلاقيات .

ولقد هالني ما شهدت من التدهور الأخلاقي ، وفساد النشء ، وذوبان القيم في خضمّ الرذيلة ، فجلجلت في صدري حماسة أنبيـاء التوراة من هوشع الى يوئيل وعاموس وميخا ونحوم وصفنيا وزكريا ، وعاودتني ذكرى المعلم ، له المجد ، باكياً على أورشليم ، فأيقنت أن المبضع أجزل عائدةً من البلسم في علاج الزائدة المعوية ، وأن الغنغرينا لا يرجى شفاؤها اذا غسلت بمـاء الورد وضُمّدت بالمرهم ، فآثرت الاستئصال الجزئي لإنقاذ الجسم ، وما جاوزت في البيان تعبير الإنجيل الطاهر ينعت الأشرار بالقبور المكلّسة والثعالب والأفاعي وأبناء الأفاعي . ويمتحن إيمان المرأة الكنعانية فيقول لهـا إن خبز المائدة يُدّخر للأبناء ولا يطرح للكلاب ، والمراد بالكلاب قومها ، ويسمي صيارف الهيكل وباعة الحمام فيه لصوصاً فيقلب موائدهم ويطردهم طرداً ، وكذلك القول في القرآن الكريم في باب الذم حيث الآية « همّازٍ مشّاءٍ بنميم ، منّاع للخير معتدٍ أثيم ، عتُلٍّ بعد ذلك زنيم » .

أما وقد نبّهت خواطركم الى الآفات التي تهدد الإيمان والأخلاق والوطن الغالي الذي يكاد يصبح لنا دار اغتراب فاني منتقل بكم الى الفصل الأخير من هذه العظة ، وهو مسك ختامها بل مسك المسيحية ونقطة انطلاقها ، ولقد أدركتم ولا ريب اني أعني المحبة .

ولقد آثرت الكلام عليها مجسّمة في شخص ليكون ذلك أدنى الى الأفهام وأبلغ في النفوس فـلا يعظ المرء شيء كالواقع ولعلها مفاجأة لكم اختيار المجدلية مداراً للبحث . تلك المرأة التي تستحق حياتها لا أن تدوّن بالقلم ، أو تحكى باللسان فحسب ، بل أن ترتّل على أوتار الملائكة ترتيلاً ، وكأني بها وقد أكبّت على قدمي السيد تقول : انا النعجة الضالة أعود الى الحظيرة . أنا الفلس المفقود الذي تداولته الأيدي الزهمة ، فكما طهّرت البُرص طهّرني ، وكما شفيت الأكمه افتح عينيّ على النور ، أنا الكنعانية فألقِ إليّ بكسرة من

فتات مائدتك ، ولا تُلْقِ إليّ بوجهك ، انا الحقيرة فبحسبي ان تمنحني أصابع رجليك .

كانت مريم المجدلية معرقة في النسب تُنمى الى داود الملك ، وكان أبوها تاوفيليوس أميراً عاملاً للرومان وأباً لأليعازر ومرتا ومريم ، له السلطان والعبيد والخول ، والضياع والقصور ، منها ما كان في اورشليم وبيت عنيا ، ومنها ما كان في المجدل على شاطىء بحيرة طبريا . وكانت مرتا نشيطة عصبية قوية الإرادة ، (ديناميكية) المزاج ، تحسن إدارة الاملاك وتهتم بأمور كثيرة ، وقلما تعنى بشؤون الهوى .

أمّا مريم فكانت أدنى الى التأمل والإغراق في الخيال منها الى الواقع مزهوّة بحسنها ، تعبد جمالها من دون الله . وقد ساقها سوء طالعها الى الزواج من فريسّي مُسِنّ ، جلف غيور ، فكان هو القفر الذي تنبو عنه العيون وهي الربيع الباسم . ولقد بلغت منه الغيرة المبالغ ، فطلّقها ثم قضى بعد قليل ، فأتت قصرها في المجدل ، وحامت حولها الأنظار والأفئدة، فلم تثبت حيال عواصف الإطراء ، والمدحُ أخطر ما يتوسّل به الشيطان للإغواء ، وأعمتها الهدايا والألطاف تنهمر عليها من ضبّاط الرومان وعُمّال الأباطرة ، فتبوأت عرش ملكة الجمال والفجور معاً . فبلغت من الإغراء قمة القمم ، ومن العار سفح السفوح ، حتى قيل فيها إنه قد احتلها سبعة شياطين ، ولو قيل بل سبعون لما وجدت بين معاصريها مكذباً .

ثلاثة أسهم أصابت مقاتلها فأردتها : جمالها وكبرياؤها وطيشها . ولو لم تكن صاحبة قصر لرُجمت أسوةً بسواها من الزواني ، ولكن الجمال والمال ، وسلطانها على الرجال ، حصون لم تنفذ إليها شريعة موسى . ومن هذه الحصون أطلّت على العالم تنقل أصابعها على أوتار اللذة جميعاً فتسمع أنغامها ما يفوتها لحن ، فآثرت الحياة صاخبة حارّة ، إذ كان العدم والسكون لديها صنوان . ولكن تلك اللذات الموقتة ليست إلاّ هرباً من السأم ، وما تنتهي

بسوى الخيبة والموت ، فويلٌ للممثلين على تلك المسارح المُوحِلَة تزلّ فيها أقدام السادرين الألى ينشدون الخلود في الزائل، ويتوهّمون المطلق في النسبي. ولقد سئمت الجدلية بعد إذ أترعت الكؤوس فانطفأ الحبـاب ومرّت الثمالة مرارة العلقم ، وعبثاً راحت الداعرة تبحث عـن غرام جديد تسدّ به فراغ حياتها ، فاذا هي تملأ الفراغ بالفراغ .

بدأت الكآبة أول ما بدأت غمامة صغيرة في أفقها الصاحي ، ثم أخذت في النموّ فحاولت أن تذيبها بحرارة جديدة ، فضـاعفت أشراكها ، وزادت عصبة خلاّنها ، فما ازدادت إلاّ همّاً وعزلةً ، فاستولى عليها الغَثَيان ووخز الضمير ، وكان ذلك الليل البهيم آخر ظلام في حياتها ، قبـــل ان يطلع فجر النعمة .

لقد سمعت بمعلّم جديد في اسرائيل أتراه إياه ، أيكـون بعيد الشأن خطيرَه ، وما ابوه إلا نجّار فقير ، وما رِفَاقُه إلاّ جُفاة غلاظ ، وسوقة رعاع ، لا نادي لهم ولا منبر ، فالمعلم يتكلم أينما عنّ له الكلام ، في الطريق وفي الحقل ومن الزورق .

أيكون هذا الخطيب التائه شخصاً جديراً بالاهتمام ، بعدما سمعت عُشّاقها يتهكمون به في أسمارهم ، زاعمين انه يبغي للناس ولادة ثانية، ومملكة يكونون فيها إخواناً، وهو يجدّف على الله زاعماً أنه ابن الله ، ويهجو الفريسيين دهاقين اسرائيل وحُماة الشريعة هِجاءً مقذعاً ، فيدعوهم أبناء الأفاعي ، أو لم يقل لهم إن البغايا يَسْبِقْنَهم الى ملكوت السماوات .

وربما فكرت أن تشاطر الساخرين سخريتهم آخذةً برأي الغوغـاء ، وهم سواد الشعب في كل زمان ومكان ، يحكمون على السماع ويشقّ عليهم البحث ، وكيف تسعى اليه وهو عدو الزواني ، والزنا دأبها ونسيج وجودها ، فيا لها من معركة نشبت في قلبها فمزقته بَدداً ، فلقد لمحت الناصريّ ماراً والنـاس خلفه يتدافعون ، وسمعت صوته من بعيد ، وما ينفكّ صيتُه ينتشر انتشار

الضياء فينتظم الأسماع وتُحدّث به الركبان ، فإنه يطهّر البرص ، ويشفي العميان ، وها أن متى العشّار عابد الذهب قد ترك الذهب واتّبعه ، وها هي بيوت الأكابر تشرّع أبوابها لاستقباله . ويزعمون انه منذ كان الإنسان على وجه الأرض لم يتكلم أحد كما تكلم . كان ذلك الصوت يحفر في أعماقها وقد أفرغتها من كل شيء ليحتلّها الإيمان ، لانّ النعمة لا تحلّ إلاّ حيث يُمهَّد لها ، فلقد تنادت مسارب المياه من جهات خفية ، وتجمعت في الخزّان فتفجر الينبوع – أجل أيها الإخوة المباركون ان الله لا يعطي ذاته للكسالى ولا للبُلَداء ، ولا للمعتقدين بكمالهم ، وانما يُجتلب الإيمان بالإرادة الصالحة .

ونهضت المجدلية وتناولت إناءً مليئاً بالطيب ، وألقت نظرة الوداع الأخير على قصر شيد بالمرمر المسنون ، فكسف القصور أُبّهة وجلالاً ، وفاقها متاعاً وآنية ورياشاً ، بيدَ أنه كان موئلاً للخنى وبؤرة للبغاء .

في تلك الهنيهة المكوكبة بزغ فجر جديد في تاريخ البشر ، فتلاقى الندم والغفران والمحبة : حلقات ثلاث في سلسلة واحدة .

المجدلية والمحبة

وكان يسوع في بيت سمعان الفريسي متكئاً مع أقطاب الفريسيين يجادلونه في ناموسهم ، بعد إذ رأوا في التعليم الجديد اضواءً تفضح ما باض وفرّخ في الجحور والوكور القديمة ، وبينما هم في نقاش محتدم دخلت البغيّ فاضطرب المتكئون ، وكانت قد تهيأت لعملها العظيم ، فارتدت أنفس حلاها ، والتفّت بالأرجوان ، وتطيبت وأرسلت غدائرها المشبّكة باللآلي ، وعلى يديها حملت إناءً مفعماً بالناردين . ودخلت واجمة وُجُوم القبور ، غير ناظرة الى

أحد ممن تعرف ، بل اتجهت الى غاية الغايات ، وانطرحت على قدميه ، ثم انفجرت باكية وبالدموع غسلت رجليه وأوسعتهما تقبيلا ، وبشعرها الذهبي الذي جرّ الغُواة الى الهلاك مسحتهما ، وكان دمعها أفصح خطاب في منبر التوبة .

بعد اليوم لن يقربها الشيطان فيبتعد عنها بُعدَه عن السماء التي دُحْرِجَ منها رجيماً ، فأضحى قلبها فردوساً أرضياً ، وبعد ما كان قمامةً أصبح للطهارة عرشاً وسادت الدهشة والصمت في الغرفة ، وفضّت مريم ختم الإناء ، وأهرقت العطر على قدمي السيد ، وأخفت رأسها بين قدميه ، فحار التلاميذ ، وراودَتْهم التجربة ، وتزحزح الفريسيون لهذه الفضيحة ، وهمس أحدهم ، مستشهداً بسفر الحكمة ، وعلى فمه ابتسامة الساخر : الصيت الحسن خير من الطِيْب الغالي .

وصعق سمعان صاحب البيت لهذه المفاجأة فانتهر الخدم الواقفين وقوف الأصنام ، لأنهم لم يصدّوها عن الدخول . وفكّر في نفسه قائلاً لو كان هذا الرجل نبيّاً لعرف من هي المرأة . وارتفع صوت المعلم ، فانشرح سمعان وحسب أنْ سيطردها ويسلم شرفه وشرف ضيوفه الأطهار. فقال السيد يا سمعان ، كان لدائنٍ دين على رجلين ، على الأول خمسون ديناراً وعلى الثاني خمس مئة ، فأسقط عنهما الدين فأيُّهما يحبّه أكثر ؟ فقال سمعان ، المديون بالمبلغ الاكبر ، فقال المعلم بالصواب نطقت أرأيت هذه المرأة ؟ وكيف لا يراها وعينه وعيون ضيوفه اليها هازئةٌ مُحقّرة ، ولولا حرمة يسوع لطردها هو وضيوفه تحرُّجاً من النظر الى عَاهِرة يطردونها جهراً ويُحنُون هاماتهم الشوامخ أمامها في الخفاء جرياً على عادة الفريسيين في كل عصر ، أولئك الذين يحبون السلام في الأسواق ، وصدور المجالس في المجامع ، ويحملون الناس أحمالاً ثقيلة ولا يمدون اليها إصبعاً . ورقّ صوت المعلم بدلاً من ان يخشوشن ، ولم يتجه الى الخاطئه موبخاً بل سدّد بصره الى الفريسي المُرائي ، رجل الدين الوجيه المتزمّت ، وخاطبه قائلاً : دخلت بيتك فلم تعطني ماءً لأغسل رجليّ

وهذه غسلتها بدموعها ، ومسحتها بشعرها، أما أنت فلم تقبلني وهي طفقت تلثم قدميّ . انت لم تدهن رأسي بالزيت وهي دهنت رجليّ بالطيب . لهذا أقول لك ان خطاياها الجَمّة قد غفرت لها لأنها أحبّت كثيراً . من يغفر له قليلاً يحب قليلاً ، وقال للمجدلية : مغفورة لك خطاياك ايمانك خلصك إذهبي بسلام .

فيا للأعجوبة التي أدهشت الملائكة ، إنها لمّا سقطت على رجليه، واردةً كانت امرأة ، فلما نهضت صادرةً أصبحت مريم ، كانت ساعةَ جاءت سفيرةَ الموت ، فلما آبت أصبحت رسولة الحياة . فأين بطولة الأبطال من شجاعتها ، إنها لم تخشَ طرداً ولا سخرية ، فكان المسيح همّها الوَحَد .

اما الكبراء الأصاغر، والمُتزمّتون الأشرار المعجبون بما أوتوا من سلطان ، فكانوا في عينها رماداً .

* * *

أيتها المجدلية لقد كنت أوفر شجاعةً من آدم فهو ، بعد خطيئته فرّ من وجه الله ، وأنت مشيت اليها قدُماً . آدم توارى في الظلمة ، وأنت واجهت النور ، هو رأى خطيئته فتغطّى بورق التين وانت رأيت خطيئتك فحدّقت الى شمس العدل . أيها المسيح ما أعظم صديقتك هذه ، وما أجبن الذين ينكرونك ويخجلون بك وبصليبك ، ويفاخرون بصداقتهم لموظف حقير قد زحف الى المنصب زحفاً ، وألصق أنفه بالرغام ألف مرّة ومرّة ، فلما وَليَ من أمر الناس ما قد وَلِيَ ، انتفش وتغيّر وهزَل فيه الإنسان حتى غدا مِسخاً .

ويباهون بمودتهم الى ممثّلة أو راقصة تداولها الفَجَرة فأنتنت ريحها ، كأوراق النقد توالت عليها أيدي الجزّارين ، فتبادر اليها الزهم وتهرّأت لفرط ما تراكم عليها من أوضار ، أو يعتزون بصداقة زعيم ، أو رئيس عصابة يهوّلون به على خصومهم حين تدق ساعة الانتقام .

إن المتكئين حسبوا المسيح مجدفاً إذ أقدم على غفران الخطايا وإن كان نبياً ، أما هي فأدركت ، بحدس المرأة الذكية وحسها الخفي ، أنه أكثر من نبي ، فآمنت به وأعطته نفسها ، والحب معناه العطاء لا الأخذ ، فانه الكوة المفتوحة على اللانهاية ، لا تلك الغريزة الحيوانية التي ترادف الأثرة . الحب يحرر ويرفع ويضحي ، والغفران هو أعلى درجات الحب .

لقد كانت المجدلية أول المعترفات والمعترفين قبل ان يقول المسيح لبطرس ما حللتموه في الأرض يكون محلولاً في السماء . لقد خطِئَت بحب شهواني وستعوض بحب روحاني ، فالنعمة لا تلاشي الطبيعة بل تسمو بهـــا فتطلع الوردة من المزبلة .

قال لها اذهبي بسلام إيمانك خلصك فمن أي نوع كان ذلك الإيمان ؟

أهو الإيمـــان العقلاني الذي يتحصن في الأدمغة ، فلا يتخطى حدود المعادلات الرياضية ، ولا يختلج في القلب ، أم هو الإيمـــان الذي لا يتعدى الشفاه الى الأعمال ؟ انه المصباح بدون زيت ، أو هو إيمـــان المنافقين الذين يكذبون على الله ، وما يكذبون إلا على أنفسهم .

المجدلية تألمت وأحبت ، ولكن ليس على الأرض شيء عظيم يأتي بدون ألم ، فالألم والحب توأمان ، وهذا رأي يصح في الدنيا والدين .

في بيت الفريسي أظهرت المجدليـــة ألماً محبّاً وحبّاً متألماً ، وسترافق حبيبها حتى قمة الألم على الصليب ، حيث شك فيه التلاميذ وارفضوا من حوله عدا يوحنا والمجدلية . فما أعظمه إيماناً برجل كلل بالشوك ، وبصق في وجهه ، وجلد بالسياط ، وتخضبت خشبة العار بدمه .

ألا وإن الألم والنكبات محك للصداقة ، وما أندرها على وجه الأرض .

لقد كان الحب الذي عرفه العالم قبل المجدلية عارضاً يزول بزوال سببه ، كأن يغيض رونق الحسن ، أو يذهب الشباب . وعلى الجلجلة انتهى كل شيء ، وظل حب المجدلية أقوى من الموت فلم تشك قط . وكم من المسيحيين اليوم ،

بعدما توطدت المسيحية وضربت بجذورهـــا في الزمن منذ عشرين قرناً ، يشككون في الله اذا ألمّت بهم نكبة ، أو اذا انتصر مجرمون ثلاثة : مدّعٍ مجرم، وقاض مجرم ، من ورائهما مجرم ذو سلطان ، على متّهم بريء، فعُذّب وسجن واضطهد، فانتصرت الرذيلة في عالم يُصفّق للأشرار ، فما يعتدُّ بسوى نجاح الظافر ولو كان لصّاً زنيماً، أو منافقاً لئيماً، يمدّه في لؤمه وشرّه أشرار فجره، أو ثعالب مكره،وكأيّن من مجرم ذي سلطان خان الأمة فملأ خزائنه من خزانة الدولة فاجتمع له من الرشوة والكسب الحرام شيء كثير ، فداس الضعفاء ومشى على الجماجم . وربّ رئيس عصابـة مهرّبين أبطره الغنى ، فنعم بالمال وتمتع بالعافية والعمر الطويل إذ الأبرار والمحسنون رمايا الأسقام والهموم لا يعلمون الى من يسندون رؤوسهم وكيف يتقون المصائب . فيقول المشككون أين الله؟ وأين ملكوت السماوات .. والعناية التي لا تسقط شعرة من الإنسان بدون إذن منها ؟ بلى ايها الاخوة المباركون ، ان الظلمـــة التي اكتنفت الجلجلة ما تزال تهزّ النفوس فتطيح بالإيمان .

المجدلية ، بعد أمّ الله ، أدركت ما لم يدركه أحد من سر الفداء ، فلم تشتم الصالبين ، ولم تتفجع ولم تنثر شعرها ، فاتّعظت بعلمهـــا الذي غفر لصالبيه ، وكبتت في حناياها سَورة الغضب والانتقام ، وليت رجال الدين، وأنا أحقرهم ، يعتبرون بغفران السيد ، فلا يبتدعون في الانتقام سُبلاً لا يحلم بمثلها مجرمو الغوغاء، لما فيها من افتنان في الوقيعة وابتكار علميّ في التنكيل.

المجدلية فهمت أمثولة اللص اليمين فذكرت ماضيها في لصوصيـــة الزنا ، وأيقنت أن هي أيضاً ستدخل السماء مثله، بيد أنها لم تتنبّأ فترى قافلة التائبين بعدها، وعلى رأسهم بولس الإناء المصطفى واغوسطين ومريم المصرية واغناطيوس دي لويولا وشارل دي فوكو حتى أن عددهم لا ينتهي الى يوم الحشر . وهكذا أصبحت أولى الشهود على القيامة ، ورسولة المسيح الى رسله . وتمّ قول السيد للفريسيّين : ان البغايا يسبقنكم الى ملكوت السماوات .

أما وقد قدمت لكم المثل الأجمل على المحبة فاخترته من صميم الواقع ، فاني أجدني مضطراً لتفنيد بعض مزاعم الملاحدة أو المشككين ، أو النشء الفاسد الذين يتأولون ويأفكون . فمن مزاعمهم ان المسيح لم يقل جديداً بل رجّع أقوالاً ذكرها الشرق والغرب ، فليعبده الأغبياء والجُهّال ، أما هم المثقفون فلا .

ألا تبّاً لهم من مثقفين لا يفرقون بين البلّور والألماس. قبله كانت الشرائع، اذا ما لوّحت بالمحبة والتضامن ، فمن قبيل السياسة وبين أبناء الوطن الواحد، أما الأجانب فليس لهم سوى البغضاء والموت .

قال لاوتسو : قابل الإهانة باللطف ، ولكن ألا ترون ان المجاملة والوداعة هما غير المحبة ؟

وقال كنفوشيوس: الرجل البار هو الذي يضع البغضاء والمحبة حيث يجب ان توضعا .

ولقد أوجب غوتاما بوذا محبة الناس والحيوانات جميعاً ، وانما محبة البشر في البوذية تهدف الى ملاشاة حب الذات ، الذي هو ركن الوجود ، والى ملاشاة الألم بإغراق الروح الشخصية في الروح الكونية ، وهذا يشبه الروح الرواقية المستكبرة الجامدة التي تتجاهل الألم كما تتجاهل الفرح .

وزرادشت أوصى المؤمنين بعضهم ببعض ، أي بتبادل المنافع بعيداً عن الحب .

وموسى أوصى بالرفق ، وما تعداه الى المحبة .

أما صاحب المزامير فما انفك يستنزل غضب الله على الأعداء، فمن هذا القبيل قوله فلتسقط الجمار على ظهورهم وليسقطوا في النار ، في الهاوية حيث يمكثون ولا يصعدون ، فليذهبوا فريسة الفخاخ التي نصبوها ، وليتردّوا في الحفرة التي حفروها وليهلكوا . حينئذ تغتبط نفسي بالرب .

وقال الحاخام البابلي هيلل لا تفعل بغيرك ما لا تريده لنفسك ، فاتخذ الموقف السلب ولكنه لم يقل افعل الخير مقابل الشر الذي تلقى ، فهناك منع من الضرر لا أمر بالمحبة. وأتباع هيلل هم التلموديون الذين أغرقوا الناموس بالوحل . اما أتباع يسوع فهم الشهداء ، وأنسال الشهداء ، الذين يباركون جلاّديهم .

قال سقراط : على البارّ ألاّ يفعل الشر احتراماً لنفسه ، وحبّاً بالعدل ، لا محبة للقريب .

أما الرواقيّون والفريسيون والفلاسفة العنجهيّون فلقد كانوا يظهرون السماحة اجتلاباً للمدح ، فيعطون للجائع خبزاً خميرته الكبرياء .

العالم القديم لم يعرف الحب ولكنه عرف شهوة الجنس ، وصداقة الصديق، وإنصاف المواطن ، وبذل الضيافة للغرباء . ولقد كان الاغريق يهبون الدواء للمرضى، ويغذّون البائسين بالكلم الطيب ، ولكنهم جهلوا الحب الشامل الذي يَسَع القريب والغريب، والبشع والجميل، والاخ والعدو ، والفيلسوف والجاهل. كلا لم يكن في العالم القديم مكان للحب الذي يهدم البغضاء ليبني الحب الذي هو أقوى من الموت نفسه ، الحب الذي ليس تناسياً للشر بل محبة للأعداء .

قبل عظة الجبل التي كانت عهداً جديداً لبني البشر كان الحب مجهولاً ، فماذا قال يسوع :

قيل لكم أحبب قريبك ، وأبغض عدوك ، وأنا اقول لكم أحبّوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا الى مبغضيكم، اقتداءً بأبيكم السماوي الذي يُطلع شمسه على الأخيار والأشرار ، واذا انتم أحببتم من يحبكم فأيّ فضل لكم ؟ إن الوثنيين أيضاً يفعلون ذلك . ولمّا سُئل عن تعريف القريب . قال :

كان رجل نازلاً من أورشليم الى أريحا فسلبه اللصوص وجرحوه ؛ ثم مَرّ به كاهن ثم لاويّ وتركوه . ثم مرّ سامريّ فضمّد جراحه ، وأردفه على حصانه ، ونقله الى الفندق ، وأعطى دينارين للفندقيّ ووعده بدفع الباقي .

لقد أراد يسوع ان يبدّل وحشية البشر فأمرهم بالمحبة، فقال كونوا كاملين لأن أباكم السماوي كامل .

وإذا كانت المحبة مستحيلة فالخلاص مستحيل ، فاذا عِفنّاها فقد عِفنّا الغبطة الأبدية .

وحب الاعداء يبدو جنوناً عند العامّة، ولكن في هذا الجنون خلاصنا ، ومحبة الاعداء تساوي الكفر بالذات اوالكفر بالذات هو طريقناالوحيد الى الله .

فليكن الماضي عبرة للمعتبر ، فلقد تمرّس الانسان بالقسوة والوحشية ، فاستصرخ الدماء، وارتمى في الدعارة فأعقبت المرارة . وحفظ الناموس فظلّ القلب جامداً . واعتمد العقل والمفاهيم وتعدّاها الى مـــا وراء الطبيعة فباء بالخيبة ، وتعبّد للفنّ ، وانصرف الى الثروة ، وبعد هذا الطواف ظلّ أفقر مما كان عليه قبلا وازداد في الفراغ دوراناً .

بعد هذا كله لم يبقَ أمامنا سوى التجربة التي أرادها لنا يسوع ، تجربة الحب . وهي أقسى ما يضادّ فطرتنا ، ولكنها السبيل السويّ الأوحد ، اذ كل شر مصدره الأَثَـرة . وأراد يسوع ان يخلق آدم جديداً يلجم آدم القديم فيثور على الغريزة .

ألا وإن جريمتنا الكبرى هي الإفراط في محبة الذات ، فلنتواضع لأن الودعاء وحدهم يرثون ملكوت السماوات . ولِمَ تُرانا نثور على سوانا ؟ لأنهم اساؤوا الى (الأنا) العزيزة علينا ؟ أو لأنهم لم يخدمونا ، فنقتل أخانا لانه يعترض سبيلنا حسداً وكبرياء، وكل جريرة منبعها حب الذات وكره الآخرين، وإذا أبغضنا الناس لأنهم أبغضونا أفنكون أفضل منهم ؟ فإن كان فيهم عيوب أفترانا نحن كاملين ؟

مسكين هو المبغض كم يتألم ؟ يتآكل الحقد صدره ويوتّر أعصابه ، وربما اجتلب لنفسه مرضاً في القلب ، أو عِلّة في الكبد ، فيكون هو الجاني على نفسه ، وتكون عقوبة الخطيئة من الخطيئة نفسها .

ألا وإن في الفضيلة نفسها صحة النفس والجسد ، ولا ننس أن ذاك الذي ندعوه عدواً يفتح عيوننا على مساوئنا،على غير علم منا ، وعلى غير قصدمنه.

من يحبنا يجد ثوابه في عمله نفسه ، أما من يكرهنا فهو خليق بإشفاقنا لأنه مكروب ينفّس عن كربته ، وهو يبغض لانه يتألم ، ومن يدري فقد نكون نحن سبباً لألمه . فلنرحمه لعلّنا نرده الى السبيل السويّ ، ومن الشر نستنتج الخير ، حينئذ ندخل ملكوت السماوات إذ نحن على الارض ، وندرك السعادة الابدية في السماء .

الفردوس المفقود كان محبّة بين الله والانسان ، وبين الرجل المرأة ، والفردوس المسترجع يصبح محبة الانسان لجميع الناس ، أما البغضاء فهي جهنم الموصولة من جيل الى جيل .

المحبة فوق العدالة ، ومع ان العدالة ركن الوجود فانها ، وحدها ، تظل باردة . العدالة تحفظ النظام والمحبة تخلق وتلهب وتحرّر . لذلك فسرور السماء بخاطىء تائب أوفر من سرورها بتسعة وتسعين بارّاً .

أليس ان المسيح ختم المحبة بدمه قائلا يا أبتاه : اغفر لهم لانهم يجهلون ما يفعلون وأنتم يا ابناء الغابة ، ايها المتجاورون المتنابذون، المتباعدون المتقاربون ، ان كنتم مسيحيين فاتبعوا مسيحكم واغفروا بعضكم لبعض،وقولوا معي أبانا الذي في السموات .

قال ابراهيم فكأني للمرة الاولى في حياتي اسمع الصلاة الربانيّة في هذه الكنيسة ، مصحوبة بلهجة الجدّ ، صادرة عن القلوب ، لا عن الشفاه ؟

انتهى

الفهرس

صفحة

كتب للمؤلف

علي والحسين	نفدت
فلسطين وأخواتها	»
الأمير بشير	»
مذكرات جريح	
ملحمة عيد الغدير	
حديث العشية	
الصراع في الوجود	
حكاية عمر	
ملحمة عيد الرياض	
عيد الستين	

عنوان المؤلف : بولس سلامه – فرن الشباك – بيروت

هاتف : ٢٨٥٣٧٧